دار القبلة للثقافة الإسلامية
للعقلاء فقط
الدكتور محمد عبده يماني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للعقلاء فقط..!

الدكتور محمد عبده يماني

الجزء الثاني

دار القبلة للثقافة الإسلامية
جدة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القبلة للثقافة الإسلامية
المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - الرمز: ٢١٤٤٣ - ت: ٦٦٥٢٤٠٦ / ٦٦٥٩٩٥١ / فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

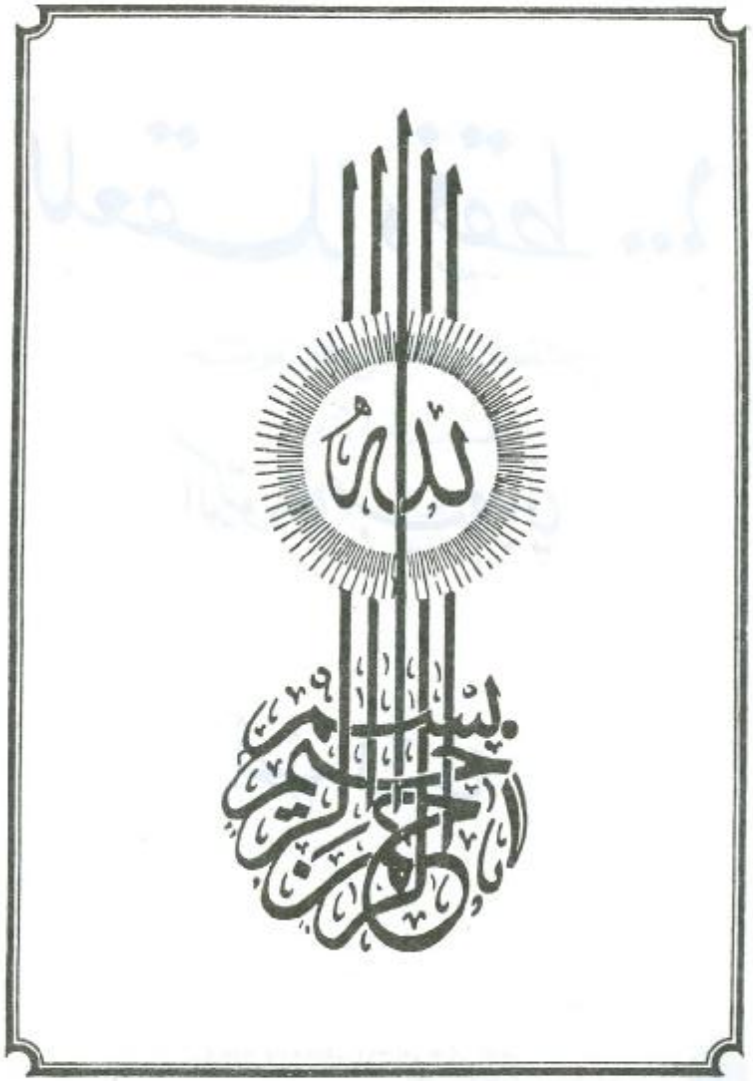

بسم الله الرحمن الرحيم

للعقلاء فقط

متى يصبح العمل في عالمنا العربي.. فضيلة مثل الكرامة والشرف.. وكيف أن نتعلم ونعلم أبناءنا احترام العمل وحب الإنتاج.

وكيف نحس.. ونؤمن بأن بناء الوطن قضية مشتركة.. ودور الذين يقبعون في القاعدة هو نفس دور.. أهل القمة سواءً بسواء الأمانة واحدة.. والمسؤولية مشتركة.. وليس ضرورياً أن ينتظر الموظف في الوزارة حتى يصبح وزيراً ليكون أكثر انتاجاً ولا المدرس في المدرسة حتى يصبح مديراً ولا الجندي حتى يصبح قائداً ولا العامل حتى يصبح.. رئيساً للشركة.. لا نستطيع أن ننتظر حتى نصبح كلنا وزراء أو مديرين.. أو رؤساء لكي نكون أفضل إنتاجاً.

ولا بد أن نحس بأن القدرة على العطاء.. والإنتاج لا ترتبط بالمرتبة.. ولا بالدرجة أو الشهادة وإنما بالعمل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإخلاص في الأداء . . والرغبة في الإنتاج والعطاء . .

ولكن ليت شعري . . متى يصبح العمل عندنا في العالم العربي . . انتماء . . وعطاء . . وبناء . .

ومتى نبدأ في البحث عن طرق أفضل . . ومساهمة أكبر في بناء الوطن بصرف النظر عن الشهادة التي نحملها . . ويتبادر إلى الذهن سؤال هام . . في قضية تخطيط التعليم الجامعي وما بعده . . وهو إلى أين يتجه الآلاف من الشباب الذين يتخرجون في شتى التخصصات . . بكالوريوس علوم، ليسانس آداب . . اجتماع . . إعلام . . ماجستير لغة . . دكتوراه إنسانيات إلى آخر القائمة . . إلى أين يذهب هؤلاء . . . وهل نستفيد منهم في قطاعات منتجة . . وما مدى ارتباط أو ربط كل هذا بعملية التنمية الشاملة التي ننشدها . . ولا أعني التنمية الاقتصادية فقط .

وكل هذه . . علوم مفيدة قطعاً . . ونافعة دون شك غير أن المسألة إن سارت بدون تخطيط سليم وتوجيه يضمن التوازن ويرتبط بالأهداف فسوف نساهم في خلق بطالة مقنعة . . وتتخرج أعداد في حقول لا حاجة لنا بها في هذه المرحلة في وقت نعاني فيه من نقص شديد في مجالات أخرى ساهمنا في تضليل أبنائنا . . أو على الأقل لم نساعدهم ونعينهم على حسن الاختيار . .

إن حسن التخطيط للتعليم والعناية بالإنسان . . وتنمية

قدراته تساهم في خلق نوع من الولاء . . والإنتماء، ولهذا تذوب رغبة الفرد في سبيل تحقيق الأهداف . . والمصلحة العليا للأمة فلا يسعى الفرد ليكون عضواً بارزاً في المجتمع . . دائماً يحرص على أن يكون منتجاً . . ومفيداً ولا يهتم بموقعه في الهرم . . ولكنه يحاول أن يكون أحسن إنتاجاً وأقدر على العطاء في موقعه .

وهذه التجربة اليابانية ماثلة أمامنا فالفرد الياباني يستمد شعوره بالفخر والاعتزاز من إتقانه لعمله وليس من موقعه في الوزارة أو الشركة التي يعمل بها ولا من شهاداته .

«اليابان . . أسطورة العصر الحديث من حيث التقدم الصناعي والزراعي ومن حيث الطفرة التكنولوجية المذهلة . . أصبحت حديث العالم إعجاباً وقلقاً على حد سواء بسبب منافسة كل ما هو ياباني من منتجات لمنتجات الدول الأخرى في عقر دارها .

هذا التقدم المذهل وتلك الطفرة الطويلة بعد سنوات الهزيمة والدمار يرجع إلى أسباب عدة منها حسن الإدارة ودقة التنظيم واحترام العمل والانضباط . . وكل ذلك في نسيج من حب الوطن والالتزام بحقه على كل مواطن والقناعة بما يتقاضاه كل فرد في موقعه»[1] .

---

(١) تخطيط اليابان للتنمية العلمية ـ أميرة يوسف ـ الأهرام .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«ويتصل بهذا موضوع الانتماء أو الولاء للمؤسسة التي يعمل فيها الياباني فهو يعتبر نفسه جزءاً منها ولا يتصور نفسه في أي مكان آخر غيرها، في أمريكا يبحث كل شخص عن أي عمل آخر في أي مكان يعطيه أجراً أكبر ولا يهمه من أمر الشركة التي يعمل فيها إلا ما تعطيه له من أجر بينما تجد الياباني يعمل حياته كلها وربما أولاده أيضاً معه ويموتون في خدمة مصنع واحد لا يفكرون في تغييره وبينما في أمريكا إذا سألت طفل ماذا يعمل أبوك يقول لك عادة «أبي مهندس أو سائق جرار أو سمسار» ولكن الطفل الياباني سيجيبك: «أبي يعمل في شركة ميتشوبيشي أو هيتاشي» ولا يهم أن يكون هذا الأب هو رئيس الشركة أو مجرد سائق أو عامل نظافة.. المهم أنه يشعر أنه جزء منها وحياتها حياته ونجاحها نجاحه، ويكفيه تعريفاً بنفسه أن ينتسب إليها»[1].

ونحن نستطيع في عالمنا العربي دون شك أن نحقق كل التقدم الذي ننشده.. دون الحاجة إلى التضحية بقيمنا ومبادئنا.. وبدون أن تهتز موازين حياتنا أو ثقتنا في أنفسنا.. ونستطيع أن نمضي ونتقدم.. دون أي مساس بالجوهر ولكن القضية الهامة.. هي إلى أين نسير وكيف نسير.. وبمن.. وماذ نريد أن نحقق..

---

(١) درس من اليابان ـ الأهرام ـ رجب البنا.

إنني من الذين يتهيبون هذا الاندفاع نحو التعليم الجامعي وما بعده دون توجيه.. أو ترشيد وأخشى أن ينتهي الأمر إلى ضياع هؤلاء الأبناء بسبب سوء التخطيط لبناء مستقبلهم عندما ندخل في روعهم أن الشهادة الجامعية ضرورية.. وحتمية ربما لمن يريد أن يأخذ دوره في المجتمع وحظه من الحياة.. حتى إذا ما تخرج اصطدم بالواقع.. وأدرك أن هناك فئات كثيرة.. تحقق دخلاً أكبر من دخله وتعيش حياة أفضل.. وأن شهادته لا تعينه على تحسين دخله أو وضعه بل قد تصبح من معوقات حركته بما يحيطها من هالة.. ووضع اجتماعي لا يعينه على الحركة.

والوطن من الناحية الأخرى يتأثر كثيراً بهذا الاتجاه.. حيث يندفع الشباب في اتجاهات لا تتفق بالضرورة مع متطلبات النهضة والتنمية فيزيدون بالتالي من حجم القوى الضائعة.. والطاقات المبددة لأنهم اختاروا مجالات وقطاعات غير منتجة.. ولكنها تنمو على حساب القطاعات المنتجة.

ولهذا فإن قضية التخطيط في التعليم الجامعي وما بعده.. في عالمنا العربي يحتاج إلى عناية كبيرة..

فما من شك أنها كارثة قومية أن يتخرج بعض الشباب من الجامعات ولا عمل له غير التسكع للبحث عن وظيفة.. حتى إذا وجدها.. كان عمله الجلوس على مكتب بدون إنتاج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقيقي أو بإنتاج متدني دون ذنب ولا جريرة. . ولكنه مثل أمثاله في الوطن العربي الكبير ضحية سوء التخطيط في التعليم.

والكثيرون جداً من أولئك الشبان والشابات غير سعداء بالكلية أو المعهد الذي دخلوا فيه، والكثيرون جداً أيضاً منهم يشعرون بسعادة مشوبة بخوف وعدم اطمئنان، لأنهم دخلوا كليات ومعاهد ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها: جذبهم إليها بريق الإسم وسمعة الحرفة: كلية الطب أو الهندسة أو الاقتصاد فدخلوا ـ بالحق أو بالاستثناء ـ وهم يجدون أنفسهم اليوم في طريق لا يأمنونه، أو لا يأمنون على أنفسهم فيه.

والكثيرون منهم كذلك يسيرون في الطريق الذي قدر لهم أن يسيروا فيه دون تفكير قليل أو كثير، إنما هم راضون دائماً بما يجيء، وحياتهم ليست من صنعهم، ولكنها من صنع الآخرين دائماً هؤلاء هم الغالبية.

وبعد خمس سنوات أو ست على الأكثر سنجد أنفسنا أمام حوالى ١٥٠ ألف شاب وشابة يخرجون إلى حياة عملية ضخمة معقدة سيدخلون عالماً مثقلاً بالمشاكل وفرص العمل أمامهم قليلة ومشاكل السكن والحياة الراخية. . أمامهم عقد لا تحل. . وستواجههم دون شك مشاكل أخرى وسيضافون إلى جماهير الشباب الذين تخرجوا قبلهم في السنوات السابقة

على تخرجهم وسيقفون في طابور الحيرة والمتاعب الطويل.

وبعد قليل سيكونون قد دخلوا في زمرة العاملين العاطلين لأنهم يشغلون وظائف ـ أي وظائف ـ والعاطلين لأن رواتب هذه الوظائف أو إيرادها لا يسد جزءاً من مطالبهم، ولكن ليس لهم أي خيار فتلك هي الدنيا. وها هي الظروف من حولهم وهم في أماكنهم من الطابور وليس أمامهم إلا المسير في أعقاب الآخرين. .

هؤلاء في غالبيتهم سيتحولون مع الزمن إلى أنفار في جيش هائل من الكهول المجاهيل الذين يعتادون الألم وينسون الطموح وتتلاشى من قلوبهم الآمال، ويصب جهدهم كله موجهاً إلى الحصول على ضرورات الحياة»[1].

ولكن إذا لم يدخل الجامعة فإلى أين يذهب؟

وهذه هي القضية الهامة التي يجب مناقشتها بكل أمانة وصراحة. . وموضوعية والبداية الصحيحة. . هي معرفة وظيفة الجامعة. . وما يمكن أن تقدمه للمجتمع وحاجتنا من هذه المؤسسة وتقويمنا للانتاج الفعلي للعاملين فيها ومدى ارتباط ذلك بقضايا التنمية. ثم يقتضي الأمر كذلك. . التفكير بموضوعية في قضية المعاهد الفنية. . والمتوسطة والعليا. .

---

(١) تفكيرنا الاجتماعي في حاجة إلى تغيير ـ حسين مؤنس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكيف يمكن الارتفاع بها ودعمها ورفع قيمتها العلمية والمعنوية بحيث يقبل عليها الشباب دون تخوف من احتقار أو مقت.. أو ضياع.

وكيف يمكن إعادة تخطيط هذه المعاهد.. وإيجاد الحوافز التشجيعية فيها لضمان أداء أفضل لها وإقبال أحسن ونتاج أكمل.. ومن الخطورة طبعاً أن يفهم بأن الالتحاق بمثل هذه المعاهد انتقاص من المستوى الاجتماعي أو القيمة العلمية للطالب. ولا بد من إيضاح أنها نوع من أنواع التخصص وهي معاهد تهتم بالتطبيق أكثر من النظرية وتسد حاجة الوطن من هذا النوع من الطاقة البشرية الضرورية للنهضة ومن المهم أيضاً في الوقت نفسه تشجيع الدراسات النظرية وعدم إيقافها أو القضاء عليها فهي عامل من عوامل التنمية التي نحتاج إليها.. ولا بد من فسح المجال أمام ذوي المواهب لتحقيق طموحاتهم.. في هذا المجال وتمهيد الطريق لهم.. مع الحرص على عملية التوازن بحيث تكون المعادلة في صالح نهضة الأمة.. وتكون القنوات مفتوحة لمن يريد أن يستزيد من علم ومعرفة في شتى المجالات وبحرية كاملة بعد ذلك ولكن وفق خطتنا وعلى هدى من فلسفتنا وسياستنا التعليمية التي وضعناها لتحقيق أهدافنا الوطنية والتنموية في عالمنا العربي.

«نشر مكتب العمل الدولي بجنيف مؤخراً دراسة حديثة قام بإعدادها باحثان من جامعة درهام ببريطانيا حول «الهجرة

الدولية والتنمية في العالم العربي».

وفي معرض سرد أوجه القصور التي يتسم بها نظام التعليم الحديث في الدول العربية، تشير الدراسة في فصولها الأولى إلى أن الهيكل التعليمي في هذه البلاد مبرمج بطريقة يغرس معها في أذهان الطلبة منذ نعومة أظفارهم «قيماً» تعليمية تشجع الإقبال على التخصصات الدراسية التي من الممكن إتاحة الفرصة لمواصلتها على مستوى الجامعة، وتثبط همم أولئك الذين حالت مقدرتهم التحصيلية على اختيار غير هذه التخصصات.

وتبين للباحثين أن معظم طلبة المعاهد والكليات الفنية والمهنية العربية هم ممن فشلوا أكاديمياً في مدارسهم أو ممن تركوها دون رجعة. ويعزى هذا الاتجاه العام حسب رأي الباحثين إلى شعور بالاحتقار للأشغال اليدوية»[1].

وبعد،

فهي في رأيي مسؤولية مشتركة بين الشباب ورجال التعليم والتخطيط.. والآباء والأمهات..

فعلى الشباب أن يحسن اختيار المجال التعليمي الذي

---

(١) مكتب العمل الدولي، جنيف ـ الهجرة الدولية والتنمية ١٤٠٣ (الشرق الأوسط).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحن أولى بهذا منهم

تحتضن بلادنا في كل عام مئات . . وربما آلاف الطلبة الذين يفدون . . ويتغربون من أجل طلب العلم في جامعاتنا . . ومدارسنا . . وهي نعمة من نعم الله علينا . . وعليهم . . ولكن . .

هؤلاء الشباب من بنين وبنات في بعض الأحيان ليس لهم عائل يرعى شؤونهم ولا يسأل عنهم وقد يشعرون بوحدة قاتلة وهم بمفردهم في مساكنهم الداخلية . . وقد تمضي عليهم أيام تزداد فيها حالة الشعور بالوحدة . . في أيام الأعياد والعطل الرسمية . . مثل عيد الفطر وعيد الأضحى واليوم الوطني . . وعطلة نهاية الأسبوع . . فهذه أيام يلتف فيها الناس حول بعضهم . . «والعوائل» حول نفسها ويبقى هؤلاء يعانون من الشعور بالوحدة . . والغربة . . والكربة . . وربما يتمنون أن يشاركوا الناس في أفراحهم . . واحتفالاتهم ويتناولون الطعام

معهم بدعوة كريمة . . . وسؤال أخوي يكفي شر المسألة . .

فماذا لو أن كل جامعة . . ومعهد به مثل هؤلاء الأبناء المغتربين . . يعمد إلى تنظيم يدعو فيه العوائل المقتدرة إلى استقبال نفر منهم ودعوتهم بطريقة منظمة ليشاركوهم في الاحتفال بالأعياد والمناسبات . . وتناول الطعام معهم وبيوتنا والحمد لله عامرة . . ونعم الله علينا كثيرة وهؤلاء إخوة . . وأبناء لنا وبنات في الإسلام ومن واجبنا أن نسأل عنهم ونتحسس أحوالهم . . ونعينهم على استكمال المهمة النبيلة التي قَدِموا من أجلها . . وهو واجب يحثنا عليه الشرع الحنيف . . وتدعونا إليه المروءة . . . وتستوجبه أخلاقنا . . وقيمنا . . وعاداتنا . . .

ولقد كنا أيام دراستنا في الغرب . . وفي أمريكا على وجه الخصوص . . نلاحظ كيف كانت تتسابق العوائل الأمريكية إلى التعرف على الطلبة المغتربين من كل بلاد العالم . . ويسعون إلى احتضانهم والسؤال عنهم . . وعرض خدماتهم لمساعدتهم بكل الطرق الممكنة . . . وكانوا يدعون الطلاب في العطلات الرسمية . . والأعياد الخاصة بهم مثل الميلاد (الكرسماس) . . وعيد الشكر . . إلى غير ذلك . . ويحضر رب العائلة ليصطحب الطالب الذي وقع عليه الاختيار ليكون معه . . ويأخذه إلى منزله في الأرياف . . ويقضي معه العطلة يأكل معهم . . ويعيش معهم . ويراعون شعوره إن كان لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يأكل من بعض ألوان الطعام فيعدون له طعاماً خاصاً به في غير تكلف ولا بذخ ثم يأخذونه في جولات إلى مناطق مختلفة ليتسلى.. ويقضي عطلة ممتعة.. ويخففون من شعوره بالوحدة والغربة.. ثم يسعون إلى ربط علاقات وثيقة معه.. ويتعهدونه بالسؤال.. ويتحسسون أحواله... وتقدمه الدراسي.. وهكذا تنشأ علاقة طيبة وكثيراً ما تبقى حتى بعد عودته إلى بلاده..

أفلسْنا أحوج منهم إلى هذا.. وأولى بهؤلاء منهم.. فهؤلاء أبناؤنا.. وإخوتنا ونحن مسؤولون عنهم أمام الله.. فهم بين ظهرانينا ولهم علينا واجب الضيافة.. والسؤال وأن نكون لهم كـ«عوائلهم».. وهذا رب العزة والجلال.. يوجهنا بأننا إخوة ﴿إنما المؤمنون إخوة..﴾ ويأمرنا عز وجل بالتعارف.. ويجعل الكرامة للتقوى...

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وهذا رسول الله ﷺ يوجهنا بأبعاد الترابط والتآزر.

«... المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ـ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»...

.. وجاء في جبر خواطر الضعفاء حديث يرويه سيدنا علي كرم الله وجهه:

«والذي نفس محمد بيده ما من إنسان يُدخل على قلب فقير سروراً إلا كتب له لطف الله فإن جرى عليه قضاء الله.. جرى لطف الله إلى قضائه كالماء في انحداره حتى يطرده عنه»..

.. إنها دعوة صادقة لنا جميعاً ولجامعاتنا.. ومعاهدنا.. ومساجدنا ليلتفتوا إلى هذه القضية.. ويعملوا على تشجيع الناس على رعاية هؤلاء.. والسؤال عنهم.. وكان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه...

وعلينا أن نتذكر أن تفريج كربة.. وغربة هؤلاء ذات شأن عظيم..

«فمن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا.. فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»... صدق رسول الله ﷺ.

..وهذا رسول الله ﷺ.. يعلمنا أن الخلق عيال الله ـ أحبهم إليه.. أنفعهم لعياله.

.. والمسألة في رأيي تحتاج إلى توجه مخلص صادق وهمة عالية. وتنظيم يضمن سيرها في الطريق الصحيح منذ البداية. بما يحقق من الأهداف المرجوة منها. ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. [يوسف٢١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جيل يعشق الحوار

انتهت ابنتي «فاطمة» من الامتحانات.. وبدت مرهقة نوعاً.. وأقبلت ترتمي بين أحضاني.. وقالت تسألني:

- هل يمكن أن أسألك سؤالاً ظل يحيرني لفترة طويلة.. وكرهت أن أشغل نفسي به أيام الدراسة.. وخجلت أن أثقل عليك به؟؟

قلت على الفور:

- إنني على استعداد للإجابة على أي سؤال ولك أن تعتبري إجابتي هدية النجاح إذا وافقت على ذلك...

ويبدو أنني تعجلت في كلامي هذا!.. ولم أدرك أبعاد سؤالها.. وأن هدية النجاح ستكون مكلفة.. فقالت:

- لماذا تكتب للعقلاء فقط؟؟..

- ....

- هل لأنهم قلّة؟

- ....

- هل لأنهم كثرة؟

- ....

- حسناً.. أنت لا تريد الإجابة على أسئلتي هذه.. ولذلك فإنني أود أن أسألك إن كنت تعتبرني من العقلاء أم لا؟...

- ....

- حسناً إذن.. أنا أقول لك رأيي في قضية من القضايا التي نهتم بها جميعاً.. وأنت تجيبني بعد ذلك.. فيما إذا كنت تعتبرني من العقلاء أم لا...

- ....

- ماذا لو صمت الإعلام العالمي ليوم واحد.. فلا إذاعة.. ولا تليفزيون.. ولا وكالات أنباء.. ولا صحافة.. بل صمت مطبق؟؟.. ودعني أوضح لك رأيي واستمع إلي حتى النهاية.. ثم أحكم لي أو علي.

- إنني منصت لك يابنتي فقولي..!

- لو يصمت الإعلام تصمت الضجة الكبرى في العالم.. وينخفض معدل الجريمة.. ويقل الكذب المتبادل وخصوصاً بين الدول الكبرى.. ويتمكن الناس من التقاط أنفاسهم.. واستقبال معلومات صحيحة بدلاً من هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السيل الجارف من الدعاية، والتي يصاحبها الكثير من التهديد.. والخوف والقلق.. وربما الحسرة من جانب الدول الضعيفة.. والفقيرة والتي تسمع تهديداً بالحرب النووية تارة.. وبحرب الكواكب تارة أخرى.. وكأن ما فعلوه على الأرض لم يكفهم فأخذوا يتطاولون إلى عنان السماء.. وهم إنما ينقلون كل تهديداتهم المتبادلة عن طريق وسائل الإعلام.. دون أن يتحسبوا لآثارها على الدول الفقيرة أو حتى على مواطنيهم الذين دون شك قد تعودوا على استقبال جرعات يومية من دعاية قاتلة أو ساقطة عبر موجات من الذعر والخوف.

فلو يصمت الإعلام العالمي، يهدأ الناس إذن من هذه الناحية على الأقل..

ولو يصمت الإعلام يا أبي.. وتتوقف موجات الإذاعة عن بث برامجها ليوم واحد، فإن الكثير من البيانات الكاذبة.. والمعلومات المغلوطة تتوقف.. وتكون لدى الناس بالتالي فرصة للتمييز بين الصدق والكذب وبين الغث والسمين.. وصحيح أنهم سيفتقدون إلى برامج خيّرة وتوجيهات صادقة كقليل من كثير يبث.. غير أن الحقيقة تظل أن معظم ما يبث في العالم عبر موجات الإذاعة لا يخرج عن كونه معلومات موجهة في أقل درجاتها لخدمة أغراض استعمارية ـ إذا جاز هذا التعبير ـ فهم يتوجهون إلى العقول لاحتلالها

بمعلومات خاطئة ومغرضة ليقنعوا كل شعوب العالم بأهدافهم الخيرة نحو تحقيق السلام والعدل والأمن في العالم في وقت تعبث فيه أصابعهم في معظم أجزاء العالم...

ولو يصمت الإعلام يا أبي وتتوقف برامج الإعلانات والدعاية في الإذاعة والتلفزيون لأصبح لدى الناس القدرة الطبيعية للتمييز بين أنواع المواد والصناعات والبضائع بغير هيمنة ولا توجيه إعلاني يخدع الناس ويدعوهم إلى استهلاك أكبر وصرف أكثر من بضاعة ليست الأجود في معظم الأحيان.. ولو أردنا أن ندرس آثار الإعلان التلفزيوني في العالم ومخاطره وسلبياته لاحتجنا إلى أيام نتحدث فيها وأنت تعرف ذلك يا أبي...

ولو يصمت الإعلام يا أبي وتتوقف تلك البرامج الرخيصة التي تبث دون مراعاة لسن أو ثقافة أو مرحلة أو وقت لكان وحده مكسباً عظيماً.. فكثير من البرامج التي تبث تحت ستار الحرية الإعلامية تكون مدمرة لأخلاقيات الناشئة خصوصاً عندما تتجه إلى الجنس الرخيص وتبث برامج لا تصلح للمشاهدة من قبل الأطفال والناشئة.. بل قد تترك رواسب سيئة في نفوسهم...

فلو صمت الإعلام وتوقفت هذه البرامج لكان في ذلك الخير الكثير... لأن العالم في خضم هذا البحر المتلاطم من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموجات الإذاعية التلفزيونية ووسائل الاتصال بالأقمار.. أصبح عديم السيطرة على برامجه الإعلامية.. وبدأ العقلاء والمفكرون في العالم يحسون بخطورة هذا الأمر ولكن دون حول ولا قوة.. اللهم إلا من أبحاث ينشرونها هنا وهناك.. أو تحذيرات يطلقونها بين الفينة والأخرى دون أن تجد آذاناً صاغية..

لو يصمت الإعلام يا أبي لتوقفت تلك الموجات المتبادلة من البرامج التي تحرص فيها دول على تشويه صور دول أخرى وتشحنها بالطبع بكم كبير من الكذب والخداع والمعلومات المغلوطة.. حتى أصبح العالم ممتلىء بسيل من المعلومات الخاطئة المتبادلة.. والتي تجعل من الصعب على الإنسان العادي أن يميز بين هذا وذاك ويتعرف على الخطأ من الصحيح.. وعلى الكذب من الصدق...

ومن هنا قلت لك يا أبي لو يصمت الإعلام لاستراح الناس ولتطورت قدراتهم للتمييز بين الخبيث والطيب...

ولو تصمت وكالات الأنباء يا أبي لتحسن مستوى المعلومات المتبادلة في العالم ذلك لأن هذه الوكالات تنشر معلومات تخدم أغراض دول معينة تسيطر عليها هذه الدول بصورة تحقق الأهداف التي تخدم مصالحها بصرف النظر عن بقية دول العالم حتى أصبحت هيمنة عدد صغير من الدول

واضحة وجلية على بقية دول العالم التي لا تملك حولاً ولا قوة... فحوالي خمس دول تسيطر على دول العالم لأنها تملك هذه الوكالات.. وكذلك تسيطر بعض الدول على موجات الإذاعة في العالم.. ولا تملك بقية دول العالم غير عدد محدود من الموجات.. حتى فوق أراضيها.. وفي أجوائها.. وعلى مستوى الموجات القصيرة أو الطويلة أو المتوسطة.. كل ذلك لأنهم سبقونا.. ولأنهم يملكون التكنولوجيا، فهو عالم غير متوازن إذن.. وغير عادل... تتحكم فيه القوى الكبرى وتفرض استعماراً من نوع جديد...

أجبني إذن.. أليس من الخير أن يصمت الإعلام يا أبي.. لشهر.. لأسبوع.. ليوم.. أو حتى لساعة واحدة..

وقل لي بالله عليك...

- والآن ماذا ترى.. وهل تعدّني من العقلاء...

وصمتُّ ولم أجب.. وتذكرت كلمة مأثورة (رب كلمة قالت لصاحبها دعني)...

ولاحظت ابنتي أنني لا أجيب..

وبدأت تتساءل من جديد...

- هل تعدني من العقلاء.. وهل أعجبك حديثي واقتراحي في أن يصمت الإعلام العالمي ولو يوماً واحداً...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونظرت إليها نظرة ملؤها الإشفاق.. والإعجاب.. والاعتزاز والرحمة في نفس الوقت..

وأخذت أضمها إلى صدري وقلت:

- بل يعجبني أن تصمتي أنت.. فذلك خير لي ولك.. ودعينا من الإعلام العربي والعالمي فأنا رب إبلي وللإعلام رب يحميه...

وكأن كلامي لم يعجبها كثيراً.. وهذا أمر لم أستغربه.. فهي من جيل يرغب في الحوار ويتشبث بحريته في إبداء رأيه.. وفي التعبير عن نفسه...

وانصرفت، تعبث بجهاز التلفزيون.. ورأيت على الشاشة تمثيلية قديمة (شاهد ما شافش حاجة)...

يا واش يا واش يا أولاد

بعض شبابنا يتعجلون بلوغ الأهداف التي يطمحون إليها في الحياة.. وهو أمر طيب.. ويدل في كثير من الأحيان على همم عالية..

ولكن القضية الأساسية تكمن في طبيعة الاستعداد.. والتأهيل.. والجدية.. ثم التعجل.. مجرد التعجل لا يفيد.. وقد يكون من المعوقات في كثير من الأحيان.. وقديماً قيل: في العجلة الندامة.. وفي التأني السلامة... وقد رأينا ما عملته فترة الطفرة في كثير من شبابنا.. وأغرتهم فرص الكسب السريع بأن يتركوا دراستهم.. ويهرعوا إلى العمل في المؤسسات الخاصة.. وفي بعض الأحيان في مؤسسات خاصة بهم.

كنا ندرس في الحرم المكي الشريف.. بعد العصر.. وبعد المغرب على أيدي مشايخ كرام.. وعلماء كبار أمثال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيخ محمد العربي التبعاني والشيخ محمد نور سيف.. والشيخ السيد علوي المالكي.. والشيخ عبد الجليل يماني.. رحمهم الله جميعاً وكانوا أيضاً يدرّسون لنا في مدرسة الفلاح في النهار ويتعهدوننا بالتربية في الحرم أيضاً في المساء وكان شيخنا المربي الفاضل السيد إسحاق عزوز.. أطال الله في عمره يتعقب خطانا.. ويلاحظ سلوكنا وهو مهيب.. شديد المراس.. حاد النظرة حتى يومنا هذا.. وعلى الرغم من علاقتي الوثيقة به.. لكنني ما زلت أتهيبه.. وأخشى غضبه.. وأكره أن يجدني في مكان.. لا يحبه لي.. وكنا وبعد أن نفرغ من الدراسة في الحرم.. ويعطينا المشايخ الإذن بالانصراف لنستعد لصلاة المغرب نتدافع في حصوة الحرم.. منطلقين إلى باب الزيارة أو باب إبراهيم.. ثم ننعطف في زقاق المطبعة أو زقاق التجارية.. ومنا من يندفع نحو سوق الصغير.. لنذهب إلى حنفية جياد أو حنفية باب العمرة.. نتوضأ.. ومنّا من يذهب لبئر زمزم.. إذا لم يكن به حاجة للخروج إلى خارج الحرم.

وكان يلقانا شيخ.. تركي فاضل يفترش سجادته في الحصوة.. وعندما يرانا مندفعين.. والحصوة تتناقد تحت أقدامنا يشير لنا بالتريث بيده وهو يبتسم.. ويقول: يا واش.. يا واش..

وقد تذكرت هذا.. وأنا أرى أبناءنا اليوم وتبيّن لهم بعد فوات الأوان. أن لا بد من التأسيس.. ومن التعليم

الصحيح.. ومن وضوح الرؤية.. لأن كل معلق لا بد أن يقع كما يقولون وعلى الشباب وهو يستعجل قفز درجات سلالم المجد.. أن يضع في اعتباره.. أساسيات الأمور.. وحتى يضع نفسه على الدرب الصحيح وعندها فقط يكون «... ؛كل من سار على الدرب وصل» ولقد المنا جميعاً.. وخاصة أولئك الذين يتتبعون مسيرة الشباب في بلادنا.. أن الارتجال قذف بالكثيرين خارج الحلبة.. وأصبحوا يدورون في حلقات مفرغة.. وحتى الذين رغبوا في العودة.. وتصحيح الوضع وتأهيل أنفسهم.. صادفتهم صعوبات كثيرة.. لأنهم عادوا في الوقت الضائع، وأنا لا أدعو الشباب إلى ضرورة التمسك بشهادة جامعية.. أو أن يسعى خلف شهادة من أي نوع.. وبأي شكل.. لا..

ولكني أدعوه إلى تأهيل نفسه.. وبناء مستقبله على أسس صحيحة وغير خيالية ولا مرتجلة وكما يقول إخواننا في الخليج.. «الركادة زينة» والمستقبل أمامكم... ولكنه فقط سيكون لأولئك المؤهلين.. والقادرين والجادين.. وقليل من المحظوظين فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وما دام الأمر كذلك.. فادخلوا البيوت من أبوابها.. واعطوا أنفسكم الفرص الكافية للبناء والتأهيل والاستعداد واحرصوا على التوازن.. فإن الاختلال يفسد ويعطل الكثير من الأمور..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعملوا بجدية.. وحزم.. فلم يعد للمتواكلين فرص في المجتمع.. ولا للنائمين... وتعاملوا بصدق.. مع الله.. ومع المجتمع... ومع أنفسكم...

واعملوا بعد ذلك وسيرى الله عملكم.. وأهلوكم والأمة من حولكم.

ثم احلموا.. واحلموا بمستقبل زاهر واعملوا.. واتعبوا.. ولا بأس..

فإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام..

ولكن الآن.. لا بد من التريث.. و.. و.. ويا واش.. يا واش.. يعني.. على مهلكم.. وبلا زحمة.

وأسأل الله لكم مستقبلاً زاهراً.

بيوتنا والحاجة إلى الحب

من العقلاء من يرى أن أمتنا تقف على منحنى خطر.. وتمر بمرحلة دقيقة عصيبة وحرجة في الوقت نفسه: فالتيارات الماديّة المختلفة، قد لفحت وجه الحياة فيها، وأخذت تعصف بنا وتساهم إلى حد كبير، في تشويه ذواتنا وتخريب نفوسنا، وتفكيك عرى العلاقات النبيلة، وحرماننا من الحب الذي يدعم استقرارنا.. الأب.. الأم.. الابن.. الابنة.. الجد.. الجدّة.. العم.. العمّة.. الخال.. الخالة.. كل هؤلاء وغيرهم، يعيشون الآن في بيوت تحتاج إلى المزيد من الحب، بعد أن كان يعمرها وينورها ويرفرف عليها بأجنحة الود والتفاهم والوئام.. بيوت استبدلت فيها الروحية الحلوة البشوش بصلات ماديّة بحتة.

الأب يدخل البيت مهرولاً، قد هدّه التعب وأرهقه الدوران مع دوّامة العمل، فيقضي فيه من الوقت ما يكفي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقضاء حاجاته الضرورية، ثم يندفع خارجاً بنفس الهرولة، ليدور مرة أخرى في تلك الدوّامة، وهو لا يفكر في الجلوس إلى زوجته وأولاده ليشاركهم وجدانياً ويبادلهم الحب ويمنحهم العطف ويشعرهم بالاهتمام.

والأم لها دوّامتها الخاصة هي الأخرى: فهي مثقلة بأعباء العمل في البيت، وهي تلهث لتوفر لأولادها ما يحتاجون إليه من خدمات مادّية صرفه وليس لديها من الوقت ما يجعلها تتفرّغ لأولادها، وتفرغ عليهم من عصارة قلبها وفيض حنانها ما يسعدهم ويساعدهم على السير قدماً في الحياة.

وكم من فتاة حائرة تتلهف على حب أمها وتتمنى لو أنّها خلت إليها وتفهمت مشاكلها ومسحت على قلبها البريء بيدها الحنون.

وكم من فتى أرهقته الحاجة إلى الحب، وأضنته المعيشة الخاوية من الرّوحانيات في بيته فراح يلتمسها بالخارج، أو يلتمس البديل لها وفي ذلك ما فيه من خطر عليه.

وكم من جدّة أو جدّ أو عمّة أو عم أو خالة أو خال يتلهف على زيارة ودّ أو كلمة عطف من حفيد أو ابن أو أخ أو أخت.

لقد حولتنا الحياة الحديثة بأنانيتها الشرسة ومادّيتها

الضارية إلى آلات تتحرك بدوافع بعيدة كلّ البعد عن العواطف والمشاعر الروحية اللطيفة الملطفة.. ولقد جففت أساليبها ينابيع الحب في مجتمعاتنا وقذفت بنا بعيداً عن جذورنا وحصرت اهتمام كل منا داخل نفسه وربطتها بالمادة، والمادّة وحدها.

والأمثلة كثيرة واضحة لا تحتاج إلى شرح أو بيان: فالأب على سبيل المثال يركض خلف مادّيات الحياة ويجتهد لتحصيل أكبر قدر منها وينسى بسبب ذلك ما هو أهم من المال، ينسى أولاده وأن لهم في عنقه حقوقاً أخرىٰ تسعدهم سعادة أكبر من سعادتهم بما يقدمه لهم من متع مادية صرفة ومهما بذل الأب من الماديّات فإن الأولاد يظلون في حاجة إلى حبه وعطفه وحنانه وحدبه.. وأن جلسة عائلية هادئة مرحة تضمهم معه وأمهم أفضل عندهم عشرات المرات من تلك المتع المادية العابرة.

إن بعض الآباء يأخذ أولاده في رحلة إلى الخارج - أوروبا، أمريكا.. الصين.. اليابان - وهناك ينفق عليهم بسخاء لشراء الملابس والهدايا وزيارة المتاحف والملاعب والملاهي، ولكن لا ينفق عليهم بنفس السخاء من حبه.. لماذا؟ هل أفلس عاطفياً؟ هل تحجّرت مشاعره؟ وإذا كان هذا قد حدث فعلاً فلماذا حدث؟ ما الذي أفقد بيوتنا الحب الذي كان يعمرها وينيرها ما الذي فرق العلاقات الطيبة التي كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تربط بين أفراد الأسرة الواحدة، وفكك عرى الألفة والمودة؟.

لقد أصبح أولادنا ينظرون إلى أبيهم نظرتهم إلى مصدر من مصادر الرزق والإنفاق وينظرون إلى الأمّ نظرتهم إلى الطاقة التي توفر لهم الخدمات المادية التي يحتاجون إليها.

ومعظم العقلاء يخشون أن يصيبنا في يوم من الأيام ما أصاب مجتمعات الغرب من إفلاس في الحب، أدّى إلى انعدام الصّلات الروحيّة بين أفراد الأسرة الواحدة، وإلى سيطرة الأنانية والانعزالية، فأصبح الابن أو الأب يبعث بأبيه العجوز أو أمه إلى ملجأ أو دار للعجزة، ويكتفي بإرسال كرت له في المناسبات كأي غريب، بينما هذا الأب في أشدّ الحاجة إلى كلمة عطف أو ضمّة صدر من ابنه أو ابنته.

إنهم في بعض دول الغرب، وفي بعض المجتمعات ولا أقول جميعها يفسّرون العلاقات الأسرية تفسيراً ماديّاً، لا يقيمون فيه أي وزن للروحانيات.. للحب.. لصلة الرحم.. لعواطف الأمومة والأبوّة.. لأي قيمة إنسانية نبيلة.. ولقد وصل الحال بالبنات عندما يتزوّجن أنهّن يستأصلن المبايض لئلا ينجبن.

إن البيت المستقر السعيد هو بيت أسس على الحب: يشعّ فيه الحنان ويرفرف عليه الودّ، وتقوم المعاملات فيه على أساس إنساني: ولنسمع قول رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم

لأهله وأنا خيركم لأهلي».

لقد حدّثنا الله سبحانه وتعالى عن الحبّ، وأشاد به، وقد حضّنا الإسلام على المحبّة والمودّة، وأمرنا أن نصل أرحامنا وأن نتعاطف ونتوادّ ونتحاب، وأن نكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت سائر الأعضاء بالسّهر والحمى. فهل ندرك أنفسنا، ونلجأ إلى الحبّ نعمّر به بيوتنا من جديد ولا نسمح له أبداً بالإفلات من بين أيدينا مرة أخرى لتظل الأسرة في مجتمعنا متماسكة مترابطة ترفرف عليها السّعادة؟

هذا ما يرجوه العقلاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنهم شركاء

يرى كثير من العقلاء أن أي جهد يبذل في تربية الشباب إنما هو جهد ضائع، وبدون مردود، ولا محصلة له، لأنه من الصعب تربية الشباب في هذه السن، وكان من الواجب أن نتعهدهم يوم كانوا في فترة الطفولة، فتلك هي فترة التربية، وترسيخ الأخلاق، وتقويم السلوك، أما الآن في سن الشباب فلا يمكن ذلك، وإن تم فهو أمر ضعيف المردود، وقد تكون له نتائج عكسية، لأن الشباب في هذه الفترة له شخصيته، وكيانه، وهو يكره أن يعامل بنظرة تربوية قمعية، أو حتى توجيهية، بل يريد اعترافاً به، وتقديراً لشخصيته، واستشعاراً بقدراته، أو بمعنى آخر يريد أن نتعامل معه كشركاء وليس كموجهين، فإن عملنا غير ذلك نكون قد أخطأنا في حقه، وأهدرنا وقتنا وأضعنا جهدنا بدون طائل.

وهي نظرة صائبة، لأن الله عز وجل قد أوضح لنا هذا بجلاء في القرآن الحكيم: ﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم**

فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ (سورة النور الآية ٥٩).

والرسول ﷺ يحدد لنا المنهج في الحديث النبوي الشريف عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع» (أخرجه أبو داود في سننه) والإشارة إلى الضرب هنا إنما تعني إذا فشلت كل الوسائل التربوية الأخرى فعندها لا يبقى إلا الضرب من غير قسوة ولا تشف ويقول ﷺ: «لا تجبروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم».

وأهل مكة يقولون عن هذا الموضوع قولاً حكيماً في أمثالهم الدارجة: «إذا كبر ولدك خاويه».

وهذا يؤكد أهمية التعامل مع الشاب كشريك لأنك تضعه في مرتبة الأخ بعد أن ربيته وأحسنت نشأته.

ومن هنا تأتي أهمية التعامل مع الشباب بوعي ومسؤولية وأهمية توفير القدوة الصالحة له.. وإعانته على تحمل مسؤوليته.. ورعاية القيم والمبادىء والأخلاق التي غرست فيه منذ الصغر.

ولعل أخطر ما يمزق الشباب في العالم الإسلامي اليوم هو تلك البرامج التعليمية التي تساهم في تشتيت أفكار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشباب، وزيادة أميتهم الثقافية، وفصلهم عن جذور الثقافة الإسلامية، وحشو أذهانهم بمعلومات لا تحقق أبسط أنواع بناء الشخصية، ولا تنمية الفكر، ناهيك عن ترسيخ العقيدة في قلبه أو توسيع دائرة المعارف الإنسانية لديه كما إنها من ناحية أخرى لا تؤهله لتحمل مسؤولياته في الحياة، ولا تعلمه أو تعطيه القدرة على اتخاذ القرار، كما إنها تربطه بأحلام وأفكار وهمية، حتى إذا تخرج صدمه الواقع الذي يعيش فيه وتوخى بأن الخط الذي سار عليه لا يحقق أبسط آماله، وذلك لأن الآباء والمربين لم يتفاعلوا معه في الصغر ليكتشفوا استعداده ومواهبه الطبيعية التي تضعه في القناة التعليمية التي تصلح له ويصلح هو لها.

وهكذا ألوف يتخرجون من الثانويات العامة، وألوف ينخرطون في الجامعات ثم يجدون أنفسهم مرة أخرى في مواجهة واقع وتحديات لم تعد لهم ولم يعدوا أنفسهم لمواجهتها، وهذا يسبب إحباطاً شديداً وبؤساً يؤدي إلى ضياع الكثيرين منهم.

وكان من الواجب أن نعاملهم كشركاء، وأن لا نستمر في التلقين والوعظ وربما التأنيب، وألا تكون عملية التعليم هي صبهم في قوالب محدودة لمجرد أننا قد تعودنا عليها.

مع أنهم يختلفون عنا..

والعصر يختلف عن عصرنا..

وحاجاتهم تختلف عن حاجاتنا..

وإمكاناتهم غير إمكاناتنا..

فكان من الواجب أن نتعامل معهم كشركاء، يحسون بكيانهم وبشخصياتهم، ويجربون قدراتهم، ويعملون ويخطئون، ونحن نصحح لهم، ونعينهم على تحمل مسؤولياتهم.

ولا بد أن نمنحهم الثقة في النفس، حتى يشقوا طريقهم في الحياة بمسؤولية وشجاعة، ولعل أخطر ما يمكن أن يواجهه الشباب هو شعورهم بعدم الثقة.. عدم ثقة المجتمع فيهم.. وعدم ثقتهم بأنفسهم بالتالي..

ولا بد أن نربطهم بالأهداف الكبرى والمثل العليا.. حتى تكون نفوسهم كبيرة.. وآمالهم عظيمة.. وعقولهم نيرة.

ولا بد أن نغرس فيهم حب الوطن.. وأنهم عماد هذا الوطن.. ونشاركهم في قضايا الوطن.. ونموه.. وتطوره.. وأمنه.. ومشاكله.. حتى يحبوه ويعملوا من أجله.. ويخافون عليه ويحرصون على نمائه. ويضحون من أجله بكل غال ونفيس دون أن تحجبهم تلك الرؤية عن وطنهم الأكبر الوطن الإسلامي الأم الذي نجتمع فيه جميعاً على لا إله إلا الله محمد رسول الله وأن هذه أمتكم أمة واحدة.. والله يقول الحق وهو يهدي إلى سواء السبيل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتناسب مع قدراته، وإمكاناته وطموحه، لكن عليه أيضاً أن يكون واقعياً.. وينظر إلى المستقبل وما يريد أن يكون عليه.. وموقعه من الإنتاج لأن الأمة بحاجة إليه.. ولأنه سيضيع في خضم الحياة إذا سار خلف خيال أو وهم أو رفاهية زائفة.

وعليه ان لا يتعجب بعد ذلك.. إذا رأى أن مهنياً.. سباكاً أو ميكانيكياً يكسب أكبر منه ويعيش حياة أفضل.. فنحن في عصر.. قيمة الفرد فيه بمقدار ما يعمل وليس بحجم الشهادة التي يحملها إلا من كان ذا حظ عظيم.

وعلى الدولة في عالمنا العربي أن تحسن التخطيط والتوجيه وتأخذ بأيديهم نحو حسن الاختيار في إطار فلسفة وخطة صحيحة.

ثم على الأهل رعايتهم ومساعدتهم على حسن الاختيار.. وأن يتحملوا معهم المسؤولية ويعينوهم.. على أن يكونوا منتجين وليسوا عاطلين.

بناتنا والمشاق الغليظ

أعجب كثيراً لما أسمع هذه الأيام من حوادث الطلاق والخلافات الزوجية بين شباب في عهد الزهور ولا زالوا في مقتبل حياتهم الزوجية.. وأسأل نفسي.. لماذا؟؟.. ماذا حدث...؟؟ وكيف يمكن علاج هذه الظاهرة المؤلمة والمؤثرة سلبياً على الحياة الاجتماعية عندنا.

ولا شك أن المجتمع السعودي شأنه شأن أي مجتمع آخر في العالم لم يفلت من الهزة العامة التي تسببت فيها الآثار الجانبية لهذه المدنية في صرح العلاقات الزوجية بين الشباب، وإن كنا ما زلنا بحمد الله بخير إذا ما قسنا أنفسنا بغيرنا من هذه الناحية، لكن لا بد من حسم الشر قبل أن يتفاقم، والقضاء على هذه الظاهرة، حتى لا تعم، وتتحكم فيتعذر أو يستحيل علاجها.. إن بعض الشباب عندنا، أصبحوا لا يدركون ـ كل الإدراك ـ معنى هذا الرباط المقدس بين الفتى والفتاة، ولا يقدرون ـ حق القدر ـ تلك النعمة التي امتن الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى بها على بني الإنسان، حيث قال تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة..**﴾ (سورة الروم آية ٢١).

إن هؤلاء الشبان يريدون أن تكون الحياة الزوجية زهراً من غير شوك، إنهم كما يقول الشاعر:

«يريدون إدراك الأماني» رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل..

يريدون أن تكون «الزوجة» نسخة مكررة من الزوج، عقلها كعقله دون قيد ولا شرط، مشاعرها التي تتفاعل بها مع الأحداث، طبق الأصل لمشاعره، ارتباطاتها مع الأهل، أو المعارف هي عين ارتباطاته، كماً، وكيفاً، وبلا ضابط ولا رابط ولا تحفظات، إنهم يريدون المستحيل، وحينما لا يتحقق المستحيل، يتحقق أبغض الحلال إلى الله عز وجل...

وجذور هذه المشكلة تختلف باختلاف المكان والزمان.. ويمكن حصر جذورها عندنا في أمرين:

الأول : أنماط الحياة الزوجية التي يعرضها التلفاز، والتي تستقطب أماني الفتى والفتاة معاً على السواء، ويستحيل تحقيقها على الأرض، كما أمكن تحقيقها «على الهواء».

الثاني : أن كثيراً من الآباء الموسرين يتحملون أكبر أعباء

النفقات في المراسم الزوجية، بل وأحياناً في الحياة، ولأن الشاب لم يخسر شيئاً يذكر في الزواج، فإنه يستطيع التملص منه في أي وقت شاء، ولو كان خسر الكثير في الزواج، لفكر ألف مرة ومرة قبل أن يولي وجهه شطر المنعطف الآخر.

وبطبيعة الحال فإن للوازع الديني أكبر الأثر، فلو فهم الشباب معنى قوله تعالى: ﴿**وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ (النساء ٢١) ولو أدرك الشاب أن الأب حين يزوج بنته له، إنما يعتبرها أمانة في عنقه، والله تعالى يقول: ﴿**لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم**﴾ (الأنفال: ٢٧) ولو تربى الشباب على القيم الإسلامية التي تحث على الإحسان حتى إلى من أساء إليك، وعلى كرم العشرة، وخفض الجناح في غير مذلة، إلى غير ذلك، لاضمحلت آثار هذه الظاهرة الخطيرة التي قد يروح ضحيتها كثير من الأطفال بسبب التشرد الذي يجره تفتت الأسرة وتفككها.. فليت الآباء في المنازل، والمربين في المدارس يتعاونون في غرس الروح الإسلامية في نفوس شبابنا حتى لا يكون مصيره الضياع.

وأحسب أن القضية تبدأ من اللحظة التي يفكر فيها الشاب في الإرتباط بالزواج.. وقدرته على الإجابة على أسئلة من هذا النوع:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لماذا يفكر في الزواج..؟
وماذ أعد لهذه المسؤولية...
ومن هي الفتاة التي يريدها؟
وماذا يتوقع فيها؟

وهل فكر فعلاً في وصية رسول الله ﷺ: «عليك بذات الدين تربت يداك».

وذات الدين هي ذات المروءة.. وذات التربية والأخلاق.. والصلاح.. والتقوى...

وهذه الفتاة التي أقبلت على الزواج.. وأعطاها الله الحق في أن لا ترتبط.. ولا تتزوج إلا بموافقتها.. وقبولها الصحيح.. فهل قبلت ووافقت على بصيرة؟.. هل استرجعت أمر رسول الله ﷺ عند قولها قبلت.. فقد أوصى رسول الله ﷺ أن ننظر فيمن جاء يطلب يد الفتاة..

هل هو صاحب دين..
وهل عنده أمانة..
ما أعظم هذه الوصية.. فلو حرص الناس على اختيار صاحب الدين.

وهو صاحب الأخلاق..
وصاحب التربية السليمة..
وصاحب التقوى..

وصاحب الأمانة..

إذا فالقضية تبدأ منذ الخطوات الأولى وعلى الشباب أن يحسنوا الاختيار وأن يدركوا عظم المسؤولية...

ولهذا فصاحب الدين أكثر أماناً.. وصاحبة الدين أحق بالاختيار مع ميزاتها الأخرى.. وويل للذين يبيعون الدين بالدنيا.. ويشترون بذلك تعاسة. وشقاءاً وسوء عاقبة.

ثم إذا أحسن الناس الاختيار.. وساروا على الهدي الصحيح.. فلا بد من إدراك معنى الحياة الزوجية.. وأنها شركة ومسؤولية مزدوجة.. ولا بد من الصبر ولا بد من التعاون والاحترام المتبادل.. لأن البناء مشترك.. والمصير واحد.. والنجاح مرهون بهذا الشعور النبيل بأنكما معاً وأنكما تبنيان ولهذا فأنتما بحاجة لكل الطاقة.. ولكل الحب.. ولكثير من الصبر والتضحية ونكران الذات.

وعندما تهب عواصف الخلاف تتصديان لها بهذا الرصيد من الدين..

ومن الأمانة..

ومن الحب.. والوفاء.. والصبر..

وعندها تذوب كل الخلافات.. وتزول كل المحن.. ويبقى الود.. ويبقى الحب.. وتسير الحياة هنيئة.. هادئة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتسكنان إلى بعضكما.. وترعيان أسرتكما.. وتبنيان عشكما.. وتحسان بتلك المودة. وتعيشان تحت ظل تلك الرحمة: ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

بعد الوداع

همسة للذين يسمعون..!

عيب والله وألف عيب ما يجري في مدارسنا اليوم من إهمال للأبناء.. وللبنات.. وهي همسة صادقة أرجو أن تصل إلى الآذان الواعية.. ومن ثم تلامس القلوب.. ليحس الناس بأبعاد هذا الإهمال واللامبالاة.. فقد أخذ بعض الناس في الابتعاد عن مسؤوليته تجاه أبنائه رويداً.. رويداً.. دون إحساس بأبعاد وخطورة هذا الوضع.. وانعكاساته على حياة الأطفال.. والتلاميذ.. فمنذ اللحظة التي يودعه فيها المدرسة.. لا يعود للسؤال عنه.. إن ناجح فناجح وإن راسب فراسب.. وحتى أصبحنا نرى المدارس تدعو إلى مجالس آباء في مدارس يبلغ تعداد طلابها المئآت وعند انعقاد المجلس لا يحضر سوى النزر اليسير.. وممن يعدون على أصابع اليد.. وربما اليد الواحدة.. فهل هذا أمر مقبول أو معقول.. ماذا حدث للناس..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيف جَرُؤ هؤلاء على إقناع أنفسهم بأن المدرسة هي المسؤولة الوحيدة عن تربية هؤلاء التلاميذ.. وكيف نتوقع توازناً في حياتهم فضلاً عن تحسس لأبعاد الإبداع.. أو الإخفاق عندهم..

إن تربية الأبناء مسؤولية عظيمة.. وأول هذه المسؤوليات.. الالتصاق بهم.. وموافقتهم والقرب منهم وتحسس أحوالهم.. وإعطاءهم القدوة الحسنة.. وإشعارهم بأن هناك من هو خلفهم.. يفرح لفرحتهم.. ويحزن لحزنهم ويتابع مسيرتهم.. ويدعو لهم.. ويسأل عن أحوالهم.. وإلا فما معنى هذه الأبوة التي تسمو فوق كثير من القيم.. والمشاعر وتلك الأمومة التي جعلت رسول الله ﷺ.. ينادي أمك.. ثم أمك.. ثم أمك.. ثم أباك...

فلنتوقف ساعة.. ونحاسب أنفسنا.. ونقبل على احتضان أبنائنا.. وبناتنا ونتذكر أن الأبناء لا ينشأون بطريقة شيطانية.. ولكن من أراد أن يكون له أولاد فعليه أن يربي أولاده.. وهم يولدون على الفطرة.. فلنعينهم على الحياة الكريمة.. والفطرة الصحيحة بالتربية السوية.. والمتابعة الواعية.. والله الهادي إلى سواء السبيل...

الصفعات النفسية

عجبت لآباء وأمهات في مجتمعنا لا يعرفون من التأديب غير القمع والإهانة.. ولا من التهذيب غير الإحباط والتثبيط.. ولا من التوجيه غير المنع والقهر..

وتناسى هؤلاء وأولئك.. أن القضية إنما تبدأ وتنتهي بالقدوة الحسنة أو السيئة...

وأبناؤنا نحن قدوتهم..
فإن صدقنا يصدقون..
وإن كذبنا يكذبون..
(وإن استرجلنا يسترجلون)..
(وإن استنذلنا يستنذلون)..
وإن خنا يخونون..
فهم لخطواتنا متبعون.. ولتصرفاتنا مقلدون..

فالقدوة هي الأساس. والتأديب والتهذيب يبدأ وينتهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بها.. وليس بالعنف ولا بالقسوة.. ولا بالانفعال تكون التربية.

لا شك أنه أمر مؤسف حقاً أن نلاحظ في مجتمعنا ازدياد موجة الصفعات النفسية.. والإغراق في ممارستها دون إحساس وبصورة خاصة من الآباء والأمهات والمربين بأنها أشد إيلاماً.. وأسوأ أثراً من الصفعات الجسدية..

بل ان بعض الصفعات النفسية ذات أثر مدمر.. ومؤذ.. على المدى الطويل.. وكثيراً ما تترك رواسب يصعب التخلص منها.. وتعمل على ترسيب بعض التشوهات التي تكون مردودات سلبية عند تبلور شخصية الفرد مستقبلاً.. ولعل من مظاهر هذه الممارسات.. التأنيب المستمر والتثبيط.. والإهانة.. وهي من أقسى.. وأعنف الصفعات.. لأنها تساهم في تدمير الشخصية الإنسانية.. وتشوه فطرتها.. وتفقدها التوازن النفسي في كثير من الأحيان.. ويكون النتاج النهائي والمحصلة إما شخصية عدوانية عنيفة.. وربما إجرامية أو شخصية سلبية مهزومة مهزوزة الثقة في النفس.. تظهرها اللامبالاة.. وتغلب عليها الرغبة في العزلة والتقوقع خوفاً من الناس.

والمتتبع لبعض أنماط التربية عندنا.. يلاحظ أن الناشئة درجوا على اللامبالاة.. والسلبية في بعض الأحيان.. وحتى

تجاه الأحداث الأساسية التي تمر بها الأمة أو يمرون بها هم.. وبدأ يتكون لديهم شعور بالفردية.. وسطحية الاهتمام كنتيجة حتمية للظروف التربوية التي يمرون بها.. سواء في المنزل.. أو في المدرسة..

فكثيراً ما يغرق الأهل في النواهي والممنوعات والمحظورات.. وما لا يجب وما هو عيب وما هو ممنوع.. إلى آخر القائمة.

وكان يجب أن يتحدث الأهل بما يجب.. وما هو مسموح.. وما هو مرغوب.. وما هو مشرف.. قبل التحدث عن المنع.. والحظر.. والزجر والتأنيب.

وكان الواجب أن نكون قدوة لهم في السلوك وأن يكون لدينا الوقت الكافي.. والرغبة الصادقة.. والعزيمة الصحيحة للبقاء معهم والتحدث إليهم.. ومشاركتهم مراحل العمر الجميلة التي يمرون بها.. وجعلها ذكريات عطرة.. تساهم في التطلع إلى أحلام مستقبلية جميلة أيضاً.

أما أن ننشغل عنهم.. ونهمل في متابعتهم.. والابتعاد عنهم ثم نتذكر فجأة عندما يرتكبون الأخطاء.. أنهم أبناؤنا.. وأن من واجبنا تربيتهم وتأديبهم.. فهذا هو الخطأ بعينه.. ونتحسس حالة الطفل أو الطفلة الذي يذهب إلى المدرسة في الصباح.. وهو متعب مرهق نفسياً من المنزل فلا يجد لدى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مدرسه أو مدرسته صدراً حنوناً وشعوراً به . . أو إحساساً بكيانه . . ووضعه وظروفه . . فهذا الطفل لا يستفيد من يومه الدراسي . . غير مزيد من الإرهاق الذي إن تكرر قاد إلى الضياع .

وكذلك الأمر مع طفل أو طفلة تعود إلى المنزل مرهقة من المدرسة ومن وضع المدرسين والمدرسات الذين انشغلوا بحشو أدمغة التلاميذ بمعلومات قد لا تتجاوز حدود كراساتهم مستقبلاً . . وهم معذورون في ذلك بحكم ما هو مفروض عليهم .

ولعل المشكلة الحقيقية أن هؤلاء التلاميذ لا يجدون لدى المدرس أو المدرسة الوقت الكافي للتفاهم أو الحوار . . أو الاحتكاك . . فضلاً عن التربية وحتى إذا كبر هؤلاء التلاميذ . . وارتادوا المساجد . . فإن الأمر المؤسف أن بعض خطباء هذه الأيام . . ليس لديهم غير . الويل والثبور وعظائم الأمور . . وكأن الدين هو وسيلة قمع وتعذيب . . أو أنه لا يعدو أن يكون مجموعة محرمات وزواجر .

وهكذا يضيع الجيل بين أسرة غير متفرغة للتربية . . وليس لدى ربها الوقت للتربية . . ومدرسة انشغل فيها المربون . . بقضايا الحفظ أو التدريس والتلقين . . وضاع الجانب التربوي الهام .

ومساجد من المفروض فيها أن تكون آمنة مطمئنة يدخلها الناس ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وطمأنينة . . وصلة بالله عز وجل حتى تسكن نفوسهم . . وتطمئن قلوبهم وتغمرهم السكينة والوقار لا أن ينفروا أو يخوفوا . .

فليت شعري . . هل يمكن أن نتعظ ونقبل على أبنائنا . . ونقترب منهم أكثر وأكثر وندرك أن عملية التربية . . تبدأ بالتفرغ وبإدراك المسؤولية تجاه هذه الناشئة والتأكد من حقيقة أن من أراد أن يكون له أبناء فإن عليه أن يربيهم . . ويتفرغ لهم . . ويعطيهم الوقت الكافي . . لأن الأبناء لا ينشأون بطريقة عفوية . . ولا شيطانية كما قيل . . وإنما بالتربية والتنشئة وبالقدوة الحسنة .

فإذا لم نتفرغ لهم . . فلا أقل من أن نكف عن أذيتهم . . وإهانتهم وتثبيط هممهم . . وتشويه فطرتهم الإنسانية .

إنهم أمانة . . ولا بد من أداء الأمانة .

إنهم رسالة . . ولا بد من أداء الرسالة .

ولنا في رسول الله ﷺ . . القدوة الحسنة . .

أدى الأمانة . .

وبلغ الرسالة . .

وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان خير الناس لأهله: «خيركم خيركم لأهله. وأنا خيركم لأهلي».

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل...

أسباب تراجع الأمة الإسلامية

اعتقد والله أعلم أن معظم مصائب الأمة العربية والإسلامية التي هي فيها مردها أساساً إلى: فساد وسوء التفكير:

عدم الجدية في العمل..

انعدام الاستمرارية..

ودعونا نناقش الموضوع الآن بكل موضوعية وبتفكير سليم قد يوصلنا إلى أبعاد المشكلة، ومن ثم الاتفاق على حقيقتها.. حتى يمكن تصور الحلول المنطقية.. والموضوعية.. والممكنة مرحلياً لها.. لأني مسبقاً لا أعتقد أن عامل السرعة ذو قيمة أو فعالية بأي شكل من الأشكال كما سنرى...

أولاً ـ فساد وسوء التفكير:

إن المتتبع لتاريخ بداية تدهور الأمة يلاحظ أن المسألة في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل حقب.. وفي كل عهد ومرحلة.. كانت تبدأ بسوء التفكير وفساد الرأي.

وفساد الرأي.. وسوء التفكير.. عملية خطيرة.. لأنها تحجب الرؤى.. وتفسد البيئة.. وتؤدي إلى تدهور الوسط الذي تنتشر فيه.. والمشكلة تكمن أساساً أن لها بداية.. ولكن لا أحد يستطيع أن يتكهن بالنهاية التي تقود إليها..

وفساد الرأي كما يكون في الأمة والمجتمع.. يكون في الأسرة.. وفي الفرد.. خصوصاً إن أخذنا التعريف البسيط للأسرة.. المكونة من عدد من الأفراد.. والمجتمع الذي يتكون من عدد من الأسر.. وهكذا..

ولذلك فالأمم المتحضرة والواعية تولي اهتماماً خاصاً لقضية بناء الفرد.. وتربيته وتكوينه.. وتعطي أهمية كبرى لقضايا التعليم.. وتعنى بقضية التربية في العملية التعليمية.. وانها ليست مجرد قنوات الاستظهار.. ولكنها عملية تربوية أساسية في تشكيل الفرد.. وصناعته كفرد صالح.. يدرك موقعه ومسؤوليته وأنه جزء من الأمة.. وتعلمه أهمية الثقافة والتراث والتصرف الحضاري.. وكيفية بناء نفسه واحترام الآخرين.. والتفكير بحرية وبطريقة سليمة.. وهنا حجر الزاوية كما يقولون!!

لأن اختيار المنهج الجيد مهم..

واختيار المدرس الجيد.. مهم أيضاً..

ولكن الأهم من ذلك.. طبيعة الوسط المدرسي والجو المحيط الذي يحول المدرسة إلى مكان صالح للتربية السليمة.. والتفكير السليم.. في إطار من الحرية.. التي هي عامل أساسي في بناء الشخصية..

ومن الناحية الأخرى. يأتي دور المنزل والتربية المتممة لدور المدرسة.. لأن فساد جو الأسرة ينعكس تلقائياً على بناء الفرد..

ولا أعني هنا بفساد الأسرة.. هو انحلال الأب.. أو الأم.. أو تفكك الأسرة.. أو حتى انحلالها بكاملها.. فهذه قضايا واضحة وبينة التأثير وليست مجال حديثي هنا.. ولكنني أعني بها الانحلال في التفكير التربوي لدى الأسرة.. ودعوني أوضح هذا أكثر..

فالانحلال في التفكير التربوي يأتي من إهمال العائلة.. أو المدرسة لقضية.. حرية الأطفال.. والطلاب عموماً، في التعبير عن أنفسهم وما يصاحب ذلك من قمع أو تعنيف بغرض فرض مبدأ أخلاقي.. أو اقتصادي أو نحو ذلك.. دون إدراك أو تحسب لمخاطر هذا النوع من السلوك مع الناشئة وبخاصة الأطفال وما يمكن أن يورثهم من عقد نفسية تحول دون حريتهم في التفكير.. وتقود بالتالي إلى فساد تفكيرهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بطريقة عفوية دون محاولة التعمق أو الفهم.. ولهذا يتكون جيل من الانفصاليين.. الذين ورثوا سطحية التفكير.. وليس لديهم القدرة على تحسين مستواهم الفكري لمجرد أنهم لا يشعرون بذلك فقد غرست العائلة أو المدرسة فيهم شعوراً مدمراً من اللامبالاة.. وعدم العمق أو الجدية.

وهناك أيضاً الأمية التربوية.. وهي أن العائلة بكاملها تجهل دور التربية وأهميتها.. وتركز بصورة أساسية على القضايا المظهرية من الكماليات.. وتدفع بالأطفال إلى أحضان مربيات من مستويات ثقافية ودينية وتربوية متدنية.. فينشأ عند ذلك.. أطفال يعانون من الانفصال عن البيئة من ناحية.. والازدواجية في البناء التربوي وضحالة القدرة على التفكير.. ... بسبب المستوى المتدني الذي يتصلون به ويتعاملون معه من التفكير وغياب المسؤولية التربوية في المنزل.. وكذلك الأمر في المدرسة عندما تتحول مسؤولية مدير المدرسة إلى مسؤولية إدارية.. ومسؤولية المدرس إلى مسؤولية تدريسية تلقينية لحشو أدمغة الطلاب بأكبر قدر من المعلومات الممكنة في زمن محدد..

وهكذا يتكون جيل من الأمة.. تفكيره ضعيف.. وقدراته محدودة.. فإذا تحمل مسؤولية.. أو تولى منصباً أو قام بالتعليم والتربية.. أو حتى كوّن عائلة.. علينا أن نتصور النتائج.. والحبل على الجرار كما يقولون في لبنان الجريح.

الجدية وعدمها في العمل:

والحق أن النهضة في أي أمة إنما تبدأ بالجدية في العمل بعد مرحلة الإدراك.. ومعرفة الأهداف وذلك.. لأن مرحلة العمل هي التي تحدد شكل وأبعاد نهضة الأمة لقضاياها في النهضة.. وأهدافها الاقتصادية والاجتماعية.. والثقافية.. ولكن المرحلة التالية وهي مرحلة العمل لم تتسم بالجدية والاستمرارية ولذلك كان نصيبها الفشل.. والتدهور.. لأن التخطيط وحده لا يكفي.. والدراسات مهما كانت مثالية لا تفيد إذا لم يتبعها عمل جاد.. وجهد صادق.. ومتابعة تكفل الاستمرارية لنأخذ.. مثالاً على ذلك من واقع حياتنا الإسلامية في صدر الإسلام.. ومثال آخر من الحياة المعاصرة وهو النهضة اليابانية الحديثة..

أما عن المثال الأول. فهو رسول الله ﷺ فقد جاء بالحق المبين.. وهو رسول الله وخاتم النبيين وهو يعلم تماماً صدق الدعوة التي يدعو إليها.. ومتأكد تمام التأكد من نصر الله عز وجل له.. وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.. ومع ذلك حرص عليه الصلاة والسلام على العمل الجاد في سبيل نشر الدعوة.. ولم يتوان.. ولم يضعف ولم يرتجف.. بل ظل يدعو إلى الله على بصيرة.. وتحمل كل أنواع الأذى والبلايا.. واستمر في دعوته إلى الله عز وجل.. وكان من الممكن أن يعتمد على أنها دعوة الله..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأن الله سيظهرها بقدرته.

وان الله سيهدي الناس جميعاً..

وأنها كلمة حق لا تحتاج إلى جهد أو عمل..

ولكنه.. كان القدوة الحسنة لنا جميعاً فقد عمل على نشر الدعوة وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين وبلغ الرسالة بجدية وعمل صادق وشجاع وأدى الأمانة على خير وجه واستمر في العمل حتى أصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

واستمر في نصح الأمة.. وكان القدوة في العمل وفي الصبر على البلاء.. والاستمرارية دون خوف ولا توانٍ.

وجاء القرآن ليعلمنا قيمة العمل..

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

فالعمل الجاد المشرف.. هو المحصلة.. لأنه نتاج سيراه الله كما رآه رسوله والمؤمنون.. وهنا تأتي قضية الجدية في العمل..

فهذا رسول الله ﷺ.. يعمل ويدعو إلى العمل الجاد.. ويشارك أصحابه في العمل.. ويدعوهم إليه ويفهمهم أن خير الرزق أن يأكل الإنسان من عرق جبينه..

وتُوفي رسول الله ﷺ...

وانقطع الوحى من السماء..

ولكن الإسلام مستمر..

فالدين لله..

وجاء أبو بكر.. وصرخ بأعلى صوته يطلب الثبات على الدعوة.. وأن الدين لله: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

واستمر في العمل الصادق. وقد تعلم الدرس من رسول الله.. وراح يعمل.. واتسمت فترة خلافته بالعمل الجاد وثبّت عرى الدعوة.. ووسع مجالات الجهاد.. وجهز الجيوش.. واستمر في الفتوحات.. وكان قوياً في كل المجالات: (والله لو منعوا عني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه)..

هكذا لا يعرف في الله لومة لائم...

واستمر خلفاء الرسول على نفس النهج.. إيمان وعمل جاد.. وصادق.. وجهاد في سبيل الله..

وإنما بدأ التدهور والضعف والضياع عندما توقف العمل الجاد.. وحل محله اتباع الشهوات.. وضياع المبادىء والمثل..

فالقضية بدأت بالعمل الجاد الذي وضع أساسه رسول الله ﷺ وانتهت القضية.. بضياع العمل.. فخلف من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وبذلك يمكننا وصف مرحلة التدهور. بأنها فترة غياب العمل الجاد.. وانعدام الاستمرارية.. وعدم تحمل المسؤولية..

هذا المثال الأول..

أما المثال الثاني فهو النهضة اليابانية الحديثة وهي تمثل الإرادة القوية.. والجدية في العمل والقدرة على المتابعة والاستمرارية.. فهذه أمة خرجت مهزومة.. محطمة.. بعد حرب طاحنة.. دمرت بعض مناطق اليابان تدميراً ليس له مثيل في التاريخ.. وأتت على الأخضر واليابس.

ولكنهم جمعوا أمرهم.. وقدروا العمل الصادق لاستعادة نهضتهم وكانت كلمة السر في كل القضية.. هي العمل الجاد وبه في الدرجة الأولى.. وبالإرادة الصادقة.. نهضت اليابان.. وهي دولة ليس فيها ثروات معدنية وليس فيها ثروات طبيعية غير عادية وليست غنية جداً ولكن ثروتها وطاقتها.. وقدرتها كانت العمل.. ورجالها يعملون.. ويعملون بجدية ويحترمون العمل.. فأخذوا بيد بلادهم نحو نهضة لفتت أنظار العالم بأسره...

وإذن.. فنحن مدعوون إلى العمل.. والعمل الجاد وأن نربي في أنفسنا وفي أبنائنا حب العمل.. والصبر عليه.. وننمي فيهم القدرة على الاستمرارية.. والمتابعة للوصول إلى

الهدف ثم الحرص على البقاء.. باستمرار العطاء..

وعلينا أن لا ننسى فهم التخطيط.. فإن أفضل خطة في العالم لا تفيد أي أمة من الأمم.. إذا كانت هذه الأمة لا تعمل وليس في رجالها قدرة على العمل.. ولا في أبنائها احترام للعمل لأن الخطة.. أو الخطط تبقى في النهاية حبراً على ورق.

وصحيح أن العمل بدون خطة.. عمل لا يضمن له النجاح.. لكن خطة بلا عمل أيضاً لا تزيد عن كونها وهماً..

وويل لأمة تبني مستقبلها على وهم.. لأنه «زبد»، **﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لو نفكر ساعة

أعتقد والله أعلم أن معظم مصائب الأمة العربية والإسلامية التي هي فيها مردها أساساً إلى:

فساد وسوء التفكير..

عدم الجدية في العمل..

انعدام الاستمرارية..

ودعونا نناقش الموضوع الآن بكل موضوعية وبتفكير سليم.. قد يوصلنا إلى أبعاد المشكلة، ومن ثم الاتفاق على حقيقتها.. حتى يمكن تصور الحلول المنطقية.. والموضوعية.. والممكنة مرحلياً لها.. لأني مسبقاً لا أعتقد أن عامل السرعة ذو قيمة أو فعالية بأي شكل من الأشكال كما سنرى..

أولاً - فساد وسوء التفكير

إن المتتبع لتاريخ بداية تدهور الأمة العربية. والإسلامية

بوجه عام يلاحظ أن المسألة في كل حقب.. وفي كل عهد ومرحلة.. كانت تبدأ بسوء التفكير وفساد الرأي.. وضياع المشورة..

وأول مخاطر هذه المراحل.. هو تحكم الشهوات الإنسانية.. والانفعال الذين يحولان دون التفكير السليم.. وهذان العاملان تكمن مخاطرهما في أنهما وبصورة خاصة عامل الانفعال يحجبان الرؤيا.. ويساهمان بصورة تدريجية في غياب التفكير السليم.. وهروب الآراء السديدة، وابتعاد مصادر المشورة الصحيحة.. وبالتالي أهل المشورة.. فيصبح أهل الحل والعقد هم في الحقيقة قوم لا يحلون ولا يعقدون ولا على المشورة قادرون.. ولا بالرأي الصحيح مشيرون...

وفساد الرأي.. وسوء التفكير.. عملية خطيرة.. لأنها كما ذكرت.. تحجب الرؤى.. وتفسد البيئة.. وتؤدي إلى تدهور الوسط الذي تنتشر فيه.. والمشكلة تكمن أساساً أن لها بداية.. ولكن لا أحد يستطيع أن يتكهن بالنهاية التي تقود إليها...

وفساد الرأي كما يكون في الأمة والمجتمع... يكون في الأسرة.. وفي الفرد.. خصوصاً إن أخذ التعريف البسيط للأسرة.. المكونة من عدد من الأفراد.. والمجتمع الذي يتكون من عدد من الأسر.. وهكذا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولـذلك فـالأمم المتحضرة والواعيـة تولي اهتـماماً خـاصاً لقضيـة بناء الفـرد.. وتربيتـه وتكوينـه.. وتعطي أهميـة كبرى لقضايا التعليم.. وتعنى بقضية التربية في العملية التعليميـة.. وأنها ليست مجرد قنوات ووسـائل... للتلقـين.. أو الحفظ أو الاستظهار.. ولكنها عملية تربوية أساسية في تشكيل الفـرد.. وصناعته كفرد صالح.. يدرك موقعه ومسؤوليته وأنه جـزء من الأمة.. وتعلمه أهمية الثقافة والتراث والتصرف الحضـاري.. وكيفية بناء نفسه واحترام الآخرين.. والتفكير بحرية وبـطريقة سليمة.. وهنا حجر الزاوية كما يقولون!!

لأن اختيار المنهج الجيد مهم...
واختيار المدرس الجيد.. مهم أيضاً..

ولكن الأهم من ذلـك.. طبيعة الـوسط المدرسي والجـو المحيط الذي يحول المدرسة إلى مكان صالح للتربية السليمة.. والتفكـير السليم.. في إطـار من الحـرية.. التي هي عـامـل أساسي في بناء الشخصية...

ومن الناحية الأخرى.. يأتي دور المنزل والتربيـة المتممة لدور المدرسة... لأن فساد جو الأسرة ينعكس تلقائياً على بناء الفرد...

ولا أعني هنـا بفساد الأسرة.. هـو انحـلال الأب.. أو الأم.. أو تفكك الأسرة.. أو حتى انحلالها بكاملهـا.. فهذه

قضايا واضحة وبينة التأثير وليست مجال حديثي هنـا.. ولكنني أعني بها الانحلال في التفكير التربـوي لدى الأسرة.. ودعـوني أوضح هذا أكثر...

فـالانحـلال في التفكـير الـتربـوي يـأتي مثـلاً من إهمـال العائلة.. أو المدرسة لقضية... حـرية الأطفـال.. والطلاب عمـوماً في التعبـير عن أنفسهم وما يصـاحب ذلك من قمـع أو تعنيف بغـرض فرض مبـدأ أخلاقي.. أو اقتصـادي أو نحـو ذلـك.. دون إدراك أو تحسب لمخاطـر هذا النـوع من السلوك مـع الناشئـة وبخاصـة الأطفال ومـا يمكن أن يورثهم من عقـد نفسية تحول دون حريتهم في التفكير... وتقود بالتالي إلى فساد تفكيرهم.

وهناك أيضاً الـلامبالاة لـدى الأسرة والمجتمع التي تؤدي إلى خلق نـوع من السلبيـة لـدى الأطفـال... وتقـودهم إلى التفكـير بطريقـة عفويـة دون محاولـة التعمق أو الفهم.. ولهذا يتكـون جيـل من الانفصـاليين.. الـذين ورثـوا سـطحيـة التفكير.. وليس لديهم القـدرة على تحسين مستواهم الفكـري لمجرد أنهم لا يشعرون بذلك فقد غرست العائلة.. أو المدرسة فيهم شعوراً مدمراً من اللامبالاة.. وعدم العمق أو الجدية.

وهناك أيضاً الأمية التربوية.. وهي أن العـائلة بكاملهـا تجهل دور التربية.. وأهميتها وتركز بصورة أساسية على القضايا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المظهرية من الكماليات.. وتدفع بالأطفال إلى أحضان مربيات من مستويات ثقافية ودينية وتربوية متدنية.. فينشأ عند ذلك.. أطفال يعانون من الانفصال عن البيئة من ناحية.. والازدواجية في البناء التربوي.. وضحالة القدرة على التفكير.. بسبب المستوى المتدني الذي يتصلون به ويتعاملون معه من التفكير وغياب المسؤولية التربوية في المنزل.. وكذلك الأمر في المدرسة عندما تتحول مسؤولية مدير المدرسة إلى مسؤولية إدارية.. ومسؤولية المدرس إلى مسؤولية تدريسية تلقينية لحشو أدمغة الطلاب بأكبر قدر من المعلومات الممكنة في زمن محدد..

وهكذا يتكون جيل من الأمة.. تفكيره ضعيف.. وقدراته محدودة.. فإذا تحمل مسؤولية.. أو تولى منصباً أو قام بالتعليم والتربية.. أو حتى كون عائلة.. علينا أن نتصور النتاج... والحبل على الجرار كما يقولون في لبنان الجريح.

فساد العلماء

وتشغلني هذه الأيام قضية فساد بعض العلماء، أو فلنقل إنصافاً وإحقاقاً للحق، أدعياء العلم في هذا الزمن، الذي ابتلي المسلمون على وجه الخصوص فيه بألوان البلايا والرزايا، وفي مقدمتها مسألة في غاية الخطورة، وهي تصدي بعض الناس للفتوى وللحديث عن الدين بطرق هي أبعد ما تكون عن روح الدين أو منهجه، وللأسف فإنهم ممن يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويطلبون رضاء الناس بسخط الله عز وجل، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، كما وصفهم رسول الله ﷺ، ولكن المشكلة أنهم لا يمرقون بمفردهم، بل يضلون معهم فئات كثيرة من الناس الذين يخدعون في مظاهرهم وفي الهالات التي يضفونها على أنفسهم...

﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقضية فساد العلماء تبدأ بمرض في قلوبهم، فيزيدهم الله سبحانه وتعالى مرضاً إلى مرضهم، ويسلم قيادهم للشيطان، وبذلك يضلون ويضلون في نفس الوقت..

ولهذا كان من أهم مقومات العالم صلاح النية وإخلاصها، ومن لم تكن له نية مخلصة في طلب العلم وفي تعليمه، لا تجد عليه نور أهل العلم، ولا يجد هو كذلك أي أثر للنور في نفسه، وذلك لأن الله لا يفتح أبواب العلم لمن كانت نيته غير خالصة، ورحم الله الإمام الجليل أحمد بن حنبل حيث جعل قواعد المفتي أو العالم:

١ ـ أن تكون له نية مخلصة.
٢ ـ أن يكون ذا علم وحلم ووقار وسكينة.
٣ ـ أن يكون قوياً على ما يتعرض له، عازماً به.
٤ ـ أن يكون كفؤاً تتوافر فيه الكفاية، وإلا مضغه الناس.
٥ ـ أن يكون على دراية بالناس ومعرفة لأحوالهم.
٦ ـ أن يكون عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالسنن وعالماً بالأسانيد الصحيحة.

فأين هذه الشروط من هذه الفئة التي امتحن المسلمون بها هذه الأيام.. أقوام يهرفون بما لا يعرفون، ويأتون باطلاً من القول وزوراً، ويتقولون على رسول الله ﷺ بالباطل...

وهم في حماقاتهم هذه يظنون أنهم يجتهدون وما هو

بالاجتهاد.. أو يقيسون وما هو بالقياس، بل باطل وافتراء واجتراء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالاجتهاد له أصوله، والقياس له أسسه وطرقه، وحتى المصالح المرسلة، لها أحكامها وأسسها، وليست مسألة «مفلوتة» بدون ضوابط...

ولكنها همزات الشياطين يضلون بها أولياءهم، وهذه هي حال من يكن الشيطان له ولياً..

وإلا فهذا رب العباد يأمر العلماء والعامة أن لا يقولوا إلا قولاً سديداً: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم﴾** الآية...

وحذر سبحانه وتعالى أولئك الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله...

وفي رأيي أن هذه الفئة من العلماء المبطلين هم أشر من تلك الفئة التي حذرهم الله: **﴿فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾**...

والدين ليس في حاجة إلى إضافة في أي أصل من أصوله، حتى يأتي أمثال هؤلاء بإضافات ليست من الدين في شيء، والله يقول في وضوح جلت قدرته: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**... الآية..

وهذا رسوله ﷺ يقول: «من أحدث في أمرنا ما ليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منه فهو عليه رد، ومن تقول علي فليتبوأ مقعده من النار - من كذب علي -».

أسوق هذه المقدمة اليوم بمناسبة ما نشر عن صاحب الرقم (١٩) الذي فتن الناس بهذه القضية، وتاجر بها وقتاً طويلاً وكسب من خلف ذلك ملايين الدولارات، وأحسب أن هذه القضية تهون كثيراً بجانب الافتراءات الجديدة التي بدأ يمارسها ويبثها دون تقوى أو خشية من الله، ولا حياء من الناس...

فقد ذكر لي الصديق الشيخ/ عمر أحمد بادحدح عن زيارته الأخيرة لأمريكا، وكيف التقى بالدكتور/ رشاد خليفة، وهو من هذه الفئة التي تدعي العلم والاجتهاد، وقد ساهمت في خداع الكثيرين للأسف...

يقول الشيخ/ عمر بادحدح.. ذهبت إلى مقر مسجد الدكتور/ رشاد خليفة في مدينة توسان، وقد وجدته قد انتهى لتوه من تفسير بعض آيات القرآن، وبعد ذلك قام والذين معه للصلاة، وبدأت العجائب والغرائب والضلالات.. فقد أذن للصلاة ولكن الأذان لم يشتمل على الشهادة كاملة بل اكتفى بكلمة «أشهد أن لا إله إلا الله» بدون شهادة أن محمداً رسول الله، وكذلك فعل في الإقامة وبعد ذلك صلى صلاة عجيبة، جهرية في جميع ركعاتها الأربع، والنساء في صف واقفات

يصلين حاسرات.. كاشفات.. متبرجات بألوان الزينة، والشيخ الدكتور يلبس هنداماً خاصاً به ويتجول في المسجد، يعلم الناس هذا الضلال والفساد، وقد سأله الشيخ/ عمر بادحدح عن طبيعة هذا الآذان، وحذف نصف الشهادة، وهل كان المؤذن مخطئاً أو ناسياً...

قال الدكتور/ خليفة.. لا لم يحدث شيء من هذا، بل كان الأذان صحيحاً...

فقال الشيخ بادحدح.. ولكنه لم يذكر الشهادة كاملة.. بل أسقط منها كلمة محمد رسول الله...

وهكذا أنكر هذا المضلل وجوب النطق بالشهادة كاملة في الأذان، واجتهد اجتهاداً غير صحيح، ولا هو بمكان اجتهاد، فضلل المسلمين الذين اتبعوه، وللأسف الشديد فإنه كان مصراً على الدفاع عن رأيه حتى عندما حاجه الشيخ عمر بادحدح، وأوضح له أن هذه القضية متواترة عن رسول الله ﷺ، وهي ليست محل اجتهاد، فعمد إلى القول بأنه لم يثبت شيء بالقطع غير القرآن وقال له الشيخ...

ولكنك أنكرت التواتر، فكيف تؤمن بالقرآن، وقد نقله لنا صحابة رسول الله وتكفر بالحديث، وهنا عاد إلى موضوع الرقم (١٩)...

وقال أن دراسته للرقم (١٩) أوضحت له أن القرآن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كتاب منزل من الله وأنه لا يمكن أن يكون من قول البشر. . .

هكذا يكفر دفعة واحدة، بكل ما جاء عن رسول الله ﷺ من أحاديث لأنها لم تنطبق مع الرقم (١٩) الذي وسوس له به الشيطان. . .

﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾. .

وهناك تفصيل كامل لمن أراد أن يتتبع المناقشة منشوراً في جريدة الندوة الغراء يوم الإثنين ٢٧ شعبان ١٤٠٤ هـ. . .

ثم إن هذا الفاسد الظالم لنفسه وللعقيدة الإسلامية قد بلغ به الأمر مبلغه. . ووصل به الفساد أن يعلن في العام ١٩٨٠ في أمريكا ومن مركزه أنه رسول مرسل من الله عز وجل كذباً وبهتاناً على الله. . ولكن الحمد لله الذي فضحه بإعلانه هذا حتى لا ينخدع الناس بضلاله وادعاءاته.

وهذا نموذج من فساد العلماء الذين يسيئون فهم معنى الاجتهاد. . فيضلون ويضلون، وليت شعري، إن كنا قد أمرنا بالضرب على أيدي السفهاء. . فهؤلاء هم السفهاء ولكن لا يشعرون. . .

خارج أسوار السجن

للسجن فلسفة. . .

وهذه الفلسفة تقوم على مبدأ العقوبة والعزل. . فالذي يرتكب إثماً يجب أن يعاقب وإلا استوى المحسن والمسيء، فيلقى هذا من المجتمع ما يلقاه ذاك.

وليس هذا بعدل، إذ كيف يستوي من يحسن ومن يسيء، ومن يأمن المجتمع بوائقه ومن يصب عليه آثامه وشروره. . .؟؟

وإذا اختل ميزان العدل في أي مجتمع اختلت كل القيم بالضرورة، وغدا الأشرار سادته ورواده، ولم يعد ثمة أمل في إصلاح حال، أو العودة عن ضلال. . .

وإلى جانب «العقوبة» والتي هي حق وعدل يوجد مبدأ العزل. . إذ ما الذي يمكن أن تفعله في مجرم لا يكف أذاه عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النـاس إذا اختلط بهم إلا أن تعـزلـه عنهم حتى يعيشـوا، ويعملوا، آمنين من الأذى والترويع . . ؟؟

وهكذا تقوم فلسفة السجن على مبـدأين اثنين يتكـاملان في الأثر النهائي وهما: العقوبة والعزل . . . عقوبة الأثيم وعزلـه لصالح المجتمع بأسره وما ينبغي له من عدل وأمن . . .

وفي الإسلام تقوم فلسفة السجن على أسـاس العقوبـة، بيد أنها عقوبة لا تراد لـذاتها، أي أنها لا تتـوخى مجرد العـدل بمعنـاه الحرفي وذلـك بأن يلقى المجـرم جزاء عمله، وإنمـا هي تتوخى الإصلاح عن طـريق تهذيب النفس وتقـويم معوجهـا، وحض المخطىء على إعادة النظر في موقفه من الحياة والناس.

والأساس في الإسلام هـو الحريـة: حريـة الفرد وحـرية المجتمع، وهو يحقق هذه الحريـة عن طريق فـك أسار الضمـير وعتقه من الخضوع لغير الله سبحانـه وتعالى. فـطالما أن الحيـاة بيـده، جل وعـلا، وأن العز والـذل بيـده، والفقـر والغنى من صنعه، فما حاجة الإنسـان إلى الخضوع لغيره سبحانه، والزلفى إلى مخلوق مثله؟؟

ويـوم يتحرر الضمـير، على هـذا النحو، يتحـرر الفـرد ويتحرر المجتمع.

ولكن هـذه الحريـة ليست حريـة طليقـة من كـل قيـد، سائبة الحبـل على الغـارب. وإنما هي حـرية الضمـير الذي لا

يمكن أن يحصـل على عتقـه كامـلاً. إلا إذا كـان خضـوعـه لله وحـده، لما يـأمر بـه وينهى عنه، وللمبـادىء والقيم العليا التي حضَّنـا على العمل وفاقاً لها، وامتثـالاً لأمره فينـا. . بمثل هـذه الحرية يزكو الفرد بزكاة نفسه وضميره، ويتطهر المجتمع بصفاء نفـوس أفراده، فيـأمن الفرد والمجتمـع جميعاً ويتعـايش الأفراد والمجتمع كما تتعايش أضواء النجوم جميعاً في القبة السماوية.

وحين يشذ بعض الأفراد، والشر مجبول في النفوس، عن هـذه القاعـدة الإسلاميـة الأصيلة والعظيمـة، وينحرفـون مع الأهواء والشهوات وصغار النفس الأمارة بالسوء فإنه لا بـد من العقوبة الرادعة.

ويتصاعد الإسلام بالعقوبة إلى حد الإعدام حـين تكون الجريمة من الفداحة بحيث تدل على أن مرتكبها قد بات ميئوساً من إصلاحه. بـل إن الأمر لأعمق من هـذا في نظر الإسـلام. ففي القصـاص حياة لأن المجـرم الذي يـوقن أنه سيقتص منـه بنفس نوع جريمته، ولكن بالحق والعدل، سوف يتردد ألف مرة قبل الإقدام على اجتراح جريمته.

فالذي يدبر للقتل ويعلم سلفاً أنه سوف يقتل عقاباً له، وسوف يقتاد منه، إن هو أقـدم على تنفيـذ جريمتـه، وعلى قتـل النفس التي حـرم الله قتلها إلا بـالحق، سوف يـتردد ويـتروى، وإلا فقصاص المجتمع منه واجب محتوم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا يصبح القصاص مصدراً للحياة بردعه عن القتل.. أي بردعه القاتل عن تنفيذ الجرم الذي يفكر فيه. وبذلك تسلم للحياة نفسان لا نفس واحدة: ـ نفس القتيل، أو من كان يمكن أن يكون قتيلاً لولا ردع مبدأ القصاص، ونفس القاتل ذاته، أو من كان يمكن أن يكون قاتلاً لولا القصاص فإذا عممنا المبدأ على كل جرائم القتل فكم يا ترى ينقذ القصاص من الأنفس في السنة الواحدة في المجتمع الواحد...؟؟

والقصاص، بهذا المعنى ليس ردعاً فحسب، وإنما هو أيضاً تطهير للنفس من شهواتها الجامحة، فهو يدعو من تسول له نفسه قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق إلى التفكير والتقدير والتدبير، ومراجعة حوافزه ونوازعه، وموازنة المغانم التي يتصورها بالمغارم المؤكدة.. وأي غرم أفدح من أن يدفع الإنسان حياته ثمناً لشهوته، أو للحظة من لحظات الحقد الجامح...؟؟

وبهذا التدبير والتفكير والمراجعة والموازنة تتخلص النفس من رواسبها وأحقادها وأوحالها، ويثوب الإنسان إلى نفسه طاهراً منها وبريئاً من أوشابها...

وهذه الفلسفة الإسلامية شاملة، وعميقة، فلم يأمرنا الإسلام بشيء، أو ينهانا عن شيء آخر، إلا وفيه حياة وزكاة

للنفس. فالصلاة وقوف أمام الله بالخشوع والإنابة تتطهر به النفس من وساوسها. والأموال التي نخرجها حقاً للسائل والمحروم إنما هي زكاة لهذه الأموال بقدر ما هي زكاة لنفس المعطي والمتلقي على حد سواء. فالأموال تربو بالزكاة، ونفس المتزكي تسمو، وتطهر، وتستشعر الرحمة والمودة وضرورات التكافل الاجتماعي، كما إن نفس المتلقي تبرأ من الحقد على الأغنياء لأن بعض خيرهم يصيبه.

فالقصاص حياة، وكل ما أمر الله به أو نهى عنه فيه حياة للنفس أو زكاة لها، وتقويم لمعوجها... وبمثل ما أن القصاص هو حياة للفرد وللمجتمع، بل وحياة آمنة زاكية غير مروعة ولا مدنسة، فإن زكاة الأموال، والتي تبدد في الظاهر وكأن المال ينتقص بها، إنما هي زيادة له فتصبح الحبة الواحدة فيه عشرات من السنابل المفعمة...

وكما يتطهر المال بالزكاة ويربو، فكذلك يتطهر الآثم بالسجن فهو يخرج منه أكثر وعياً بواجباته الاجتماعية، وبالحدود الفاصلة بين المسموح به والممنوع، وبالقيم التي يجب على الفرد أن يلتزم بها في تعامله مع غيره من أفراد مجتمعه، أو بني البشر أجمعين، كما إنه يخرج منه أشد حرصاً على تجنب الزلل، والانحراف، والجريمة...

فالسجن في شريعتنا الغراء إصلاح وتهذيب وتطهير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتقويم، وليس مجرد انتقام قد يغري باتساع حلقة الانتقام أو دائرته. ولهذا تحرص المملكة على أن تكون فترة السجن مرحلة لمراجعة النفس، وتخليصها من أية أفكار منحرفة تكون قد علقت بها في مرحلة من المراحل السابقة ولأي سبب من الأسباب.

ونحمد الله أن المملكة العربية السعودية تطبق شريعة الإسلام نصاً وروحاً وتزع بالقرآن والسلطان معاً لكي تحقق المجتمع الإسلامي الفاضل الذي يتحرر فيه ضمير الفرد من العبودية والحاجة لغير الله فيتحرر، بالتبعية، من الصغار والضعة، وما يجرانه من الإثم والجريمة والرذيلة ونزغات الشيطان المضلة.

والله يهدينا وإياكم إلى سواء السبيل.

اللهم احفظنا

بعض العقلاء من الناس من يروض نفسه على الصبر على المكاره.. وحتى على حماقة الحمقى.. وسفاهة السفهاء.. وحسد الحاسدين.. لأنه يؤمن بأن مثل هؤلاء الناس هم خلق من خلق الله الذي ابتلي بتشوهات داخلية.. حولت الفطرة النقية في نفسه إلى عقد من حقد وحسد.. أو حماقة.. وهو في هذا شأنه شأن من يصاب بتشوهات خلقية.. فهل يصح أن نثور في وجه رجل لأنه أعور.. أو به أذى في رأسه أو وجهه.. أو نحو ذلك.. وأنت تعلم أنه مبتلى من الله عز وجل.. وأن من واجبك أن لا تشمت فيه أو تستهزىء به أو تسخر منه.. بل على العكس من ذلك فإن واجبك أن تواسيه وتعطف عليه وتعينه على تحمل بلائه والصبر على محنته وتحمد الله الذي عافاك و: (من عوفي فليحمد الله)...

وكذلك من يصاب بتشوهات في أخلاقه وسلوكه..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وطباعه . . فهو أحوج ما يكون إلى العطف . . لأنه مشوه من الداخل . . ولأن التشوهات التي يعاني منها تشوهات مركبة . . فهو يجهل أنه مشوه . . ويرفض أن يعترف بحقيقة وضعه . . ويكره أن يطلع الناس على عيوبه . . فضلاً عن أن يجابهوه بها . . ومن هنا جاءت الحكمة في الصبر عليهم واستيعابهم . . وإعانتهم على أنفسهم لأنهم مرضى من الداخل . . .

ولأنهم مرضى ويجهلون أنهم مرضى .

وجاء نبل التوجيه الإسلامي الكريم : ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ .

فأنت إذا تستوعب عداوته . . وتمتص حقده . . وتذيب عقده . . حتى يتحول من نفس شريرة عاتية . . عادية . . إلى الطرف الآخر . . فيكون ﴿كأنه ولي حميم﴾ .

ومن هنا جاءت أهمية النظرة إلى هؤلاء على أنهم مرضى . . . وان من واجب من عافاهم الله أن يقدروا ظروف هؤلاء . . . ويعينوهم على أنفسهم وأن يعذروهم كما قال الشاعر :

والذي نفسه بغير جمال
لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

والذي نفسه بغير كمال . .
والذي نفسه بغير غناء . .

والذي نفسه . . . . . .

وهكذا تبين لك الحقيقة وتدرك أن :

الذي يحسدك . .
والذي يكرهك . .
والذي . . . . . .

هو إنسان مشوه من الداخل . . ومريض . . فلا ترجو منه ما ليس عنده . . ففاقد الشيء لا يعطيه . . وهذا هو كل ما في إنائه . . وكل إناء بما فيه ينضح .

ولكن احمد الله . . ومن عوفي فليحمد الله . . واللهم . . اللهم احفظنا . . وعلمنا حتى نعلم أنه لن يضرنا إلا ما كتبت لنا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ظلمات السجن ومتاهاتها

سبحان من حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، يا عبادي فلا تظالموا».

ونبهنا الله عز وجل إلى كوارث الظلم وأن آثاره وعواقبه قد لا تقف عند الظالم نفسه بل قد تتعداه إلى عقبه وعقب عقبه فتلحق عقبه بأولاده وحفدته وهكذا يعلمنا الله عز وجل حيث يقول: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾.

وجاءت تعاليم رسول الله ﷺ نبراساً يضيء الطريق وينبه إلى خطورة الظلم وبلاياه فجعل الظلم ظلمات يوم القيامة، وحذرنا من دعوة المظلوم وأنه ليس بينها وبين الله حجاب، وكم رأينا بأعيننا رجالاً ظلموا، وقسوا، وظنوا أنهم بمأمن، وأنهم أقوياء بظلمهم وأنهم قد أفلتوا من عقوبة الله فسلط الله عليهم في آخر حياتهم من يقسو عليهم ويذيقهم مرارة الظلم،

بل رأينا من لحق الظلم بأولادهم لأنهم ظلموا أولاد الناس وبأهلهم لأنهم ظلموا أهل الناس وما ظالم إلا سيبلى بأظلم منه.

والعقلاء من الناس من يدركون تماماً مخاطر ومتاهات الظلم ويبتعدون عنه وإذا كان الله عز وجل لا يقبل الظلم لأي مخلوق على وجه البسيطة حتى إنه عذب امرأة ظلمت قطة فلم تطعمها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، فكيف بالإنسان الذي يظلم أخاه الإنسان وقد كرمه الله حتى إنه خلقه على صورته.

فويل للذين يتساهلون في مظالم الناس، ويساهمون في ظلمهم، ولقد علمنا دائماً أنه من أعان ظالماً سلط عليه.

وقبل أن نسترسل في الموضوع لا بد أن نوضح حقيقة هامة وهي أن الذي يسبب الألم والمعاناة عند المظلوم إنما ذلك الشعور بالظلم والإحساس بوطأته وهو ما يسبب كل أنواع العذاب وأشكاله وأنماطه عند المظلوم تلك هي الحقيقة التي لمسها كل من يشعر بوقوع ظلم عليه، أو غبن ضده، وتلك الحقيقة يدركها كل من عانى من طغيان الظالم واضطهاده وجبروته وقسوته، كما إنها الحقيقة التي لا يدركها إلا كل من مر بمثل هذه التجربة القاسية والمريرة ودخل في دوامتها وعنفوان نتائجها وانعكست عليه وعلى نفسياته وسلوكياته وعلى صحته وأسرته والمقربين له من أهل أو خلان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والظلم ليس أنواعاً وإنما هو يختلف باختلاف مسبباته ومنشآته وأقسى أنواع الظلم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.. ذلك أن الإنسان يخرج بنفسه عن إطار الإنسانية وأخلاقياتها ويخرج المظلوم من دائرة الإيمان بعدالة الحياة إلى دائرة الحرمان.. الحرمان من الهدوء النفسي والحياة غير المضطربة والتوازن السلوكي والانفعالي، وتصبح الحياة في نظر المظلوم معتمة كئيبة لا يرى فيها إلا صورة الوحش الذي مارس الظلم ضده، ويطارده في نومه وصحوه وفي سيره وفي سكونه، كما يراه في أحاديثه مع الآخرين، إنه ببساطة يحيا حياة معقدة يغلب عليها طابع الكآبة ويتخذ الهذيان والهمهمات وتحديث النفس بالأمور السيئة وبالتوقعات التي هي أسوأ.

وظلم الإنسان لأخيه الإنسان هي لحظة ينعدم فيها الضمير والأخلاق وتغيب فيها كل مبادىء الإنسانية إنها لحظة ينسى فيها الظالم أنه إنسان وأنه مهما علا ليس إلا فرداً محكوماً بمن هو أقوى وأكبر، وأعلى همة ومقاماً، وأنه في النهاية مرده إلى الله سبحانه وتعالى.

كما أن الظالم في لحظة ظلمه لأخيه الإنسان يتصور أن الأيام ليست دواليك بين الناس وأنه أقوى من دوران الأيام وتتابعها، والحقيقة التي تخفى عن ذهنه في لحظة ارتكابه للإثم بالظلم هي أنه معرض لانتقام الله ومعرض للقصاص من جانبه سبحانه وتعالى والله لا يحب الظلم ولا الظالمين، وأنه

وعد بالانتقام من الظالمين حتى إنه سيقتص من الشاة القرناء للشاة القضباء.

هذه هي عدالة الله جل وعلا، وهذه أحكامه وهذه قدرته، وإذا كان جل جلاله يمد للظالم في ظلمه كما يمد للطاغي في أسباب طغيانه فقد فتح أبواب السماء أمام دعوة المظلوم، وجعلها مستجابة، والله كفيل بعباده، عليم بهم لا تأخذه سنة ولا نوم وحسبنا في هذا المجال أن نذكر قول الله تبارك وتعالى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**.. وفي الحديث النبوي الشريف أكثر من إشارة إلى عواقب الظلم الوخيمة، وأكثر من تحذير للابتعاد عنه. فقال عليه الصلاة والسلام: «الظلم ظلمات يوم القيامة» وقال كذلك: «اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب».

ولكن لماذا يظلم الإنسان أخاه الإنسان؟

يظلم الإنسان أخاه الإنسان لنفاق يمارسه تجاه من هو أكبر وأعلى مقاماً، ويظلمه لإحساسه بأنه الأقوى، وبأنه صاحب سلطة، أو صاحب جاه، فالرجل يظلم زوجته، أو إحدى زوجاته لأنه لا يعلم ولا يدرك أن أفضليته في الدرجة بما ينفق، ولا يفهم أن العدل مطلوب في المعاملة مع الزوجة، وبين الزوجات. والزوجة تظلم زوجها بسوء المعاملة لأنها لا تفهم ولا تقدر الحق الواجب عليها في طاعة الزوج، وأنها لو أمرت أن تسجد لغير الله لأمرت بالسجود لزوجها، الرجل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يظلم أبناءه لأنه لا يحسن فهم العلاقة الواجبة وطبيعة المعاملة الحسنة، وفقاً لما ارتضاه الله ورسوله، والرئيس يظلم مرؤوسيه، لأنه فاقد لعدالة الأمور وسماحة الأسلوب في الإدارة وغيرها. والأخ يظلم شقيقه لأنه غير مدرك لكيفية النصح والإرشاد، والابن يظلم أبويه أو أحدهما لأنه عاق وفي كل الأمور فإن الظلم النقيض الأول للعدل وقد نهى عن الظلم أيّاً كانت طبيعته، وأياً كانت درجته ومستواه لأن الظلم خروج عن مبادىء الحق والفضيلة، وبه تنهار أسباب الحياة ويتحلل كيان المجتمع.

ولا شك أن مثل هذه الأمور تلقي مسؤولية عظيمة على العاملين في قطاع الأمن.. والمسؤولين عامة الذين ينفذون أوامر ولي الأمر بأن يتأكدوا من كل عمل يقومون به ويتّقوا الله عز وجل.. ويراقبوهُ في السراء والضراء.. لأنهم في كثير من الأحيان يكونون هم الخصم والحكم في آن واحد.. وولي الأمر قد وضع الأمانة التنفيذية في أيديهم.. ولهذا فمن واجبهم مراقبة الله عز وجل.. والتحسب لكل خطوة حتى لا يقع ظلم على بريء.. ولا يهدر حق.. وفي هذا يكون المكسب الأول لهم لأن عدل ساعة كما قيل يعدل قيام ليلة..

وهنيئاً.. هنيئاً.. لأولئك الذين يؤدون الأمانة على خير وجه، ويعطون الوظيفة حقها، ويرعون الذمم، ويتقون الله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ﴿والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

عندما تتقاعد المرأة

بعض النسوة يتقاعدن في سن مبكرة جداً..
تتخلى عن أنوثتها..
وتتنكر لطبيعتها..
وتعيش على هامش الحياة..
وكل هذا بيدها..

لأنها تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتحيل نفسها على التقاعد، وفي سن مبكرة، لمجرد أنها كسولة، أو مسترجلة، قصيرة النظرة، قاصرة التفكير تظن أن لها بيتاً، وليس لها بيت، وأن لها أبناء، وليس لها أبناء، وأن لها مستقبلاً، وليس لها ماضٍ حتى يكون لها حاضر أو مستقبل...

لأن التي تريد أن يكون لها بيت، من واجبها أن ترعاه، وتشرف عليه، وتدير شؤونه، وإلا فلا بيت لها..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن تريد أن يكون لها أبناء، فإن عليها أن تربيهم وترعاهم، وتلتصق بهم، حتى يستشعرون حنان الأمومة، لأن الأبناء لا ينشؤون بطريقة عفوية، مثل النباتات الشيطانية...

من أرادت أن يكون لها أبناء، فعليها أن تربيهم، وتكون لهم أماً حقيقية، وعندها فقط يكونون أبناءها..

والمرأة التي تتخلى عن وظيفتها، تحيل نفسها على التقاعد...

وأبادر فأقول إنّ التقاعد المقصود هنا ليس أن تحال المرأة إلى المعاش فتقبع في ركن من أركان الدار تجتر أحداث حياتها طالت هذه الحياة أم قصرت، ولكن المقصود هنا هو تجرد المرأة من وظيفتها الأنثوية كزوجة ورسالتها التربوية كأم وواجباتها البيتية كربة للدار، وانشغالها بأمور أخرى لا علاقة لها بتكوينها الخاص وما هيأها له الخالق المبدع سبحانه وتعالى من مهام في هذه الدنيا...

ودور المرأة في الحياة الإنسانية كبير وخطير - فهي النوع الثاني للجنس البشري - الذي بدأ بخلق الرجل - النوع الأول - وإذا كان الرجل قد خلق من طين من حمأ مسنون، فإن المرأة خلقت من نفس الرجل - أي أن النوعين صدرا عن أصل واحد - قال تعالى في مفتتح سورة النساء: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث**

منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾..

ورغم اتحاد الأصل، فقد جعل الخالق سبحانه لكل من المخلوقين سماته الخاصة وجعل له رسالته الخاصة، وإذا كان الجنس يجمع بين الرجل والمرأة بخصائصه وصفاته ومتطلباته، فإن النوع يضيق بينهما بخصائصه وصفاته ومتطلباته - ولا يمكن الخلط بين هذه الخصائص بحال من الأحوال - كما إنه لا يمكن المزج بين الصفات أو تبادل المتطلبات.

قال تعالى: **﴿والليل إذا يغشى... والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى.. إن سعيكم لشتى﴾**.

قال تعالى في سورة الروم (٢١): **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**.

وهذا هو الواجب الأول من واجبات الوظيفة التي جُعلت للمرأة في الحياة.. إنّها سكن الرجل الذي يلجأ إليه فيهدأ ويطمئن ويستريح ويجد الرحمة والمودة والألفة والحب.

وقال تعالى في سورة النحل (٧٢): **﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾**.

وهذا هو الواجب الثاني من واجبات وظيفة المرأة فهي التي تحمل الإنسان جنيناً فتغذيه بدمائها حتى إذا اكتمل وحان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقت ولادته عانت أشد الآلام واحتملت وصبرت حتى يخرج إلى الحياة بسلام: وهي التي ترضعه بلبنها وتغذيه بحنانها رضيعاً ثم ترعاه وتقوم على تربيته وإعداده ليكون شاباً سوياً سليم الجسم والعقل أو فتاة سوية سليمة الجسم والعقل.

ويأتي بعد ذلك الواجب الثالث من وظيفة المرأة في الحياة وهو القيام على البيت وتدبير شؤونه ورعاية مصالحه وتهيئته لإقامة الزوج والأبناء.

هذه الوظيفة بواجباتها الثلاثة وظيفة كريمة سامية فيها شرف ونبل وكرامة وتضحية وبذل وعطاء، والمرأة العادلة السوية تؤديها بسعادة ما بعدها سعادة.. وتنتقل بين الواجبات الثلاثة في مراحلها المختلفة بسهولة ويسر ورغبة صادقة مخلصة في العمل وتأدية ما وكل إليها ـ زوجة ـ وأما ـ وربة بيت دون أن تفكر في التمرد على وظيفتها أو التنكر لواجباتها أو التخلي عنها أو أن تستبدل بها وظيفة أخرى مهما كانت تلك الوظيفة الأخرى.

والمشاهد في مجتمعاتنا أن البعض من النساء يتقاعد في سن مبكرة والبعض الآخر يتقاعد في سن متقدمة والبعض الثالث يظل مصراً على تأدية وظيفته حتى بعد سن اليأس.. وقد تكون الواحدة منهن تدب على عصا أو تتوكأ عليها ومع ذلك ترفض التقاعد بكل أشكاله وترفض أن تتخلى عن

مسؤولياتها وعن كيانها كأنثى.. كأم.. كربة بيت..

فكيف يحدث هذا؟

وكيف تحال امرأة أخرى إلى التقاعد في سن مبكرة؟

ومن الذي يحيل المرأة إلى التقاعد؟

عندما يختل أداء المرأة لوظيفتها يبدأ العدّ التنازلي للتقاعد وعندئذ تتقاعد المرأة طواعية ـ أو تتقاعد مرغمة ـ أو تتقاعد عرفاً..

وهنا أجدني أتساءل مرة أخرى:

كيف يتم ذلك؟

امرأة في عمر الورود تحال إلى التقاعد.. لماذا؟

لقد فشلت في فهم طبيعتها كأنثى وفهم وظيفتها كزوجة، وفشلت في أداء رسالتها كأم وربة بيت وآثرت أن تحقق رغباتها الشخصية وأنانيتها على حساب كل ذلك.. لقد استبدلت الزوج والأبناء والبيت براحة غير ضرورية وسعادة وهمية.. وعبث غير مجدٍ.. ومن الطبيعي أن يضيق الزوج بها وأن يشقى الأولاد وأن يتغير كل شيء من حولها.. فتصبح كمّاً مهملاً.. أو شيئاً ثانوياً هامشياً لا قيمة له.. أو تتحول إلى طاقة مزعجة في حياة الأسرة.

وهنا يبرز دور الخادمة والمربية والطاهي ليقوموا بوظائفها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأساسية ـ وقد لا تشعر هي إلا بعد فوات الأوان أن العدّ التنازلي قد بدأ لإحالتها إلى التقاعد.

ولست ممن يعترضون على وجود خادمة أو مربية أو طاه في البيت ـ إن كان أهله في سعة من الرزق فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ـ ولكن القضية هي أن وجود هؤلاء لا يمكن أن يعوِّض دور المرأة في البيت ـ فمع وجود المربية تبقى الأم هي المسؤولة الأولى عن تربية الأبناء ـ والمرأة التي تتخلى عن دورها التربوي تحيل نفسها إلى التقاعد في سن مبكرة.

ومع وجود الخادمة تبقى المرأة المسؤولة الأولى عن البيت والإشراف عليه ولا يمكن أن تقوم الخادمة مقامها بأي حال من الأحوال ـ والمرأة التي تسمح للخادمة أن تقوم بواجبها تحيل نفسها إلى التقاعد في سن مبكرة وكذلك الأمر مع الطاهي.

وللمرأة في حياة الأسرة دور أساسي يجب أن تحافظ عليه بكل ما أوتيت من قوة.. والمنزل لا بد أن يحمل بصمات سيدته.. سماتها الشخصية في كل ناحية من نواحيه ـ وكل سيدة تقبل المساومة على دورها تحيل نفسها على التقاعد المبكر..

والرجال ـ كل الرجال ـ يكرهون التعامل مع الخادمة في شؤون البيت ـ وإن تظاهروا بالقبول على مضض ـ كما يكرهون أن يروا أبناءهم تتقاذفهم أيدي المربيات من كل جنس ولون

ودين، ولا يوجد رجل يحب أن تنصرف زوجته عن العناية بمطبخها لتصبح مائدته خالية من نكهة المرأة التي اختارها زوجة له وشريكة حياة. وهكذا تُضَيِّع المرأة دورها في الشركة الزوجية وتخل بتوازن المنزل وتحيل نفسها إلى التقاعد المبكر.

تبقى في البيت.
واسمها ربة البيت.
والسيدة الأولى.
وشريكة الحياة.
وأم الأولاد.

وبعد كل هذا كلمة (سابقاً) فقد أحيلت إلى التقاعد دون أن تشعر بذلك ـ ودون أن يجرؤ الزوج على أن يكتب أمام تلك العبارات كلمة «سابقاً» فتكون في البيت بعقد أساسي وشخصية صورية وتتربع الخادمات والمربيات على عرش المنزل ويصبحن الحاكمات الفعليات له ولكن بصورة غير معلنة وإن كانت محسوسة من الجميع.

ومن النساء من تبدأ حياتها مكافحة مثالية تشرف على كل شاردة وواردة في بيتها.. وترعى أبناءها بعناية فائقة ولكنها تفقد حماسها بمرور الزمن ولا يلبث الضعف والوهن أن يدركاها فتبدأ تتخلى عن وظيفتها وتهمل واجباتها وبالتالي يبدأ العدّ التنازلي ـ ولا مانع هنا أن تأتي المرأة بمن يساعدها إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت موسرة أو أن تعتمد على بناتها إن كن قد كبرن وأصبحن على مستوى المسؤولية.. والبعض من النساء يخطئن هنا إذ يعفين أنفسهن من واجبات وظيفتهن لأنهن يتحولن إلى نساء شرسات لا هم لهن إلا التذمر والشكوى والتأفف من كل شيء.. ولا علاج لهؤلاء إلا أن يستدركن ما فاتهن ويعدن إلى القيام بواجباتهن كزوجات وأمهات وربات بيوت تشع منهن العطف والحنان والحب على جميع أفراد الأسرة وتغمرهم برعايتها وتسعدهم بعنايتها بدلاً من أن تستسلم لظروف التقاعد وما تفرضه من أمور بغيضة..

وهناك صنف آخر من النساء تظل الواحدة منه مصممة على أداء وظيفتها متشبثة بمركزها واعية لأبعاد مسؤوليتها حتى في سن متأخرة ـ وهي تسعى للتأقلم بصفة دائمة مع كل ظرف يجدّ على حياتها.. وهي تعطي كل ذي حق حقه ـ فالزوج له لحظات يسعد فيها حتى في أحلك الساعات وهي تلقاه باسمة الثغر مشرقة الوجه دائماً ـ وكل ابن من الأبناء له في قلبها زاويته الخاصة ـ والبيت له اهتمامها أيضاً.. إنها تدير شؤونه بوعي وحكمة تجعل الزوج يزداد إعجاباً بها يوماً بعد يوم ويروح يراقبها أثناء عملها ويتغزل في حبات الشيب التي تناثرت في رأسها والتي جعلته أكثر حباً لها واعتزازاً بها.

حتى آلامها تختار الوقت المناسب لتبثّها في كلمات بسيطة عذبة ـ وإذا أوت إلى فراشها في هذه السن فإن الزوج لا يرى

منها إلا ما يثلج صدره ويسعده.

هذه المرأة تقهر السنين ولا تقهرها السنون.

تقهر المرض ولا يقهرها المرض.

تهزم الشيخوخة ولا تهزمها الشيخوخة.

إنها امرأة ترتفع فوق المتاعب والآلام والمشكلات وتنتشل زوجها وأبناءها في أحلك الظروف لتبث بين جوانحهم السعادة والهناءة والطمأنينة ـ وحتى وهي جالسة في ركن من أركان المنزل تحيط الجميع بعطفها وحنانها وكلماتها الرقيقة ودعواتها المخلصة.

فهل تتقاعد مثل هذه المرأة؟ أحسب أنها ستظل خالدة في بيتها وفي قلوب أفراد أسرتها حتى بعد رحيلها.

بقيت كلمة أو بالأصح كلمتان أحب أن أضيفهما هنا:

الأولى: هي أنني بحديثي هذا لا أقصد الأرامل ولا المطلقات فهذا قضاء الله بالنسبة لهن وليس لأحد أن يحاسب امرأة أراد لها الله الترمل أو الطلاق أبغض الحلال فتلك قضية أخرى.. وكم من سيدات فاضلات ترملن في سن مبكرة وبقين حريصات على تربية أبنائهن، ويصدق فيهن قول رسول الله ﷺ:

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا وامرأة** سفعاء **الخدين**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كهاتين يوم القيامة» وأومأ بيده الوسطى والسبابة (امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا)..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أني أرى امرأة تبادرني فأقول لها: مالك ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي»...

والثانية: إن المرأة قد تطلق في عز شبابها لظروف خارجة عن إرادتها من حماقة زوج أو ظلم أهل أو وشاية حاقد أو غير ذلك، دون أن يكون لها ذنب ولا جريرة، وأنا لا أتحدث عن هذه أيضاً.. وإنما أتحدث عن سيدات في المنازل ولسن سيدات منازل.. متزوجات ولسن بمتزوجات.. أنجبن ولكن لسن بأمهات.. وأحسب أنها حقيقة واضحة أننا جميعاً نؤيد عمل المرأة متى وجدت نفسها مضطرة إلى ذلك لتعول نفسها أو تنفق على أبنائها أو حتى تساهم مع زوجها في تكاليف الحياة، فلسنا ضد عمل المرأة، ولكننا نرى أن يكون عملاً يتفق مع طبيعتها ولا يتعارض مع دينها وتكوينها ومسؤوليتها الأساسية في الحياة..

نظرات في عمل المرأة

(١)

لا بد من نظرة جادة نحو عمل المرأة في بلادنا تعيد لها توازنها.. وتحافظ عليها وتضمن سلامة مسيرتها وترضي طموحها وتصونها تماماً مثل تلك النظرة الجادة نحو تعليمها والتي حولت مسيرة المرأة تحولاً جذرياً وأثرت في حياتها.. حتى أصبحنا نحصد ثمار تلك الخطوة الجادة.. والتي تهيَّب منها الكثيرون.. وأشفق عليها الكثيرون أيضاً.. ولكن الله سلَّم لأن:

النية كانت مخلصة..

والخطوة كانت جادة.

والمنهج كان سليماً... وواضحاً...

ولأن كل شيء تم بطريقة صحيحة.. صحيَّة.. وفي إطاره السليم.. وفي الضوء. ولم يكن في الظلام..

والحمد لله على ما تم ولكن هذه الآلاف التي تتخرج إلى أين؟؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى أين تسير؟؟
ما هي المحصلة؟؟
ومن لم تتزوج ماذا تعمل؟؟
ومن فاتها قطار الزواج ماذا تعمل؟؟
والتي ترملت والتي تيتمت؟؟ . .
والتي هي بحاجة صادقة للعمل؟؟

والتي في إمكانها أن تعمل عملاً شريفاً لتكسب رزقها بعرق جبينها . . .

ماذا تعمل؟؟
وهل يمكن أن يعملن جميعاً كمدرسات؟؟
وهل يصلحن كمدرسات؟؟

ولماذا لا نخطو خطوة جادة نحو تنظيم عمل المرأة . .
حتى نحقق التوازن المطلوب . . .

ونسير نحو أهدافنا بطرق سليمة وصحيحة . . وحتى تثق فينا المرأة . . ولا تنفر منا . . وحتى لا نترك الفرصة للذين يريدون أن يصطادوا في الماء العكر . . أن يدغدغوا عواطف المرأة . . ويوهموها أنهم في صفها . . لمجرد التلويح بشعارات قد لا تعني أكثر من ترك المنزل . ومن التبرج . ومن مزاحمة الرجال في العمل . . كل هذا وأكثر منه من الممكن أن يحدث إذا نحن أهملنا . . أو تقاعسنا . . وخير ألف مرة أن نقدم

الحلول الصحيحة من أن ننتظر أن تفرض علينا أمورٌ قد لا تكون في مصلحة الأمة ولا المجتمع . . ولا حتى المرأة نفسها . .

ولتكون الحلول بأيدينا لا بيد عمرو . .

فلا بد إذاً من التحرك . . وأن نعطيها ما أعطاها الله . . ونكرمها كما أكرمها الله عز وجل . . وأن نقدرها كما قدرها رسول الله ﷺ وصحبه والتابعون . . ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا . .

ولا بد أن نرفع من قدرها . . ونكف عن تلك النظرة الدونية التي ينظر بها البعض إلى المرأة المسلمة . . ونعاملها كإنسانة مسلمة لها حقوقها ولها كيانها المستقل . . وعلينا أن نعمل بهمة وجدية وصدق وواقعية وإيمان بأبعاد وخطورة الدور الذي يجب أن تضطلع به المرأة في سبيل خدمة بلادها وأمتها . . وصون كرامتها وكسب رزقها بعرق جبينها . . في إطار من الشريعة السمحاء .

فهناك آلاف من بناتنا يتخرجن في كل عام من الجامعات . . ومئات الألوف ينخرطن في مراحل التعليم المختلفة . . وتمتلىء المنازل بهذه البراعم التي تشكل نصف المجتمع . .

ولكن يبقى السؤال المهم دائماً . .
ماذا عملنا لهؤلاء البنات؟؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإلى أي مدى خططنا لاستيعابهن بطريقة صحيحة تحقق الهدف الأسمى الذي نسعى إليه جميعاً من وضع المرأة في المكان الصحيح . . . والاستفادة منها بطريقة صحيحة . . وإعطائها حقها كاملاً في الحياة الكريمة . . وإعطائها الفرصة الصحيحة . . والصحيحة لخدمة بلادها وأمتها . .

وعلى أساس أن نعطيها ما أعطاها الله . . ومن منطلق أن المجتمع يتكون من ذكر وأنثى . . وأن لكل فئة حقها . . ولكل فئة دورها . . وعلى اعتبار أنهن شقائق الرجال . . وأن من الواجب أن نلتفت لقضايا هذا الشق الهام من المجتمع الذي بدونه لا تكتمل الصورة المثلى . . ولا تتحقق أهداف المجتمع العليا لأنهن نصف المجتمع .

ولا بد أن ننطلق من نفس المنطلق الذي ضرب الله لنا به الأمثال: ﴿والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾ . .

هكذا يوضح لنا الله عز وجل أن للمرأة في المجتمع دوراً يجب أن تؤديه وألا تزاحم فيه . . وأن تنفرد به . . وكما إنّ للرجل وظيفة . . فإن للمرأة وظيفة . . وإن القضية واضحة وضوح الشمس في كبد النهار . . فكما لليل وظيفة . . وللنهار وظيفة . . ويجب أن لا يطغى ولا يستأثر أحدهما بعمل الآخر . . ولا يظلمه ولا يحقره . . ولا يهضمه من حقوقه شيئاً لأنهن شقائق الرجال .

ويروي لنا التاريخ أن النبي ﷺ أخذ من النساء البيعة على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين رسول الله ﷺ في معروف .

وقد كانت هذه البيعة في يوم فتح مكة المكرمة، ثم أخذ البيعة من الرجال على مثل ما أخذ من بيعة النساء . .

وفي بعض الأحيان وفي أكثر من موطن نرى أن الله سبحانه وتعالى قد ائتمن المرأة على ما لم يأتمن عليه الرجل . . . ووصى بها أكثر مما وصى به .

وهذا رسول الله ﷺ يعلمنا عندما جاء الرجل يسأله:

«من أحق الناس بصحبتي يا رسول الله . .

قال: أمك . .

قال: ثم من؟

قال: أمك . .

قال: ثم من؟

قال: أمك . .

قال: ثم من؟

قال: أبوك» .

هكذا كرم الله المرأة الإنسان في هذه الصورة . . وأعطاها فوق حق الرجل في هذه المزية المتفردة . . ثم إنه ﷺ قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للرجل الذي يسأل عن الجهاد:

«هل أمك حية؟؟

قال: نعم...

قال: الزم رجلها[1] فثم الجنة».

وفي أكثر من موطن كرم الإسلام المرأة وأعطانا المثل لكيفية معاملتها ففي فتح مكة نحب أن نلاحظ ظاهرة جديرة بالتأمل وهي تدل على مدى احترام الإسلام للمرأة وتقديره لها: تلك الظاهرة هي أن المرأة كانت تجير.. ويمضي الرسول ﷺ جوارها.

فقد استجار بأم هانىء رجل من أحمائها، فأجارته.. فجاء علي كرم الله وجهه يريد قتله، فمنعته منه، وحاكمته إلى رسول الله ﷺ، قائلة له: زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان بن هبيرة.

فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء فالرسول ﷺ لا يسمح لعلي كرم الله وجهه أن يعتدي على حق تلك المرأة المجادلة، ويكرم الرجل المشرك من أجل امرأة مسلمة، ويمضي جوارها شأنها في ذلك شأن أي مجاهد يجير فتحترم كلمته.

وحين هاجر المسلمون بإيمانهم إلى الحبشة، كان عددهم نيفاً وثمانين، بينهم ثماني عشرة امرأة.

(١) روي «رجلها» ابن ماجة كتاب الجهاد.

وفي أكثر من صورة نرى كيف رفع الإسلام شأن المرأة وكرمها واحترم رأيها وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول وجمعها وإياه في خطاب واحد: ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ وكيف قرر رأيها وجعله تشريعاً عاماً وخالداً، لتعلم أن آيات الظهار وأحكامه في الشريعة الإسلامية وفي القرآن الكريم وأن سورة المجادلة لم تكن إلا أثراً من آثار الفكر النسائي وصفحة إلهية خالدة تلمح فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام لرأي المرأة.

وعندما اعترضت امرأة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب على المنبر وكان يحث الناس على الاقتصاد في المهور فقالت له: ليس ذلك إليك يا عمر.. إن الله تعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ فأعلن على منبره صواب رأي المرأة. وقال أصابت امرأة، وأخطأ عمر.

ولما أحست النساء المسلمات أن الرجال غلبوهن عند رسول الله ﷺ على المعرفة ومجالس التعليم والموعظة، فلم يطقن صبراً على تحمل هذا الحرمان، ولم يرضين بهذه الغلبة، فذهبت إحداهن إليه، وقالت له يا رسول الله: ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله. فاستجاب لذلك، وقال لها: اجتمعن يوم كذا، وكذا في موضع كذا.

وكره الإسلام أي ظلم للمرأة تماماً.. كما كره لأي مخلوق من مخلوقات الله...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستنكر أي احتقار لها.. وجعلها دائماً مكرمة معززة.. وجعلها خير متاع الدنيا بأسرها: «خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة.. إذا نظرت إليها سرتك.. وإذا غبت عنها حفظتك».

وقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نعامل هذه الإنسانة الرقيقة.. وهذا المخلوق.. فكان يعامل نساءه ونساء المسلمين بكل احترام. وبكل اعتزاز.

وهذا موقفه ﷺ من أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فقد كان ﷺ يمزح مع نسائه، فأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت مولعة باللعب مع أترابها بالدمى، فكان عليه أفضل الصلاة والسلام يعمل على أن يرسل إليها أترابها ليشاطرنها اللعب، وكان يسابقها في العدو، فسبقته يوماً، وسبقها في بعض الأيام، فقال لها: هذه بتلك.

ولقد قامت المرأة بأدوار مشرفة في صدر الإسلام.. وفيما بعد ذلك، وعملت بشرف واحترام.. وساهمت حتى في القتال: ففي موقعة أحد قامت المرأة بدورها الطبيعي من سقاية الماء وتضميد الجروح وخدمة المحاربين ويسجل التاريخ في هذه الموقعة مواقف لأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية تفوق مواقف كثيرين من صناديد الرجال، حتى قال ﷺ لابنها: ولمقام امك خير من مقام فلان وفلان.. وتروي عنها أم سعد بن سعد بن

الربيع أنها قالت: خرجت يوم أحد ومعي سقاء فيه ماء، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فكنت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إلي.

ومن المعروف أن المرأة المسلمة أسهمت في بدء الدعوة الإسلامية بقسط وافر من التضحية والفداء، كما فعلت أخت عمر بن الخطاب وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها؛ وغيرهما.

وكما نعلم أن النساء في حياة الرسول ﷺ كن يحضرن خطبة العيد، ودروس وعظ النبي ﷺ، منفصلات عن الرجال.

وفي كل المراحل علمنا الإسلام الحنيف أن نتعامل مع المرأة ككائن إنساني محترم وميزها بأدوار متفردة.. بل وألقى على الرجل مسؤولية رعايتها بشرط ألا ينقص من حقها شيئاً... ولا ينازع أي عاقل بفقه أحكام الإسلام في أن عقود المرأة وتصرفاتها التجارية هي تصرفات صحيحة منعقدة لا تتوقف على إجازة أحد من ولي أو زوج.. وأن لها ذمتها وحقوقها المستقلة حتى وهي ما تزال فتاة في بيت أبيها.. وعند أهلها.. حيث أوضح لنا الإسلام أن لها الحرية الكاملة في اختيار رفيق حياتها: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى تستأذن، قالوا يا رسول الله وكيف إذنها؟.. قال: أن تسكت».

(إن البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها في أقل شيء من ملكها إلا برضاها ولا يجبرها على إخراج اليسير منه إلا بإذنها.. فكيف يجوز أن يخرج نفسها منها بغير رضاها.. ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لا تختار) (ابن القيم).

ومن ناحية أخرى لم يمنعها الإسلام من العمل الشريف إذا لم تجد من يعولها من أب أو زوج أو قريب ولم يقم بيت المال بواجبه نحوها. وأن من حقها أن تعمل لكسب رزقها بعرق جبينها في إطار المنهج السامي: ﴿**والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثى، إن سعيكم لشتى**﴾ فهي تملك كل هذه الحقوق التي حرمت منها في كثير من الشرائع الأخرى.. وكرمها الإسلام وحفظ لها اسمها لا يتغير ولا يتبدل بزواج أو طلاق بل تظل شخصية مكرمة مستقلة محترمة، إذا دعيت فإنما تدعى لأبيها.. وإذا نسبت فإنما تنسب لأهلها..

فالإسلام إذاً يركز على أن الله عز وجل لا يضيع عمل أي عامل ذكراً كان أم أنثى: ﴿**أني لا أضيع عمل عامل**

منكم من ذكر أو أنثى﴾.

وخلاصة الأمر أن التعامل يكون دائماً بالمعروف والحسنى حيث يلاحظ أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن معاملة المرأة سواء في حالي الغضب والرضى أو في حالي الجفاء أو الحب وفي حالي الزواج أو الطلاق إلا ويصحبها التوكيد بعد التوكيد بوجوب المعروف والحسنى، وإنكار الإساءة والإيذاء.

والأساس الذي تبنى عليه هذه المعاملات أهم في الدلالة على روح التشريع الإسلامي من الأحكام والنصوص فهو أساس قوامه الإعتراف بالحق، لأنه حق، وتقديره ميزان الواجب لمصلحة المرأة، ولمصلحة الأمة، ومصلحة النوع غير منظور فيه إلى قوة الطلب أو قوة الإكراه على قبوله وغير ملحوظ فيه أنه ترويج لدعوة من الدعوات السياسية أو ضرورة من ضرورات الإدارة الحكومية في ظرف من ظروف الحرج والمداراة.

وشعور المعاملة القرآنية هو دستور (المرأة الخالدة) في وظيفتها النوعية، ووظيفتها التي يصلح عليها البيت والمجتمع ما استقام نظام البيت ونظام المجتمع.

هكذا إذاً يعامل الإسلام المرأة.. ويعلمنا كيف نعاملها.. ويوصينا باحترامها..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهل أدينا واجب الله فيها؟؟..

وهل أعطيت المرأة حقوقها في مجتمعنا الإسلامي؟؟..

حقوقها التي أحقها الله وأوجبها..

أم أننا أصبحنا بين مفرط.. ومفرِّط..

قوم يريدون أن يخرجوها إلى الشارع دون أدب ولا خلق.. ويريدون منها أن تزاحم الرجل وتخرج من بيتها لمجرد الخروج ويفرضون عليها الاختلاط في المجتمع ويحرمون الأمة من الرسالة الأساسية للمرأة وهي تربية الجيل.. وترسيخ القيم الخالدة فيه.. ويحولونهن إلى موظفات تحت ستار التحرر.. ولكنه التحرر من الدين والأخلاق والقيم والمبادىء.. ويحرمونها من تلك الميزة التي أعطاها الله لها..

«المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها».

وقوم على النقيض من ذلك يريدون أن تتقوقع المرأة. وأن تنفصل حتى عن عرى دينها لترضي تقاليد المجتمع وعاداته ولتبقى كماً مهملاً لا دور لها تؤديه.. ولا حق لها تستمتع به إلا من خلال نظرات ضيقة هي أبعد ما تكون عن شرع الله وعن العقيدة الإسلامية السمحاء.. وهذا ضرر بالغ.. وإهدار لحقوق هذه الإنسانة التي كرمها الله سبحانه وتعالى...

والعقلاء من الناس يقولون أعطوها ما أعطاها الله.. وسهلوا أمور العمل الشريف لها. ولا تجعلوها عالة تتكفف

الناس دون مبرر لذلك.. ولا تخرجوها إلى الشارع لمجرد الرغبة في التقدم بأي شكل.. فهناك الملايين من النساء الأوروبيات اللاتي ملكن الحياة العصرية وأصابتهن حالات من الملل والتوتر وهن يستيقظن للعمل ومزاحمة الرجال وأهملن بيوتهن وأولادهن. وجاءت صرخات مخلصة تقول لقد مللنا الانتظار لساعات تحت المطر لوصول «الأوتوبيس» المزدحم الذي ينقلهن إلى مكان العمل.. ومللن الجري عند الظهيرة لشراء الطعام وإعداده لباقي الأسرة ثم العودة للعمل مرة أخرى حتى السادسة مساء. مللن الحياة العائلية التي لا يرى فيها الزوج زوجته إلا أثناء تناول الوجبات أو عند النوم، مللن الحياة التي لا تستطيع فيها الأم أن تباشر مسؤوليتها الكبرى في تربية أطفالها فهي لا تراهم إلا للحظات خاطفة تكون خلالها مرهقة الجسم خائرة القوى متوترة الأعصاب.

ويعلن مكتب العمل الدولي في تقرير له تحت عنوان: (أول من يفصلون وآخر من يعينون) كيف تعاني المرأة من التمييز العنصري بينها وبين الرجل.

(تم فصل سبعة ملايين امرأة في ١٨ دولة في أوروبا الغربية وأمريكا وكندا واستراليا واليابان نتيجة الأزمة الاقتصادية التي وقعت في أوروبا العام الماضي.. ويشير هذا التقرير الذي نشرته وكالات الأنباء بتاريخ ٢٢ يناير كانون الثاني ١٩٧٧ م أن هذا العدد يمثل نسبة أربعين في المائة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القوى العاملة في هذه الدول وأن المرأة تواجه التفرقة عند العمل رغم التقدم الحضاري في هذه الدول. فهي أول من يتم فصلها في الأزمات الاقتصادية وآخر من يتم تعيينها في الرخاء»[1].

وفي أيامنا هذه تبرز قضية عمل المرأة وأنها أصبحت قضية حتمية وتلقائية..

ومن الواجب في رأيي أن يعالج هذا الموضوع بصورة جدية وواقعية وأن نتحمل مسؤوليتنا أمام الله عز وجل.. وألا نغمض أعيننا أمام ما يجري في المجتمع.. وأن نتلمس حاجة المرأة للعمل.. وأن نبحث عن الطرق الصحيحة لتشغيلها فما دامت قد تعلمت. وتخرجت.. فمن الواجب أن نعطيها الحق في أن تعمل وتكسب رزقها بعرق جبينها ووفق منهج الله.. وأن نوسع ونفتح أبواباً جديدة للعمل الشريف.. ونخطط لأعمال جديدة للمرأة.. فنحن في زمن يستوجب الاستفادة من المرأة استفادة صحيحة.. وتشغيل طاقتها بصورة تحقق آمالها ومتطلباتها.. وتسد حاجاتها... وتعينها وتعطيها الفرصة على الكسب الطيب والرزق الحلال.

ولا بد من نظرة جادة إلى هذه الآلاف المؤلفة من الأيدي العاملة الأجنبية التي تخطف من أفواه بناتنا لقمة العيش..

(١) عن ملحق الندوة الأسبوعي الخميس ٩ محرم ١٣٩٧ م.

وتحرمهم من فرصة العمل وتحول بينهم وبين الكسب الحلال...

لقد حان الوقت للعمل...

عمل صالح وجاد. ومخلص...

نخطط فيه بصورة أوسع.. لتوظيف طاقات المرأة.. فهناك الآلاف من الوظائف الفنية والطبية وغيرها مما يمكن الاستفادة فيه بطاقات النساء دون حاجة إلى مخالفة الله عز وجل.

ترى.. هل ندرك أبعاد القضية.. وهل نبدأ العمل الجاد ولو بالتفكير الصادق المخلص والتخطيط الواعي: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾.

(١) عن صحيفة الرياض الأحد ١٩٧٧/١/٢٣ م العدد ٣٩٣٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نظرات في عمل المرأة
(٢)

ودعونا نحاول الآن إلقاء الضوء على مجموعة من الخيارات التي تتفق مع واقعنا.. ومع متطلباتنا.. ولكن تبقى القضية الأساسية مرهونة بنظرات جادة.. وخطوات فعالة حتى نضع الأمور في نصابها الصحيح ونتحرك بصورة نؤدي فيها الأمانة ونحقق ما انصبوا إليه جميعاً.. من خير.. ورفعة.. لأبناء هذا الوطن من الجنسين.

ونأتي للسؤال المهم.. ما الذي يمكن أن نفتحه ونتوسع فيه من مجالات عمل المرأة في بلادنا؟؟... بعد كل هذه المكاسب الكبيرة التي تحققت في مجال تعليمها وبعد أن حصلت على نتائج مثمرة في سنوات التنمية التي مرت بنا.

ولقد تحقق والحمد لله الكثير.. وسارت الأمور في إطار من الرؤية والحرص على مصالح الأمة والحفاظ عليها من كل أسباب الإنحراف.. وقد تم كل شيء على ضوء المبادىء

الإسلامية السمحة وفي عناية فائقة بقضايا الأخلاق والقيم الحميدة.. ومع احترام ملحوظ لعادات البلاد وتقاليدها.

ولكن نأتي اليوم إلى ظرف يستوجب التوسع والانطلاق.. وإيجاد فرص وظروف جديدة ومجالات عمل تتفق مع متطلبات الفترة الحاضرة وتؤمن للمرأة أعمالاً شريفة ومستمرة وذات مردود مادي وإجتماعي دون المساس بأي قيد من القيود التي تحكم المسيرة.. كما حكمتها في السابق. ولكن لا بد من توسيع فرص العمل لها.. وتوسيع المجال أمامها وخاصة في مجال التعليم بشتى مراحله.. والاستفادة من المرأة في الوظائف التعليمية والإدارية في المدارس والكليات وغيرها.. كما يمكن التوسع في مجال الطب.. في صور كثيرة لعل أهمها:

١ ـ قبول أعداد أكبر من الطالبات في كلية الطب وخاصة المؤهلات منهن اللاتي يحرمن من دخول كليات الطب مع أنهن متفوقات.

ونحدد «أن الطالب يحصل على ٨٠٪ في الثانوية العامة وتقبله كلية الطب.. وتحصل الطالبة على ٩٧٪ في الثانوية العامة ولا تقبلها كلية الطب.

مسألة تبعث على التساؤل والحيرة.. فالفتاة السعودية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أثبتت تفوقاً علمياً لا شك فيه غير أنه تفوق يصطدم كثيراً بالإمكانيات.. فبالرغم من استقرار المجتمع واتفاقه على المجالات التي تعمل فيها المرأة بما يتمشى مع ظروفنا وتقاليدنا.. فإن المثال السابق يكشف عن عدم تكافؤ الفرص بين الطلاب والطالبات فمقابل كل عشر فرص للطلاب فرصة واحدة للطالبات»[1].

٢ ـ مجال التمريض وهذا المجال واسع ولا بد من عمليات تثقيف وتوعية واسعة لكي نشجع الفتيات على هذا العمل الشريف ويصاحب ذلك عمليات إغراء مادي ومعنوي.. وعلى أن يكون التدريب على درجات ومستويات للتمريض وبذلك تخرج لنا المعاهد أعداداً ضخمة من الممرضات لسد هذا الفراغ الهائل وإيقاف هذا الزحف من شرق آسيا وغيرها.. وإعطاء بناتنا الفرصة لخدمة الوطن.. وتوفير الحياة الكريمة لهن.

٣ ـ وهناك مجالات عمل في المختبرات والمستشفيات ومختبرات الجودة.. وهي أمور ممكن التدرب عليها وبالتالي قيام المرأة بها في غير ما اختلاط أو مخالفة لأنها تستطيع القيام

(١) المعلمات لماذا لا يدرسن الطلاب ـ محمد سعيد طيب ـ عكاظ العدد ٧٥٧٣.

بها.. وهي منفصلة تماماً في مثل عمليات الأرشيف.. والحفظ.. ونحو ذلك.

٤ ـ وهناك مجال الخدمة الاجتماعية بفروعه كافة.. حيث نجد أن المرأة أقدر على البحث الاجتماعي النسائي ومراحل التنمية المختلفة التي مررن بها فتحت مجالات جديدة للعمل الاجتماعي وأبرزت الضرورة الملحة لمثل هذا العمل الذي يمكن أن يستوعب أعداداً كبيرة وتكون له فوائد وإيجابيات عظيمة على الفرد والأسرة والمجتمع..

ولا شك أن المنطلق الأساسي في كل ذلك هو الاستفادة الحقة من هذه الطاقات التي تم إعدادها والتي هي حصيلة جهد ساهم في إعداد المواطنة الصالحة وهيأها لحياتها العائلية وللعمل إذا احتاجت لذلك.. أو دعت إليه الحاجة.. ولكن وفق حاجات المجتمع ومتطلبات البلاد وبشرط أن يتلاءم عملها مع طبيعة حياتها وتكوينها ولا يصرفها إلى الاختلاط ويظل في إطار الشريعة السمحة.

وهذا يدعونا إلى إعادة النظر في التعليم الجامعي وفروعه.. ويجعل عملية إعادة التخطيط للتعليم والتعليم العالي على وجه الخصوص عملية ضرورية حتى لا تسير في خط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يخدم مصلحة الأمة ولا يؤهل المرأة للعمل المناسب وربما يساهم في خلق فائض لا مبرر له ويوجد بطالة نحن في غنى عنها.

«ونظرة واحدة إلى آلاف المتعاقدات حالياً مع شدة الحاجة إلى ترشيد التعليم وتوحيد جهة الإشراف عليه والتخطيط له والحديث عن عمل المرأة ومجالاته يتطلب الحديث عن التعليم والإعداد والتأهيل. والحديث عن التعليم يتطلب ما يلي:

١ ـ تحديد أهداف التعليم للفتاة.

٢ ـ تحديد مجالات عمل المرأة في المجتمع السعودي المسلم.

٣ ـ تحديد الاحتياجات السنوية منهن في كل مجال.

٤ ـ توحيد الإشراف عليه والتخطيط له وفق هذه الأهداف والمجالات لضمان التنفيذ وحسن التوجيه الطلابي وترشيد تعليم الفتاة وأن تهيأ لتكون فتاة واعية وبنتاً مثقفة وزوجة مثالية وأماً مربية، ومدبرة ومواطنة صالحة تسهم في تقدم المجتمع السعودي لمشاركتها بما يخدم بنات جنسها والارتقاء بالبيت السعودي والأسرة المسلمة وبما يحقق الرعاية الكاملة للطفل في محضنه الأول»[1].

---

(١) تقرير مجلس القوى العاملة بتاريخ ١/١١/١٤٠٤ هـ.

ولا بد من نظرة عميقة نحو سياسة عمل المرأة وقوانين عملها والسلم الوظيفي فمثلاً من الممكن أن تدرس عملية إصدار سلم وظيفي خاص بالمرأة وبساعات عمل محدودة وربما بدوام مناسب وساعات أقل.. وقوانين تتناسب مع طبيعتها ودورها ووظيفتها وتتحقق في الوقت نفسه انتاجية فعالة لأن التحدي الحقيقي الذي نواجهه ليس تشغيل المرأة ولا مجرد تحقيق دخل لها.. ولكن التحدي الحقيقي هو أن تكون أهدافنا واضحة.. وخطواتنا صحيحة وأسلوبنا شريفاً.. والغاية التي نسعى إليها بحيث نجنب المرأة أي هزة أو تعثر في حياتها.. ونساعدها عند الحاجة.. وبعد التأهيل الصحيح.. على العمل في وقت تحافظ فيه على حشمتها ووقارها وآدابها الإسلامية الكريمة.. في إطار من قيمنا وتقاليدنا الإسلامية والعربية الأصيلة: «ثم إنه يمكن توسيع مجالات عمل المرأة بما يأتي:

١ ـ التوسع في الخدمات النسائية وزيادة عدد القبول للطالبات وممارسة التعليم بمختلف مراحل التعليم للبنات.

٢ ـ الوظائف الإدارية بمختلف مدارس البنات.

٣ ـ وظائف الطب النسائي لبنات جنسها.

٤ ـ التمريض في أقسام النساء.

٥ ـ التعليم في رياض الأطفال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦ ـ التعليم في دور الحضانة.
٧ ـ التعليم في الكليات والمعاهد العليا للبنات.
٨ ـ الأعمال اليدوية النسائية مثل الطبخ، النسخ، التفصيل والخياطة.
٩ ـ إقامة المشاغل النسائية.
١٠ ـ الإشراف الاجتماعي في المجال النسائي.
١١ ـ تعليم المعوقات.
١٢ ـ الدور الاجتماعية النسائية البحت.
١٣ ـ حفظ القرآن الكريم والعناية بعلومه.
١٤ ـ التوجيه للبنات.
١٥ ـ التفتيش النسائي في المدارس.
١٦ ـ أعمال الإحصاء في مدارس البنات.
١٧ ـ خدمة المجتمع النسائي في كل أوجه نشاطه، في الأمور الصحية، الاجتماعية.. الطفولة.. الأمومة.. الرعاية النسائية.. أعمال المنزل.
١٨ ـ بحث إصدار سلم وظيفي خاص بالمرأة تكون ساعات العمل فيه أقل من عمل الرجل والمرتب بقدر العمل لتقضي بقية الوقت فيما هو منوط بها من الأمور المنزلية.
١٩ ـ تكون إحالتها للتقاعد في سن مبكرة حيث إنها في الغالب إذا تقدم بها السن تكون ربة أولاد متعددين هم

بحاجة إلى رعايتها بجانب شؤونها المنزلية»[1].

وإذاً فما دام الأساس هو تأهيل المرأة لدورها الإنساني الكبير كربة بيت كاملة الأهلية بوعي ومسؤولية وأخلاق سامية لتربي جيلاً مؤمناً داعياً كريماً مشبعاً بالروح الوطنية.. جيلاً يدرك مسؤوليته تجاه جماعة الأمة.. وكرامة المجتمع... وحقوق الوطن.

و «إنه لا شك أبداً أن المرأة المؤهلة حين تؤدي دورها العائلي والمنزلي ثم يبقى لديها متسع من الوقت، فهي ملزمة خلال هذا الوقت المتوفر بالمشاركة في أعمال أخرى خارج بيتها، لا نقول إنّ لها الخيار في هذا بل نقول أنها ملزمة تجاه نفسها، وتجاه مجتمعها وتجاه وطنها بل وتجاه زوجها أيضاً، إذا كان دخله لا يكفي لتوفير العيشة الملائمة قياساً على الوسط الذي يعيشان فيه...

ولا شك أيضاً أن المرأة مثل الرجل تتطلع إلى تحقيق ذاتها عن طريق إبداعاتها، ولها الحق في ذلك شريطة أن تستطيع المواءمة بين واجباتها المنزلية وطموحاتها ولها أن تستعين بمن يساعدها، أما المرأة عالية التأهيل فإن نزولها لميدان العمل أمر ضروري لا جدال فيه وعلى المجتمع أن يساعدها على التغلب على أعبائها المنزلية..

---

(١) تقرير مجلس القوى العاملة بتاريخ ١/١١/١٤٠٤ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا شك أن هناك أعداداً كثيفة من الطالبات ينتظرن أن يتخرجن من المرحلة الجامعية خلال فترة الخطة الجديدة، وأعتقد أن العدد قد يكون أضعاف كل العاملات الآن مما يعني أهمية الأمر وضرورة الاهتمام البالغ به، والتفكير فيه بجدية وتأمل والبحث عن كل الفرص الممكنة والحلول التي توفر فرص العمل المناسب لأغلب الخريجات على الأقل»[1].

وهكذا يجب أن نتحرك نحو نظرة جديدة نحو عمل المرأة بحيث تتحقق أهداف الأمة العليا.. ونعطي كل ذي حق حقه.. ونأخذ بيد هذه الإنسانة التي ائتمننا الله عليها وبحيث يتم كل شيء على أسس صحيحة وفي وضح النهار.. ونقطع الطريق أمام أولئك الذين يحاولون الاصطياد في الماء العكر ويسعون إلى دغدغة عواطف المرأة في بلادنا حتى يخرجوها عن وقارها وحشمتها وربما دينها لا قدر الله.. ويوهمونها أننا ضدها وضد مسيرتها وضد حصولها على حقها في العمل الشريف كما يجب أن نحميها من أولئك الذين يرون أن لا حقوق لها إطلاقاً في العمل وأن عليها أن تبقى في منزلها تزوجت أم لم تتزوج ترملت أم لم تترمل احتاجت أو لم تحتج ويحولون بينها وبين أي عمل حتى ولو كان عملاً شريفاً.. دون وجه حق.. ودون نظرة واعية إلى أبعاد المجتمع الذي نعيش فيه والظروف

(١) مجالات عمل المرأة هل يجوز تحديدها ـ د. عبدالله ناصر الفوزان جريدة الرياض تاريخ ١٤٠٦/٢/١٨ هـ.

المعيشية التي تمر بنا والتي تستوجب الاستفادة من كل يد عاملة في مكانها المناسب والصحيح وفي إطار من الشريعة السمحة.

فليت شعري هل نتحرك قبل فوات الأوان وهل نلقي نظرة جادة نحو عمل المرأة حتى نستفيد جميعاً من هذه المكاسب الكبيرة التي يمكن أن نجنيها ومن تلك النتائج العظيمة التي يمكن أن نحصل عليها والإيجابيات.. والفعاليات التي سنحققها.. لأن المشوار أمامنا طويل.. والتحديات كبيرة.. ومعقدة.. وأعداء الأمة كثيرون.. ولا بد أن نعمل كيد واحدة.. وكجسد واحد.. وأن نثق في بعضنا.. وتثق فينا كل عناصر الأمة.. وكل أفرادها.. ونعمل كشركاء. والمرأة شريك أساسي.. وهام.. لأنها مواطنة.. ولأنها نصف المجتمع.. وهي فيه حجر أساسي ودعامة بناء.. وهي الأم.. وهي الأخت.. وهي الزوجة وهي البنت.. ولا بد أن تكون معنا بكل حواسها.. وتثق فينا.. وتعمل معنا كفرد في الأسرة الكبيرة.. وعلينا أن نعمل بصدق وإخلاص ووعي ومسؤولية وثقة متبادلة.. وعندها لن نخشى إلا الله وسوف تتحطم كل هجمات أعداء الأمة وأشرارها لأننا:

أمة واحدة..
وأسرة واحدة..
ويد واحدة..

﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف ٢١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقـــرأ ولا يقرأون

كانت البداية اقرأ. . .
ولم تكن اعمل. .
أو صلِّ. .
أو جاهد. .
أو حتى سبح. .
حضارتنا بدأت باقرأ. . .
قضيتنا بدأت باقرأ. . .
وآخرتنا تبدأ باقرأ. . .
ومع ذلك لا نقرأ ولا يقرؤون. .
طلابنا لا يقرؤون. .
أساتذتنا لا يقرؤون. .
وساستنا لا يقرؤون. .
وقراؤنا لا يقرؤون. .
ومعظم كوارثنا حدثت لأننا قوم لا نقرأ. . وان قرأنا

فبعفوية. . وربما سطحية، وشاءت إرادة الله أن تكون أول كلمة أنزلت. . هي اقرأ. . ليلفت أنظار هذه الأمة إلى القضية الكبرى. . اقرأ. . **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾**.

وشاءت إرادة الله أن تبدأ قضية الآخرة أيضاً باقرأ. . : **﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾**.

وهنا لفتة عظيمة إلى قضية اقرأ الثانية. . أو اقرأ الأخرى. . والآخرة ومع ذلك لا نقرأ. . .

والقراءة التي أقصدها هي التي تغذي الفكر وتثريه وتلامس الوجدان. . وتنفعل فيه ثم تستقر في التكوين النفسي. . . وتساهم في بناء الشخصية. . وتكون ذات فاعلية في مسار التفكير. . وأكره تماماً تلك القراءة التي لا تزيد عن تجميع المعلومات وحفظها. . وذلك لأن هذا يجعلها ثابتة ومحدودة. . . مستقرة ومحصورة وغير قابلة للتطور ولا التطوير وغير حافزة على البحث. . والتعمق ثم الإثراء. . .

وسوف تكون البداية من هنا من بناء ثقافي واع. . ومتكامل ومتميز بأصالة ومصداقية. . وقد تكون الحركة بطيئة. . ولكنها خير من السكونية أو (المراوحة في مكان واحد) بل خير من التقدم إلى الأمام بدون هدف محدد، لأن مجرد السير إلى الأمام، لا يعني أننا نتقدم ولهذا فالبداية مرة أخرى،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هي قراءة واعية ومسؤولة.. للإنسان.. من ناحية تاريخه.. وتكوينه.. ومصيره.. وحاضره... ومستقبله.. وهي منهج يحترم حرية هذا الإنسان.. ويعتبر ان إشاعة الحريات هو الحل الصحيح.. ولكنها الحرية المرادفة للمسؤولية.. التي يحوطها المنهج الأساسي ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾.

وفي بداية تتمركز حولها.. كل قضايا النهضة فلا يمكن الانطلاق بنهضة صناعية، وبعد إنتاجي بدون بُعد ثقافي.. وقاعدة فكرية..

وكذلك الأمر بالنسبة للبعد السياسي.. الذي لا يصح ولا يصلح ان ينطلق من فراغ وخواء.. وبدون بعد ثقافي وفكري سوف يتردى في غوغائية.. وجعجعة لا طحن خلفها.

ولهذا كانت بداية حضارة الإسلام، وأول كلمة من السماء.. لنبي هذه الأمة عليه أفضل الصلاة والسلام هي اقرأ ولم تكن سبح أو احرث أو اصنع.. أو تاجر.. أو حتى اعمل.. بل كانت اقرأ.. اقرأ... اقرأ.

القضية إذاً بدأت.. باقرأ...

والحضارة بدأت بها..

ولا غنى لنا عنها.. ولا بد منها.. إن أردنا نهضة صحيحة.. وانطلاقة راشدة.. ولا بد من العودة إلى مفهومها

الواسع.. نسير على هداه.. ونبني الناشئة بناءً يمكنهم من الفعل.. والحركة.. والتأثير.. وليس من الحفظ.. والاستظهار...

ولنتذكر أن كل أمة نهضت.. كان حجر الزاوية فيها دائماً هو المنهج الصحيح. ثم الإرادة القوية... ووضوح الرؤيا... فالمناخ الصالح.. والقدوة الحسنة...

فلنصلح مناهجنا في الحياة.. إذا أردنا أن ننطلق.. وأن نتقدم.. وأن نلحق بالركب ثم نواصل المسيرة.. وأعني بالمناهج هنا مفهوم اقرأ الواسع.. وليس الكتاب أو المنهج المدروس المجرد..

فالقضية.. أننا أمة لا بد:

أن نقرأ.. لنعلم...

ونقرأ.. لنصنع وننتج..

ونقرأ.. لنقود ونتحرك..

ونقرأ.. لنفعل..

لأن القضية كلها تتمركز حول.. اقرأ.. بوعي.. واقرأ بهدف.. واقرأ بإرادة.. واقرأ بمسؤولية.. وتحسب لأبعاد المصير...

فدعونا نقرأ.. ولنبدأ بالقراءة الراشدة.. ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من أين تبدأ النهضة عندنا

أعتقد والله أعلم أن النهضة الثقافية والأدبية هي أساس النهضة الشاملة في كل مجال. . .

ويلحق بهذا الاعتقاد اعتقاد آخر وهو أنه يستحيل تحقيق تقدم علمي أو مادي في بلد خلو من الثقافة الناهضة. . فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. . وبمعنى آخر فإنني أعتقد أنه ما لم يكن ثمة فكر ناجح فإنه يستحيل الحصول على التقدم في أي فن آخر من فنون المعرفة. . .

أقول ذلك وفي ذهني أقوال بعض من يعتقدون أن التقدم في هذا العصر مداره العلم البحت. فهؤلاء يرون أن مظاهر التقدم الآن إنما هي نتاج العلوم كالطائرة والصاروخ والقمر الصناعي ووسائل الاتصال الحديثة وغيرها من المخترعات العلمية الباهرة. وأنا مع هؤلاء في أن المخترعات

الحديثة تيء باهر ورائع، وأن الحياة العصرية لا تستقيم بدونها. ولكن الفارق هو أنني، إلى جانب ذلك، أريد أن أرد النهضة العلمية المادية إلى أصولها، وهذه الأصول تتمثل، عندي في قوة الفكر وما يصحبها، عادة، من قوة التخيل والقدرة على الربط بين العلل والمعلولات، وبين مظهر الشيء وأساسه الراسخ.

فهل يستطيع عالم في معمله أن يصل إلى نتائج صحيحة ما لم تكن له هذه القدرة على الربط بين السبب والنتيجة، أو هذه القدرة على تخيل الأشياء في شكل جديد. . .؟؟ وخذ، مثلاً، ظاهرة سقوط التفاحة التي لاحظها «نيوتن» أبو العلوم الحديثة كما يسمونه، وتأمل معي: أفلم تكن هذه الظاهرة قديمة قدم الحياة نفسها؟ واسأل نفسك: لماذا لم يلحظها من سبقوا «نيوتن» نفسه؟؟ ثم اسأل نفسك مرة أخرى: هل كان يمكن لذلك العالم أن يربط بين هذه الظاهرة العادية المألوفة وبين وجود «جاذبية» للأرض، وأن يتابع قياسها بقوانينه المعروفة، ما لم يكن، أصلاً، صاحب فكر جيد قادر على الربط بين الظواهر وعللها وبين الأسباب والنتائج، وعلى اكتشاف القوانين الحاكمة للظواهر من خلال هذه القدرة. . .؟؟

وأدعوك إلى النظر معي في مسألة أخرى، فقد استطاع الكاتب القاص «ويلز» أن يتخيل في قصصه الحياة على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكواكب الأخرى، وأن يتنبأ باحتمالات الحروب بين سكان الكواكب، وأن يصف لنا القمر بجباله وتضاريسه ووديانه. ثم جاء العلم من بعده ليركب على أجنحة الخيال المحلق، وليصل فعلاً إلى القمر وغيره من المجموعات الفلكية، وأن يكتشف، وهذا أمر بالغ الغرابة، أن بعض أوصاف «ويلز» لبعض الكواكب التي وطئتها قدم الإنسان فيما بعد ـ ولم يكن هو قد رآها إلا بعين الخيال ـ صحيح في جملته.

ماذا أريد أن أقول....؟؟

أريد أن أقول إنّ الذين يرون مستقبل أوطانهم وأمتهم في التقدم العلمي عليهم أن يدركوا الحقيقة الجوهرية في عملية التقدم كلها وهي: قوة الفكر وما يترتب عليها من قوة ملاحظة، والتي هي أساس للتجربة العلمية، ومن قوة التخيل، والتي هي أساس الاختراع. فهل يمكن لأحد أن يتصور الاختراع ممكناً ما لم تكن ثمة قدرة على تخيل شكل الحاجة التي يجري الاختراع من أجلها...؟؟ لقد تصور الذين يخترعون قطار الأنفاق، مثلاً، شكل الازدحام في الشوارع، واستخدموا في ذلك قوة تخيلهم، فوصلوا إلى أن الحل إنما يكون بقطار يسير تحت الشارع المزدحم لامتصاص بعض زحامه... وعندما وجد عباس بن فرناس أن الإنسان يمكن أن يحلق كالطائر فإنه مزج فكره بخياله وقام بمحاولته الرائدة والتي أجهضها بعض القصور...

ومعنى ذلك، فيما اعتقد أن الفارق هنا ليس فارقاً في تقدير العلوم أو جحدها، فليس من يجحد فضل العلم على العصر وحياة الإنسان وإنما الفارق هو بين من يتصور أن العلم كائن قائم برأسه، مبتوت الصلة بنشاطات الذهن الأخرى، ومن يؤمن بحق أن العملية العلمية جوهرها الفكر، وأن العلم، من ثم ليس إلا جانباً من جوانب الحياة الثقافية الشاملة يذكو بذكائها، وينهض بنهضتها، وينعكس حاله إذا ما انعكس حالها أو انتكس...

ثم لنا بعد ذلك، أن نتساءل: كيف نبدأ، إذن، إذا كانت غايتنا هي تحقيق النهضة لبلادنا وأمتنا....؟؟

أكاد أرى الطريق أمامي على النحو التالي:

أولاً: عودة إلى منابع الدين الأصيلة والقديمة. ففي الإسلام الحنيف مبادىء الأخلاق الحميدة والتي بغيرها يضل الفكر وينحرف، في فيافي قاحلة. وإنما نحن نريد الفكر المزدهر، المثمر الذي يهدي الإنسان، ويقومه، ويقوده إلى الرشد والسداد، وهذا الفكر الملتزم بالدين الحنيف، وبمبادئه القويمة، ومشكاته المضيئة. والذين يفكون حبال فكرهم من رواسي الدين الراسخة، هم كمن يلقون الحبل على غارب حصان جامح يدور بهم ثم يدور، ويضيع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقتهم وطاقتهم الذهنية بدداً، ثم لا يكون في نهاية الأمر كله إلا بوارهم...

ثانياً: تنشيط الحركة الثقافية والأدبية والفنية في هذا الإطار الديني الملتزم بالمبادىء والأخلاق الرفيعة والذي لا يرى الفكر ضالاً مضلاً وإنما هادياً ومرشداً، وإعطاؤه كل ما هو لازم له من حرية الحوار والمناقشة لتقليب الآراء على وجوهها، حتى يتسنى لنا أن نختار منها الأصلح والأنفع...

إن الحركة الثقافية في أي مجتمع وكل مجتمع أساسها الحوار وحرية الفكر، فإذا افتقد هذا الأساس لم يعد فكاك من أن تدور الحركة دورة الثور على مدار الساقية، فالمدار واحد ولا يتغير، وكذلك خطو الثور فوقه، هي حركة آلية عمياء لا اجتهاد فيها، ولا نبض، حتى وإن قام بها صاحب جسم حي تنتفض عروقه تصبباً ولغوباً...

وبالحرية والحوار يتدفق نهر الفكر جياشاً، ويتدفق معه المجتمع ذاته، وفي هذا التدفق حياة النهر وعذوبته وصفاؤه، وفيه أيضاً، حياة المجتمع، وحيويته، وقدرته على التجدد ومواجهة المشكلات الطارئة... ألا ترى أن الماء يأسن وينتن إذا وقف

جريانه، وانقطعت تياراته...؟؟ وألا ترى أن حياة الفرد نفسها تنصرم إذا كفت خلايا جسده عن التجدد...؟؟

كذلك الفكر... وكذلك المجتمع...

على أننا إذ نقول هذا كله لا بد من إضافة كلمة أخرى لا يصح القول بغيرها وهي أنه إذا كان الحوار الطليق هو أساس ازدهار الفكر وتقويمه فإن هذا الحوار ذاته يجب ألا يكون طليقاً من كل القيود وأول قيد يرد عليه هو قيد الموضوعية والالتزام الخلقي واحترام حرية الآخرين.

وهذا أمر يسمو فوق كل جدل ولجاج. فإذا كانت حرية الفكر لا تعني التسيب أو الانفلات، ولئن تحولت إلى شيء من هذا انتكس الفكر وانحرف، فإن الحوار الذي يثري هذه الحرية، ويزكيها، ويسددها، هو الحوار الموضوعي الذي ينأى عن الأمور الشخصية أو الذاتية، وينكب، بكلّيته، على التدقيق في جوانب الموضوع، وبحثها، واكتشاف الاتصال أو الانفصال بينها وبين الموضوعات الأخرى التي لها مساس بموضوع الحوار. وإن هذا البحث «الموضوع» لا يراد منه غير توخي أفضل النتائج من وراء المناقشة، وفض المغاليق عن جوهر الموضوع، والتوصل إلى أصح الآراء والمواقف.

وليس منا من لا يردد كلمة الحوار «الموضوعي»، أو من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يجهل فضله على الفكر، والبحث، والعلم، بيد أن البعض يرتكس في «الذاتية» حتى وهو يرفع شعار «الموضوعية» فتختلط الذات عنده بالموضوع، فيخرج حواره إلى أمور ذاتية ولو تصور أنه ما زال في الإطار المجرد لموضوعه، أو لموضوع المناقشة...

وهذا أمر يؤسف له، أولاً، لأن الحوار إن أفلت من حدود «الموضوع» إلى ساحة ذوات المتحاورين بدد نفسه في أمور شخصية لا تعني إلا أصحابها، وأصبح «الموضوع» مجرد محور يدور حوله التنفخ بالذات، أو ثلب ذوات المعارضين، ولا بد، والحال هذه، أن تضيع منا مضامين الموضوع، وأصوله، وعلاقاته بغيره، واحتمالات الخطأ أو الصواب في هذا الرأي أو ذاك. لأن عرض الموضوع شيء غير عرض الذات، وتفنيد آراء الغير يختلف جذرياً عن التعريف بها... ثانياً.. لأن مقدار «موضوعية» المناقشة لا يقاس إلا بمقدار نكران الذات فيها. ولا أحد يطلب من أحد أن يخفف من إيمانه برأيه، أو تحمسه له، أو تهيئه للذود عنه. فرأي الإنسان المؤمن برأيه قطعة من ذاته، وبضعة من نفسه، ويكاد أن يمزج بدمه في عروقه. وإنما الذي نطلبه ـ لأنه هو الأمر الذي لا تتحقق فائدة بغيره من وراء حوار ـ هو أن يكون عرض الرأي بالحجة والمنطق، وبشرح أسانيده ومبرراته، وبحشد المحصلات العلمية والفكرية في كل المجالات لإعلائه، وإثبات شرفه وفضله وأسبقيته على غيره. فإذا نحن تنكبنا هذا وانكببنا على

تجريح شخصيات أصحاب الآراء المعارضة، والزهو بآرائنا على أساس شخصياتنا بعيداً عن التبرير الموضوعي والعلمي لها، غرقنا في متاهات لا علاقة للرأي بها، ولا نفع يرجى منها لطالب علم، أو طالب مشورة، أو ساع إلى الرؤية الأعم، أو الفكرة الأصح...

وأرى أن الحوار عندنا يفلت في بعض الأحيان من حدوده الموضوعية إلى هذه الأطر الشخصية، فيتحول النقد، وهو أداة من أدوات التمحيص العلمي، إلى نصل يجرح، ويسيل الدماء، وقد يتساقط من جرائه صرعى في غير موجب من قضية، أو رأي.

ولعل هذا هو ما جعل للنقد عندنا معنى خاصاً يختلف عن معناه الحقيقي. فهو عندنا، في مفهومه العام، لا يزيد عن مجرد سرد لمثالب العمل الأدبي، ونواحي القصور فيه. فالناقد، إذن، هو الذي ينتقص من العمل. في حين أن النقد، بمعناه الحقيقي، هو تلك العملية المتفحصة الكاملة التي تعرض من خلال محاسن العمل ومساوئه، مناقبه ومثالبه، وأوجه القصور فيه ومواضع التفوق والامتياز...

وهذا المعنى القاصر لمعنى «النقد» عندنا يطرح آثاره، فيما يبدو لي، على عملية النقد برمتها، حتى استحالت إلى عملية تجريح، وتعريض، وتعرية للعيوب واستحال الناقد، من ثم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى مهاجم يجد في شخص الكاتب أو المؤلف أو صاحب العمل الأدبي موضوعاً ملائماً لإسقاط العمل ذاته، ونقده هذا النقد الضيق القائم على مجرد التشويش والثلم والتثريب...

مثل هذا النقد لا يفيد أحداً، لا ناقداً ولا منقوداً، والضرر الذي يلحقه بالحركة الثقافية أبلغ بكثير جداً من أي نفع يمكن لأحد أن يتوهمه، وبالتالي فإن عدمه أولى من وجوده.

ذلك بأننا لا نريد لحياتنا الثقافية الفكرية هذه التموجات السطحية التي قد تحدثها على سطح النهر الرياح الهوج، وإنما نحن نريد لها تيارات هادرة في العمق تعرض آثارها في حركة أصيلة متدفقة إلى الأمام وليس في مجرد خفقات على الأديم يحسبه الواهم جرياناً بينما هو كحركة من يراوح بقدميه أو ساقيه وهو واقف في مكانه لا يريم...

ومن هنا حرصنا على أن يلتزم النقد حدوده الموضوعية بعيداً عن الذوات والأشخاص إعلاء أو إسقاطاً، تقديراً أو تجريحاً. فقدر الكاتب أو المفكر أو الأديب لا يجيء من الصفات السخية التي يجود عليه بها ناقد، مهما علا قدره، وإنما يجيء من تقدير عمله، وطرح مناقبه بعد عملية فحص بريئة من الهوى المائل مع صاحب العمل أو الجامح ضده...

إن مثل هذا النقد البريء النزيه هو الذي يساهم في هداية وترشيد الحركة الثقافية، وهو وحده الكفيل بإخصابها،

وإثرائها وتصحيح مسارها وتعميقها.

ويبقى سؤال مهم هو: كيف نصل إلى هذا المستوى من النقد الحاذق الواعي...؟؟

أستأذن في أن أعد بعض العلامات على الطريق إليه وذلك على النحو التالي:

أولاً: إن خشية الله أساس من الأسس التي لا يستقيم بغيرها عمل. والعلماء أحق بخشية الله، فهم أعرف من غيرهم بالمواطن التي تنصلح بخشيته سبحانه. وفي المقدمة من هذه المواطن ضمير الإنسان الفرد. وإذا كانت الأعمال بالنيات، أي بما تنطوي عليه السرائر والضمائر، فإن خشية الله هي مدخلنا إلى إحسان العمل والتعامل، وهي المحور الذي تدور عليه نياتنا وأعمالنا... ومن لا دين له لا أمان له في قول أو فعل. ولهذا فإن الحرص على إقامة موازين الدين في كافة مناحي الحياة العملية والفكرية أو المادية والروحية، إنما هي العاصم ضد سوء النية في قول أو عمل، بقدر ما هي الحافز إلى التقييم الصحيح لجهود الآخرين...

ولذلك دعوت، وأدعو مجدداً، إلى الالتزام بقيم الدين الحنيف ومبادئه الخلقية في أعمالنا وأقوالنا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسنجد أن الكثير مما لا يصح أن يقال أو يؤتى قد اختفى من حياتنا، وبرئت منه ساحتنا.

ثانياً: إن النقد عملية علمية، أي إنها لا تستقيم لأحد ما لم تكن قد استقامت له أصلاً جادة المعرفة وينابيع الثقافة العريضة الشاملة، والذين يتصورون أن «الناقد» أديب فاشل يخطئون في هذا التصور خطأً جسيماً.

ولقد يكون صحيحاً أن الأديب إذا ما سلست له ملكة النقد يستطيع أن يستجيب لها، وأن يجمع في نقده بين دقة النظر ومعطيات التجربة العملية في ميدان الخلق الفني، وبهذا يجيء نقده غاية في استواء النظرة الفاحصة بيد أن مثل هذا الأديب الناقد قد تجتمع له الملكتان في آن معاً: ملكة الإبداع وملكة النقد. وليس من الحتم ألا يتجه إلى النقد إلا بعد أن تذبل موهبة الإبداع الفني عنده...

ولكننا إذ نقول ذلك لا بد أن نضيف أن بعض الأدباء قد لا تكون لهم قدرة على النقد، فهم يصدرون في خلقهم كما يصدر الماء من النبع، أو كما ينبعث الشعاع من الشمس. وتكون مهمة النقد بعد ذلك هي اكتشاف هذه المواهب، وتحليل نواحي القدرة والعظمة فيها. أي أن الأديب الناجح لا

يكون، بالضرورة ناقداً حاذقاً.

وبنفس القدر فإن ملكة النقد قد تجيء منفصلة عن ملكة الإبداع.. بل غالباً ما تفعل ذلك. وفي هذه الحالة فإن النقد الأصيل المتمكن يجيء كمحصلة نهائية لقدرة فائقة على التذوق، وعلى اكتشاف المتشابهات في الأعمال الفنية التي تجعل منها جميعاً أعمالاً ممتازة أو عكس ذلك.

ومن هنا يستطيع الناقد بملكته وموهبته أن يكشف عن بعض ما يراه من قواعد يستقيم بها العمل الفني أو لا يستقيم...

ومثل هذه الملكة الناقدة يجب باستمرار تغذيتها بالعلوم والمعارف التي تدخل في مجالات الاكتشاف الإنساني. فلا يستطيع ناقد أن يسيطر على أدائه، مهما تكن موهبته، إلا إذا كان واسع الإلمام، عريض الأفق، قادراً على رد كل معرفة إلى أصولها، وأي جزئية في العمل المطروح أمامه إلى الكل الشامل الذي تولدت عنه، وجاء منه...

فإذا جاءنا ناقد وليس له من عدة إلا ذوقه الشخصي جاز لنا أن نتشكك في أحكامه لأنها أحكام غير مؤصلة على أساس مكين من المعارف الإنسانية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشاملة. ولقد يصح لنا أن نسمي هذه الأحكام «شخصية» أو «ذاتية» لأنها وليدة الذوق الخاص لصاحبها. ومع أن الذوق الخاص مطلوب، ولا يستقيم نقد أساساً بغير قدرة على التذوق يتحلى بها الناقد، إلا أن التذوق الذي لا تدعمه المعارف والثقافات والعلوم ينأى بالعملية النقدية عن الموضوعية، ويجعل فيها من الآراء والنظرات بقدر ما هنالك من أشخاص النقادين. وهل «الموضوعية» إلا عملية ضبط هذه النظرات الشخصية بردها إلى أصول متفق عليها من المعارف المشتركة؟؟

ولعل آفة النقد عندنا هي هذا القصور في ضبط النظرات الخاصة بردها إلى أصول المعارف المشتركة والتي هي تراث إنساني عريض، بقدر ما هي جهد إنساني شامل لا يتوقف.

ولا غرو أن يلوذ الناقد بالتجريح الشخصي حين يفتقر إلى هذه الخلفية الثقافية العريضة لأنه حينئذ، لا يملك أصولاً ثقافية يدافع بها عن وجهة نظره، فيتحول النقد عنده إلى تنابذ شخصي يضر، ولا يفيد بشيء...

ثالثاً: إنه لا شيء يشجع على الانحراف مثل انتشاره. فإذا

راج فينا هذا النقد المنحرف الغارق في الذاتية والتجريح فإن النقد الجاد يختفي، والنقاد الجادين يميلون، عندئذ، إلى النأي بأنفسهم عن الساحة صوناً لكرامتهم، وحرصاً على سمعتهم، وضناً بعلمهم أن يستباح وكما قيل فإن العملية الرديئة تطرد العملية الجيدة.

ومن هنا مسؤولية دور الصحف ودور النشر، وأجهزة الإعلام على الإطلاق...

والذي ننشده، بالتحديد، أن تعرض هذه جميعاً عن النقد الرديء وأن ترده إلى أصحابه كبضاعة بائرة لا سوق لها، وأن تفسح للنقد الموضوعي الجيد والهادف، وأن تعلي قدره، وتبرزه وتصدره...

فإذا كان هناك من النقاد من يبيح لنفسه أن يكتب أي شيء، وأن يغرق في حمأة الشتم والسباب والتجريح الشخصي فإنه يجب ألا يكون هناك من أجهزة الإعلام والثقافة في أي مجتمع يريد أن ينهض ويتطهر ما يسمح بنشر هذا الغثاء الأحْوَى...

وإن دور النشر والصحف وأجهزة الإعلام عموماً إنما هي أدوات في خدمة المجتمع، ومن حق المجتمع، عليها أن يطالبها بالالتزام بقيمه، وأخلاقه، وتعاليم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دينه، وبألا تنزلق إلى دهاليز الحزازات الشخصية الموغلة في الضلال والتيه، وأن تعمل على تزكية العلم والأدب والظن بتطهير النقد من الأدران والشوائب التي لحقت به، وأساءت إليه، في العصر الأخير. . .

الانشائيون العرب
مع الاعتذار لـ «المقاولون العرب»

ما الذي يحدث في عالمنا الإسلامي اليوم. . . في مجال الكتابة والتأليف. . .؟ وما هي أبعاد هذه الظاهرة الإنشائية التي انطبعت بها الكثير من المؤلفات والكتب؟. . .

وهذا أمر يلاحظ بوضوح في بعض المؤلفات الأدبية والعلمية على السواء وما يصدر منها باسم الفكر. . ومن هنا تبدو المسألة كقضية تستحق الحوار. . والمراجعة. . والتقويم. .

وكثير من هذه المؤلفات إنشاء لا طائل خلفه، ولا فائدة ترجى منها. . . مؤلفه يَتعَبُ ويُتعِب.

يتعب في سرد صفحات إنشائية، لا فكر ولا إبداع فيها، ويتعب الذين يقعون فريسة سهلة للعناوين البراقة. . .

فلماذا يحدث هذا؟؟. . وما دوافعه؟. . وأبعاده؟؟. . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمنطلق الحقيقي لمناقشة هذا الموضوع، هو أن ندرك ونتفهم بأن الكتابة. . . مسؤولية. . . وأمانة. . . وقدرة على البحث. . والإنتاج والإبداع. . ولعل قاعدة التأليف المهمة أصدق ما يجب أن يلتزم به الكاتب.

فأي كاتب عندما يريد أن يؤلف. . أو يخرج على الناس بمقال أو بحث يجب أن لا يخرج المؤلف عن أحد الأقسام السبعة التالية:

١ ـ إمّا أن يؤلف من شيء لم يسبق إليه. . يخترعه.
٢ ـ أو شيء ناقص يتممه.
٣ ـ أو شيء مستغلق يشرحه.
٤ ـ أو شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه.
٥ ـ أو شيء يرتبه.
٦ ـ أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه.
٧ ـ أو شيء مفرق يجمعه.

فإن لم يكن فكراً. ولا اختراعاً. . ولا إبداعاً أو معالجة صحيحة. . أو شرحاً أو اختصاراً فما هي بتأليف إذاً. . .

ومن الخير لصاحبه أن يستريح ويريح ويغالب في نفسه شهوة الكتابة والتأليف ويكون ممن قال: . . . أو سكت فسلم.

ومن تمام المسؤولية أن يراجع الإنسان ما كتبه ويزنه. .

ويدققه وينظر في عيوبه ويقومه قبل أن يخرج به إلى الناس.

وكما قال عماد الدين الأصبهاني الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

والحق أن بعض العقلاء ينظرون إلى قضية انتشار المؤلفات الإنشائية في عالمنا العربي. . . على أنها ظاهرة مرضية. . وليست صحية ولا شك أنها عمل غير صالح. . وتحتاج إلى ترشيد. . وكبح. . وهي ذات مردود سيء. . . وآثار غير حسنة على الناشئة ثم إنّها إهدار لطاقات من الممكن أن توجه نحو مجالات أفضل إنتاجاً. . .

ومن المؤسف أن كثيراً من هذه المؤلفات الإنشائية يجد مجالاً خصباً للانتشار والذيوع. . ويوزع العديد من النسخ. . لمجرد أن عناوينه براقة. . وطبعاته جميلة ومكلفة. . بصرف النظر عن محتواه. . . العلمي أو الفكري. . في وقت يصارع فيه الموهوبون. . . والمبدعون فلا يجدون من يأخذ بأيديهم. . فيظلون يصارعون خضم اليأس بسواعد الكفاح والصبر لأن دور النشر مشغولة باحتضان أسماء براقة. . أو عناوين جذابة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بصرف النظر عن المحتوى أو «الحشو» كما يقولون.

ولقد صبر الناس عندما كانت الكتب الإنشائية بالعشرات..

وظلوا متحسبين عندما بلغت المئات.. واستصرخوا عندما بلغت الآلاف.

اللهم.. هذا باطل لا يرضيك..
وهو عمل غير صالح..
اللهم الطف بنا فيما تجري به المقادير...
فرحمتك أوسع من ذنوبنا...

وهذه الظاهرة الإنشائية ذات أثر سلبي بلا شك على ثقافة الأمة.. لأنها تساهم في بث السطحية. والسطحية تؤثر في تفكير الأمة.. وطريقة تصرفاتها.. وتناولاتها الثقافية.. وهي عدو للثقافة.. لأنها تأخذ بيد الناس نحو عفوية.. ولا مبالاة.. وسطحية في التعامل مع الأمور.. وبالتالي تؤثر في إنتاج المجتمع.. حيث يميل الناس إلى السطحية بالتالي في كل عطاءاتهم وسلوكهم.. وتغسل بالتالي إرادتهم.. وتضعف قدراتهم على التحمل.. وتجعل هممهم ضعيفة.

وتكون القضية أكثر خطورة عندما.. تأتي هذه

السطحية.. على شكل الظواهر الإنشائية في ما ينسب إلى الإنتاج الفكري.. في مرحلة الدراسة والإعداد للناشئة.. فتكون ذات خطر مزدوج.. لأنها تؤثر في روافد الثقافة الأساسية باعتبار أن الثقافة هي حصيلة التراكمات التاريخية والحضارية التي يولد بها الإنسان وتكملها بعد ذلك الثقافة المكتسبة التي يحصل عليها عن طريق العملية التعليمية.. والنوع الذي يكتسبه عن طريق العملية التعليمية هو ما تم التعارف عليه بالثقافة المكتسبة.. وهذه ناحية مهمة كما اتفقنا.. لأن الثقافة عن طريق التعليم وبصورة خاصة المرحلة الثانوية والجامعية، تلعب دوراً كبيراً في تكوين هذه الثقافة المكتسبة.. بل تأخذ بيد المجتمع نحو ثقافة أصيلة.. وكلما كانت المنابع صافية، جاء الإنتاج النهائي ناضجاً.. ومركزاً.. ومفيداً.. وإني لآمل أن نستفيد جميعاً من هذه المرحلة ونسعى لتثقيف أنفسنا، ونحرص على أن لا يخرج إلى الناس إلا إنتاج مميز هادف وبناء، فيه ما يستحق أن يقرأ.. وأن نكتبه بطريقة نوصل بها المعلومات إلى الأطراف المستفيدة أو التي تنشد الاستفادة على الأصح، وعندها تكون الفائدة مؤكدة بعون الله.

وعلينا أن ندرك كما قال «تي اس اليوت» عندما تحدث عن الثقافة وفرّق بين ثلاثة أنواع من الثقافة، الأولى ثقافة الفرد، والثانية ثقافة المجموعة أو الطبقة، والثالثة ثقافة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المجتمع.. ثم ذكر أن الفرد يرتبط في ثقافته بالمجموعة أو الطبقة التي ينتمي إليها وبالتالي ترتبط المجموعة بالمجتمع الذي تتحرك فيه.. واستنتج في النهاية أن ثقافة المجتمع هي أساس الثقافات... فما دامت ثقافة الفرد مؤثرة في ثقافة المجموعة والطبقة مؤثرة بالتالي في المجتمع.

فإن كل ثقافة سطحية تكون ذات مردود سلبي دون شك من الفرد على الطبقة وبالتالي على المجتمع.

ومن هنا تأتي أهمية أن نقف ونحاسب أنفسنا ونتدارس أبعاد هذه الظاهرة الإنشائية التي بدأت تغزو إنتاجنا وتأخذ بيد ثقافتنا إلى مستويات قد لا تجعل المستقبل مشرقاً منيراً.

والله من وراء القصد....

الكتابة والنقد بين الهواية والاحتراف

أن تكون كاتباً هاوياً أو ـ على الأقل ـ غير محترف فهذا حق من حقوقك لا ينازعك فيه أو عليه أحد.. لأنك إنما تكتب بدافع من رغبة في أعماقك، لتسطر على الورق ما يعنّ لك من أفكار: شعراً أو نثراً، دراسة أو مقالة.. قصة أو رواية..

وأنت ـ في جميع الأحوال ـ مسؤول عما كتبت.. ومن حق القراء عليك أن يبدوا آراءهم فيه؛ رضى أو سواه.. وعليك أن تتقبل هذه الآراء بصدر رحب، لأنها إنما تمثل ردود الفعل الطبيعية لمن كتبت لهم...

والكاتب غير المحترف يختلف عمن اتخذ الكتابة مهنة أساسية لأن الكتابة كمهنة تتميز بـ «الصنعة» و«الحرفية» و«القواعد» التي يحاسب الكاتب المحترف عليها أدق حساب، ولا يجوز له أن يخرج عن حدودها إلا ضمن إطار الأسلوب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاص الذي اتخذه لنفسه..

والكتابة.. مسؤولية.. وأمانة.. ولعل قاعدة التأليف المهمة التي وضعها شمس الدين البابلي المتوفى في سنة سبع وسبعين بعد الألف وهو من علماء القرن السابع عشر الميلادي.. لعل هذه القاعدة أصدق ما يجب أن يلتزم به الكاتب أي كاتب عندما يريد أن يؤلف.. أو يخرج على الناس بمقال أو بحث.. إذ يجب كما يقول البابلي أن لا يخرج المؤلف عن أحد الأقسام السبعة التالية:

١ - إما أن يؤلف من شيء لم يسبق إليه.. يخترعه.
٢ - أو شيء ناقص يتممه.
٣ - أو شيء مستغلق يشرحه.
٤ - أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه.
٥ - أو شيء يرتبه.
٦ - أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه.
٧ - أو شيء مفرق يجمعه.

ولهذا فالنقد بمعناه الفني الدقيق لا تجوز فيه «الهواية» ولا تجاز..

فإمّا أن تكون ناقداً حقيقياً أو لا تكون.. ولا يجوز لك أن تتصدى للنقد بعد أن تصدّر نقدك بقول تعترف فيه بأنك ناقد هاو ولست محترفاً، لأن معنى ذلك أنك لست ناقداً

متخصصاً، وفي النقد يعتبر التخصص شرطاً أساسياً لا يمكن التغاضي عنه ولا التساهل فيه. ومجرد اعتراف الناقد بأنه ليس متخصصاً يفرغ نقده - مهما كان قيّماً - من مضمونه الفكري ويهبط به إلى مستوى القارىء العادي الذي يبدي آراءه بدافع أحاسيسه الخاصة، ومزاجه الشخصي، فتكون تلك الآراء، مهما نضجت، مختلفة عن «النقد»، فهي - وكاتبها، لا يصنفان في عداد العطاء النقدي..

ولست أدري لم يعتقد بعض الذين يتصدون للنقد في صحفنا أن النقد يجب أن يكون قدحاً وتجريحاً، وتجاهلاً للإيجابيات، وبحثاً عن النقائص والمعايب والهفوات، ومطالبة لصاحب الإنتاج الذي ينقدونه أن يسير على هواهم الخاص، ومزاجهم الذاتي، وإلا فإن عمله يعتبر - في نظرهم - فاشلاً.. وناقصاً.. و.. و.. وحتى غدا النقد عندنا أمراً يغلب عليه التعميم والرأي الشخصي مع افتقار إلى الموضوعية، وهذا أمر مؤسف.. لأننا في أمس الحاجة إلى النقد العلمي والموضوعي.. ولكن الناقد عندما يعمم. ويجنح إلى الرأي الشخصي.. وعدم الموضوعية فإنه يخرج النقد عن إطار الفائدة المرجوة منه. وكلما اتجه الناقد إلى العموميات وأسلوب التعميم. أدركنا أنه يتأرجح في مكانه ولا فائدة ترجى من عمله.. فهو مفلس ليس لديه ما يقوله.. وكذلك يؤلمني جداً أن يتحول النقد عند البعض إلى جدل صاخب لأنه دائماً ينتهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى جدل عقيم ومعارك شخصية.. لا تسمو بالناقد ولا بنقده.. وينطبق هذا على أولئك الذين يتصدون لما يوجه إليهم من نقد بانفعال يفقدهم القدرة على الرد الموضوعي.. فيخرجون عن دائرة النقاش الموضوعي والحوار البناء إلى الجدل العقيم.. وربما دون ذلك.. فيؤدون إلى سقوط أعمالهم الأصلية.. وقد تحبط دون شعور منهم.. فالقارىء ناقد.. ومتابع للأديب الذي يعشق أدبه.. ويكره أن يكتشف أن سماع المعيدي خير من رؤيته...

ولست أعيب على أي ناقد أن يبدي رأياً شخصياً بصورة مطلقة.. ولكن الذي أعيبه هو ذلك الرأي الفردي الذي لا يعتمد على تحليل أو يستند على دليل.. ويفتقر إلى التعليل المنطقي والموضوعي.. ويتجه إلى تعميم.. وليس هناك ـ في رأيي ـ أخطر من ضحالة ثقافة الناقد وفساد ذوقه.. وعدم موضوعيته في مثل هذا الإطار.

«من الشروط التي يتحتم أن تتحقق في الناقد الذوق لأنه الأساس في كل حكم والفيصل في كل نقد. وأداة الذوق هي عواطفنا.. أما أداة الفهم فهي عقولنا وأفكارنا فنحن نفهم النص بعقولنا ونتذوقه بشعورنا»[1].

ولعل الأستاذ أحمد حسن الزيات... أوضح أهمية

(١) دراسات في النقد الأدبي ـ الدكتور كامل السوافيري.

الذوق في النقد حيث حدد له مصدرين يستمد منهما النقد الحكم في جميع قضاياه واحدهما العقل المتزن.. ولذلك فهو يرى أن من وهب ثقوب الذهن يكون في أمان من الزيغ والمصدر الثاني عنده هو العاطفة وهي الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس، وهنا مجال الاختلاف...

فكيف يكون الأمر.. عندما لا يخلو النقد من العقل والعاطفة ويتجه إلى جدل وضجيج لا ذوق فيه ولا حس ولا عاطفة.. ناهيك عن رأي أو فكرة تحترم.. فهو إذاً ليس نقداً.. لأن النقد قيمة فنية كما اتفقنا.. وهو قيمة عالية لا يحصل عليها.. ولا يصل إليها إلا قلائل.. وهو محصلة رصيد ضخم من العلم والخبرة والمعرفة والمطالعة والتخصص.. وهو كذلك قيمة أخلاقية.. تضع الناقد كالقاضي أمام ضميره، فلا يسمح لأهوائه الشخصية ولا لمزاجه الخاص ولا لعواطفه العادية أن تأخذه في هذا الاتجاه أو ذاك، بل يتخذ من الموضوعية المجردة مقياساً كمثل ميزان الذهب: يزن بدقة، ويقوّم الأعمال بأمانة، ويبدي الرأي ـ من ثم ـ بصدق...

وعلى الناقد ـ في رأيي ـ ألا يكتفي بالسلبيات وحدها، بل عليه أن يأخذ العمل الذي ينقده ككل، ثم يتولى تشريحه.. لا تجريحه (...) بطريقة فنية، فيذكر السلبيات ويعلل وجهة نظره تجاهها، ويذكر الإيجابيات ويعرض رأيه فيها، ثم ـ وهذا هو المهم ـ يقترح منهاجاً يبين فيه بوضوح أنه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رأيه الخاص، المجرد من كل هوى، وبذلك يستفيد صاحب العمل الفني من هذا النقد في نتاجه المقبل، كما يستفيد القارىء بتكوين ملكة النقد الفني السليم لديه . . .

وأحسب أن من الضروري أن أشير إلى أن مقاييس النقد تختلف ـ بطبيعة الحال ـ من بلد لآخر، ومن بيئة لأخرى، وأن الناقد يجب أن يأخذ هذا الاختلاف بعين الاعتبار في نقده، فمن الثابت أن وجهات النظر النقدية في أوروبا، تختلف عنها في شرقنا العربي، وأن متطلبات العمل الفني ومواصفاته عندنا ـ في البلاد العربية ـ هي غيرها، دون شك، في بلاد أخرى . . .

والكاتب قد يكون أديباً عالماً بـ النحو . أو متمكناً في علوم الصرف مثلاً أو مؤرخاً . . ولكن الناقد مطالب بما هو أكثر من ذلك . . وقد يكون جميع هؤلاء بالإضافة إلى الذوق والحس الفني وسعة المعرفة بصورة عامة .

ولا بد أن يكون ذا معرفة واسعة وعقل بصير يوازن بين قول وقول . . وألزم شيء له هو الذوق المرهف والملكة الناضجة والقلب الحساس) .

خلاصة القول . .

إن النقد مسؤولية جسيمة لا يجوز لمن لا يقدر على حملها أن يتصدى لها . .

وإن الكتابة مسؤولية تختلف في مضمونها عن مسؤولية

النقد . فالكاتب ـ محترفاً أو هاوياً ـ مسؤول أمام قرائه . . . ولكن الناقد ـ الناقد المتخصص ـ مسؤول أمام ضميره . .

المراجع :
دراسات في النقد الأدبي الدكتور كامل السوافيري .
دراسات في نقد الأدب العربي الدكتور بدوي طبانة .
في أصول الأدب ـ أحمد حسن الزيات .
في الأدب والنقد ـ الدكتور محمد مندور .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخوف من الفجوة

بدأ العقلاء في العالم الحر يتهيبون من سرعة اتساع الفجوة بين الدول الصناعية.. والدول النامية في مجال خطير ودقيق وحساس... هو مجال نشر المعلومات وتبادلها . وفي مجال النظام الإعلامي العالمي الذي أخذ يخدم مصالح الدول الكبرى ولا يخدم التداول الحر وغير المعوق للأنباء والمعلومات مما أحدث خللاً واضحاً في مجال التوازن وأدى إلى هيمنة جديدة للدول الكبرى على الدول النامية... ولم تعد هناك عدالة في التوزيع.. وانتفت قضية المعاملة بالمثل.. في عملية التبادل للأخبار والمعلومات وأصبحت جهة مهيمنة مرسلة موجهة.. وجهات أخرى مغلوبة على أمرها.. ومسلوبة إرادتها. ومن الظواهر التي تعمل على تعميق أبعد للهوة أن أكثر من ٨٠ في المائة من الأنباء المكتوبة تنشرها أربع وكالات غير وطنية وأن معدل الفارق على كل نسمة، بين البلدان النامية والبلدان الصناعية بلغ ١ إلى ١٠,٧ بخصوص

عدد الجرائد و١ إلى ٨,٤٥ بخصوص أجهزة الاستقبال الإذاعي و١ إلى ١٥,٤٠ بخصوص أجهزة التلفزيون ولا يملك العالم النامي إلا ١٠ في المائة من أجهزة الهاتف، ولا توجد في عشرين من البلدان النامية شبكة للتليفزيون.

ويبلغ عدد الذين يستطيعون قراءة جريدة في أربعين بلداً أقل من ٨ في المائة ولا يملك جهاز إذاعة إلا أقل من نصف السكان في ستين بلداً.

وإن البلدان المتقدمة تصدر من أجهزة الإذاعة أربعة أضعاف ما تصدره البلدان النامية. ومن الكتب تسعة أضعاف، ومن أجهزة التليفزيون والأشرطة المسجلة تسعة عشر ضعفاً، ومن أدوات التصوير تسعة وأربعين ضعفاً. وأوضحت إحصائية لتوزيع الأخبار أن الدول النامية في العالم توزع يومياً ما لا يزيد عن «٧٠,٠٠٠» كلمة في وقت توزع فيه الوكالات الدولية الأربع الرئيسية ما يزيد عن ٤٠ مليون كلمة وعلى هذا يبدو النظام العالمي للاتصال غير متوازن وغير مطابق للعصر في جملته، كما يبدو أن نشر المعلومات عملية ذات بعد واحد إلى حد كبير لا تبادل في مجاله. والاختلال في تداول المعلومات هو أساساً اختلال بين الشمال والجنوب ولكنه يؤثر أيضاً على العلاقات بين الشرق والغرب.

ودعونا نقرأ الخبر التالي الذي تناقلته وسائل الأنباء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«في حشد من أعضاء مجلس الشؤون العالمية بمدينة لوس أنجلوس الأمريكية وقف (دوجلاس مفريدج) مدير عام البرامج الخارجية في الـ بي بي سي ـ يتحدث عن حرب الإذاعات الإعلامية ـ مسموعة ومرئية ـ ثم أعلن في صفاقة أن بريطانيا سوف تغزو الدول المتخلفة في العالم الثالث بواسطة قنوات تليفزيونية تنقل عبر الأقمار الصناعية. . .».

والعجيب حقاً والمؤلم أيضاً أن يكون دوجلاس مفريدج هو ممثل الحكومة البريطانية التي تعاني الأمرّين اليوم من ميزانيتها التي يتقاذفها غولان كبيران هما نقص الموارد الاقتصادية واستفحال مشكلة البطالة ذلك الاستفحال البشع.

ولكنه منطق الاستعمار الذي يفرض سيطرته السياسية والاقتصادية والثقافية بالقوة على الشعوب ليستحوذ على ثرواتها ويمتص دماءها متجاهلاً كل الحقوق والمبادىء الإنسانية التي تكفل حرية الشعوب ورفضها للتبعية والاستغلال. . فإذا ما فشل في كل ذلك. . سعى إلى لون جديد من الاستعمار. . وهو الاستعمار الثقافي. .

لقد نطق مفريدج بلسان الاستعمار البريطاني الذي قام على سياسة بسط النفوذ بالحديد والنار وأقام في غفلة من الضمير الإنساني تلك الامبراطورية المترامية الأطراف والتي قيل إن الشمس لا تغرب عنها. . فشاء القدر العادل أن تغرب

الشمس عنها وأن تتقلص حضارتها المادية وتسقطها في الظلام لتصبح دولة من الدرجة الثانية.

ولقد تحدثت من قبل عن الاستعمار الجديد أو ما يسمى بالإمبريالية الثقافية الجديدة. . وحاولت أن أساهم بجهدي المتواضع في إيضاح ضراوته وأبعاده الخطرة. . وها أنذا أعود إلى الحديث عنه اليوم لأنبّه إلى أمور جدّت ـ وقبل أن أدلف إلى صلب الموضوع أقول لأولئك الذين يظنون أن الاستعمار قد حمل عصاه ورحل عن بلادهم ـ إنهم واهمون ـ فالاستعمار باق ولكنه قد تلوّن تلوّن الحرباء واتخذ لنفسه أشكالاً وأسماء جديدة. . وأنه مسألة حياة أو موت لتلك الدول التي ابتدعته ـ وإنها حريصة على بقائه قوياً متمكناً مسيطراً إلى الأبد.

وها هو ذا يطل بوجهه الجديد. . استعماراً ثقافياً يسعى لفرض سيطرته على الفضاء. . يبث هيمنة جديدة على الشعوب التي لا حول لها ولا قوة. . ويغزوها في عقر دارها. .

النظام الإعلامي الجديد:

ولقد جرت مناقشات عديدة في أروقة الأمم المتحدة وفي هيئة اليونسكو وغيرها من المحافل الدولية حول ضرورة إيجاد نظام إعلامي جديد يهدف إلى حفظ حقوق الدول النامية والوصول إلى عملية توازن في انسياب المعلومات وقد حرك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه المناقشات ما لوحظ من أن هناك إجحافاً كبيراً وعدم مساواة بالغة في عملية نشر المعلومات بين دول العالم مما أدى إلى اختلال واضح نتج عنه ظهور بوادر جديدة للاستعمار الفكري الحقيقي.

ولا جدال في أن وجوه الاختلاف والتفاوت في الإعلام والاتصال قد ترتب عليها نتائج خطيرة ذات أضرار مباشرة على الدول النامية.

فهما يحولان بين الأفراد والازدهار «بين المجتمعات والتطور» ثم إن عملية القولبة الثقافية والتعميم والتوحيد الثقافيين قد يؤديان إلى وأد الطموح الخاص وقتل الإنتاج الذاتي وقصر الأفكار جميعها على ثقافة واحدة تقود الجميع بلا تفرقة ودون اختيار. . . كالقطيع.

وقد يؤثر الغزو الثقافي والتكيف السياسي والسلوكي في أسلوب الحياة بإغراء الضمائر وتغذية الأحلام أو إثارة الجسد، فينتهي الأمر إلى الشعور بالحرمان والتوجسات بل إلى عاهات نفسية وأمراض عقلية.

وهناك رأي يقول إن الاستلاب الثقافي يمكن أن يسفر عن آثاره المؤذية على مستوى الأفكار والمفاهيم والشعارات والقيم أيضاً. . فالوسائل الإعلامية ـ مهما كان نوعها ـ تؤثر في عقول الناس ـ والإعلام والاتصال وسيلتان قويتان حاسمتان

قادرتان على التأثير في مجرى الأحداث إيجاباً وسلباً.

وقد أعرب بعض المفكرين عن أسفهم لأن وسائل الاتصال بالبلدان الصناعية ـ خاصة الغربية ـ لا تعبأ بالقيم الثقافية في العالم الثالث ولا تقيم لها أي وزن ـ والاستعمار الفكري الحقيقي الذي يولده الاختلال في الإعلام يشجع عليه ـ بوعي أو غير وعي بعض أبناء الدول النامية الذين درسوا في الدول الصناعية. . وذلك بإشاعة عادات الدول الصناعية ونشر سمومها الثقافية والتحمس لكل وارد منها دون النظر إلى مدى ملائمته لمجتمعاتهم.

هذا وإن كان البعض الآخر من المفكرين يقولون إن التوحيد والإدماج بين الثقافات ـ وهذا أمر لا مناص منه ـ قد يكون فيه بعض النفع وضربوا المثل بالحضارة الرومانية التي كانت مدعاة للتقدم بسيطرتها على الغرب المتوحش.

الأسباب والنتائج:

لا بد قبل التفكير في وضع النظام الإعلامي العالمي الجديد الذي تضعه الأمم المتحدة وهيئاتها المختلفة أن يتم التعرف على الأسباب التي أدت إلى وجوه الاختلال ليمكن في ضوئها اقتراح الحلول.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ولقد أجريت بالفعل دراسات عديدة وبحوث قيمة في هذا المجال. أوردتْ أسباباً كثيرة غير واضحة الأصول تماماً.. البعض منها يعود إلى ظروف تاريخية وأخرى اقتصادية وثالثة ثقافية ورابعة سياسية.

ـ وقد أجمعت كلها على اقتراحات أساسية تركز على ضرورة الاهتمام بالعلاقات المعقدة التي تربط بين الثقافة والاتصال.. ثم نبّهت إلى وجود علاقة وثيقة بين النظام الاقتصادي العالمي والنظام الإعلامي العالمي، وبيّنت أن أي مجهود يبذل لإقامة نظام عالمي جديد للإعلام والاتصال لا بد ألا تفصل عن أي جهود تبذل لإقامة نظام اقتصادي عالمي جديد، فهما مرتبطان يتفاعلان بهدف إقامة هيكل جديد للعلاقات العالمية يكون أكثر عدلاً وأشد إنصافاً.

وأكدت تلك الدراسات على أن المصلحة الحقيقية للبلدان المتقدمة وخاصة لخروجها من الأزمة التي تجتازها الآن ـ هي تخفيف الفارق الذي يفصلها عن البلدان الأكثر حرماناً ـ ونصحت بعدة أمور منها:

أولاً: تنمية الإنتاج الذاتي لئلا نقع في خطر تقليد القالب الغربي تقليداً أعمى.

ثانياً: إعادة تشكيل شبكات الاتصال.

ثالثاً: تخفيض وجوه التفاوت في الإنتاج ونشر المعلومات، هذا التفاوت الذي ينال النساء وأهل الريف والأقليات والمغتربين والمعوقين.

رابعاً: لفت النظر إلى احتياجات حركة التحرير الإعلامية، على أن تبذل الأمم المتحدة واليونسكو والمنظمات المعنية جهودها لإرهاف وعي المجتمع الدولي لمسؤولياته إزاء المجموعات البشرية التي لم تستوف ممارسة حقها في الإعلام وفي الوصول إلى تسهيلات مع مراعاة ظروفها الخاصة وحاجاتها الضرورية.

وقد ضرب المثل على الصعيد الوطني بما فعله السكان في شمال كندا لتخفيف التفاوت الذي يعانونه وحماية شخصيتهم الثقافية ـ فقد أوقفوا بث البرامج الإذاعية التي يرون أنها معارضة لثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وعرفهم.

خامساً: اقترحت بعض الدراسات لتغيير مواقف وسائل الاتصال بتجنب التصويرات السطحية الساذجة والتهريجية عن العالم الثالث.. كما اقترح تغيير مقاييس اختيار الأنباء والكف عن تفصيل الأنباء غير الصالحة والسخرية من صحافة الدول النامية التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تسعى لخدمة التنمية والمشاركة فيها. وقد ذكرت تلك الدراسات أن الأخطاء التي ارتكبت في تأويل بعض الأحداث قد ذكرت الأمثلة لعجز بعض وسائل الاتصال عن تجديد أنواع تحليلاتها وضرب المثل برفضها الاعتراف بالدين كعامل جبار للتغيير.

التكنولوجيا والتقدم:

وفي مؤتمر المائدة المستديرة المنظم بالتعاون بين الأمم المتحدة واليونسكو بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٨٣م. أجمع المتحدثون على أن نظاماً عالمياً جديداً للإعلام والاتصال قد بدأت إقامته بالفعل عن طريق تكنولوجيا التوابع الاصطناعية المخصصة للاتصالات والحاسبات الإلكترونية، والأسطوانات التلفزيونية، والتليفزيون الكبلي، والنص التلفزيوني، والنص البرقي الخ.. ومع ذلك كانت المسألة الرئيسية التي سادت المناقشة بشأن تكنولوجيا الاتصال ما إذا كانت هذه التكنولوجيا ستزيد من الفجوة بين الأغنياء والفقراء سواء بين البلدان المصنَّعة والبلدان النامية أو في داخل كل منها على سواء.

وقد دار حوار عن دور التكنولوجيا الحالي في المجتمع وعن جوانبها الإيجابية والسلبية ـ واتضح أن هناك من يقول إن التكنولوجيا تسيطر على بيئة الاتصال بأكملها وأنها ضرورية من أجل التقدم. الاقتصادي والاجتماعي ومن يقول إنها ذات

أهمية محدودة في العالم النامي ودلّ على ذلك بعدم أهمية الإذاعة في البلدان التي لا تزال مصابة بقدر كبير من الأمية ـ فهي تلجأ إلى الوسائل التقليدية في الاتصال بين الأشخاص.

وبالنسبة للجوانب الإيجابية للتكنولوجيا الجديدة للاتصال فقد أعرب متكلم من بلد متقدم النمو عن شعوره بأن البلدان المصنَّعة يمكن أن تساعد العالم النامي على اجتياز بعض مراحل تطوير وسائل الإعلام عن طريق استخدام وسائل من أمثال التلفزيون الكبلي المتبادل التأثير وقال آخر بإمكانية استخدام محطات الإذاعة المتنقلة ـ وأشار ثالث إلى ضرورة ارتباط التكنولوجيا الجديدة بمسألة تدريب الصحفيين في العالم النامي وإلى المسألة الخاصة بتدفق الأنباء بين البلدان المتقدمة النمو والبلدان النامية ـ وشرح رابع فكرة التكنولوجيا الجديدة فقال إنها يمكن أن تساعد في (إقامة الصلات) وأن البلدان القليلة التي تطلق الآن توابع اصطناعية إلى مدارها ينبغي أن تستخدم تلك التكنولوجيا لصالح البشرية بأسرها.

هذا وقد أبدى المجتمعون تخوُّفهم وقلقهم لأن التكنولوجيا الجديدة ستزيد من عدم التوازن في المعلومات بين البلدان المتقدمة النمو والبلدان النامية وفي داخل كل منها واقترحوا أن تضطلع اليونسكو بالتعاون الوثيق مع اللجنة المعنية بالشركات غير الوطنية التابعة للأمم المتحدة وتشجع الأبحاث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بشأن دور وممارسة الشركات غير الوطنية في مجال الإعلام والاتصال.

وقد أشار أحدهم إلى أن الشركات التي تنتج التكنولوجيا الجديدة للاتصال هي على صلة وثيقة أحياناً بالمجمّع الصناعي العسكري، وأن تكنولوجيا الاتصال الشديد التعقيد كالمنصات الفضائية للاتصالات اللاسلكية يمكن أن تكون وسائل اتصال وأسلحة عسكرية فضلاً عن ذلك.

جعجعة لا طحن خلفها:

والقضية الأساسية التي يجب أن نتحدث فيها اليوم بصراحة أن الأمر واقع لا محالة وأن القوم في الدول المصنّعة قد اجتازوا مراحل التخبط والإعداد ودخلوا مراحل التنفيذ ـ كما قلت في المقدمة ـ وقد أطلقوا بالفعل العديد من التوابع والأقمار وهي الآن حقيقة تتحرك في المجال الجوي وبدأ شبح الاستعمار الجديد يخيّم على سمائنا وعما قريب سيبدأ البث المباشر لبرامج هذا الاستعمار الفكري أو الاستعمار الحقيقي.

كل هذا ونحن نتحدث ونناقش ونحاضر ونقوم بجعجعة لا طحن خلفها في وقت يكسب فيه الاستعمار الوقت بأن يمد إحدى يديه إلينا مصافحاً بينما اليد الأخرى تضع اللمسات الأخيرة على برامجه التي أعدّها ويستعد لصبّها فوق رؤوسنا.

إن الشجب والغضب والاحتجاج لم يعد يجدي ولا بد لنا من خطوات عملية وتحركات إيجابية تحسباً لأبعاد المصير.. وأن نعمل على ألا تضيع منا المكاسب التي نحصل عليها اليوم لأن انتظارنا للغد سيكون خسارة كبرى ولن نستطيع استدارك الموقف بعد فوات الأوان..

لذلك أكتب اليوم منبهاً ومحذراً وواجباً أن نستعد لمواجهة هذا القادم لغزونا فنأخذ منه الصالح ونطرد غير الصالح ـ ولا بد أن يسبق هذا تحصين لأولادنا وتأمين لهم ضد الانبهار والانقياد خلف الزائف وعلينا أن نتذكر دائماً أن كثيراً من القضايا التي تكون إيجابية لمجتمع ما قد تكون سلبية لمجتمع آخر.

وإذا كان الاستعمار يعتبر الإعلام قوة وسلطة ـ وأن هذه السلطة لم توزع بالتساوي وأنهم يستفيدون بهذه القوة في المجالات السياسية فمن واجبنا أن نحاول معرفة من هي هذه القوة الحقيقية التي تسيطر على الإعلام العالمي وتسيره وتحدد له خطواته.

كما أن من واجبنا أن ندرك النقطة الأساسية التي يجادلوننا فيها ـ موضوع حرية الاتصال ـ وأن كل إنسان في العالم لا بد وأن تكون لديه الحرية في أن يقرأ ما يشاء ويسمع ما يشاء ويشاهد ما يشاء.. وأن من حقه تلقي الأنباء وإذاعتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأية وسيلة حسب المادة (١٩) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ونظام اليونسكو الأساسي.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا هو..

(كيف يمكن تطبيق هذا المبدأ ـ مبدأ الحرية ـ في وقت تفرض فيه على الإنسان في دول العالم الثالث موجات متتالية من المعلومات دون تمييز أو فرصة للاختيار.. فهو في جميع الأحوال مستقبل لا أكثر ولا أقل وحتى عملية الاستقبال هذه لا خيار له فيها؟).

والأصل في العملية أن تكون مزدوجة ـ أي أننا نثري العالم بما لدينا ونستفيد بما لديه لنحقق عملية تفاعل لا ننكرها ولا نرفضها ـ بل هي تلك التبادلات الثقافية التي نسعى إليها ولا نخشاها ـ ولكن الخطير في الأمر هو أن ما يتم بواسطة هذه الأجهزة هو غزو وليس تبادل ـ معلومات ـ ولا بد من وضع نظام إعلامي أكثر عدلاً وأكثر إنصافاً وأكثر إنسانية ـ نظام يتيح للإنسان في جميع أنحاء المعمورة حق الاتصال الحقيقي ولا يسمح بهيمنة ثقافية مطلقة تفرضها الدول الصناعية على الدول النامية..

فمهما اختلفت الطاقات الصناعية إلا أن لكل أمة موروثاتها وقيمها وحضارتها التي يمكن أن تساهم بها في إثراء الحضارة البشرية ككل وليس من العدل أن نحرم من هذه

الحقوق وأن تفرض علينا ثقافات ومعلومات لدول أخرى لمجرد أنها تملك التكنولوجيا ونحن لا نملكها فيحدث هذا الخلل في النظام الإعلامي ويترتب عليه ما ذكرنا من أضرار وأخطار نرجو الله أن يجنبنا إياها وأن يهدي تلك الدول المصنعة سواء السبيل فتضع نظاماً إعلامياً جديداً يضمن الصالح العام للبشرية جمعاء.. وأن يوفق الدول النامية للعمل الجاد المخلص الذي يمكنها من مسايرة ركب الحضارة ويأخذ بيدها نحو مستوى أفضل تحافظ فيه على قيمها ومبادئها.. وتصوغ فيه ثقافة أبنائها على هدى من هذه المبادىء والقيم التي ارتضتها لهم.. وتحميها من التشويه وما يخلفه من عاهات ثقافية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من يصحح المعادلة الاعلامية في العالم

من المؤسف حقاً أن نظام الإعلام العالمي الحالي بل وحتى المستقبلي القريب يتسم باختلاف أساسي بسبب عدم التوازن الذي فرضته الدول الكبرى على عملية تبادل المعلومات.. حتى أصبحت معظم البلاد النامية.. وبصورة خاصة في عالمنا الإسلامي مجرد بلاد مستهلكة للمعلومات التي تصدر إليها ولعل الصورة تكون أشد خطورة.. والهوة أكثر اتساعاً إذا أخذنا في الاعتبار عصر الفضاء واستخدام الأقمار الصناعية.. وقد جاء هذا الاختلال وعدم التوازن بسبب الهيمنة التي تفرضها الدول المتقدمة من خلال السيطرة التي تملكها وخصوصاً عن طريق تملُّكها للتكنولوجيا الفنية العالمية.. وسبقها في هذه المجالات وبسبب تملك الدول المتقدمة وسيطرتها على هذه الأجهزة عن طريق الاستثمار المباشر فيها وعن طريق احتكار الإعلان بطريقة أو أخرى في أنحاء متفرقة من العالم.. وعن طريق سيطرتها على وكالات الأنباء

والإعلان.. حتى أصبحت عملية الإعلان.. في الصحف والمجلات.. والتلفزيون.. والإذاعة.. وعملية التمويل للأجهزة الفنية أدوات للسيطرة الثقافية بل وقد تسيء في بعض الأحيان إلى ثقافة البلد المستقبل وتشوه تاريخه.. وحضارته ومع ذلك فهو يستقبل برامجها ويبثها دون حول ولا قوة وحتى في الحالات التي تتعارض مع قيمه.. وقد تضر بجهود البلاد النامية ومخططاتها الاقتصادية.

ولعله من الواجب الإشارة إلى أن الدول المتقدمة تفرض عبر قنواتها الخاصة رؤية محددة على الدول النامية وذلك بأن ترسل إليها عبر القنوات المحتكرة للاتصال أنباء معينة تكون قد عولجت بطرق تناسب أفكار الدول المرسلة وقد تشوه صور الدول النامية وتكون مشوهة أو مبتورة.. وقد تصور هذه الدول بصورة مجحفة.. وتركز على المشاكل والأزمات والاضطرابات.. والمظاهرات.. وقد تعرضها بصورة تدعو للسخرية أحياناً.. وحتى في الوقت الذي تسعى فيه دول العالم الثالث إلى إظهار جهودها فلا يكون ذلك إلا عن طريق ملاحق صحفية مدفوعة الثمن..

وهكذا يرسخ الوضع العالمي والنظام الإعلامي الحالي بقاء نوع رديء من الاستعمار السياسي والثقافي والاقتصادي عن طريق قنوات الاتصال والإعلام ونراه يركز على أحداث تافهة أو بسيطة في الدول النامية ويضخمها ويكبرها ويهولها..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصوغها بطرق تخدم الصورة التي يريد تقديمها عن هذه الدول النامية..

وفي بعض الأحيان يلزمون الصمت عن أحداث معينة.. لأنها لا تخدم مصالحهم. وهكذا لا تغطي أخبار الدول إلا بالقدر الذي يخدم مصالح هذه الدول الكبرى.. ومجتمعاتها.. ثم يأتي موضوع توزيع مصدر الطيف.. وهنا تبدو مشكلة حقيقية لأن الدول المتقدمة حصلت على نصيب الأسد في مجال توزيع الذبذات.. وعمدت إلى ترسيخ هذا الحق.. أو الباطل الذي سمي حقاً وذلك عن طريق مادة تنص في نظام الإذاعات على بقاء المصالح المكتسبة فيما يتعلق بتوزيع الطيف ولهذا فإن الدول النامية أصبحت في ورطة وأخذت تعاني من معضلات حقيقية وهي تبني محطاتها الإذاعية الجديدة.. لأن جميع الذبذبات محتكرة.. ولن تحصل هذه الدول الضعيفة إلا على ذبذبات رديئة.. لا تفي ولا حتى بالحد الأدنى اللازم لبث إذاعي جيد.. وكأن هذه الدول الكبرى تسيطر على التراب الوطني لهذه البلاد النامية إذاعياً وتحرمها من حقها في الانتشار داخل مجموعاتها القومية.. أو السياسية فضلاً عن الانتشار في العالم.

وكما يقول الأستاذ مصطفى المصمودي كاتب الدولة للإعلام التونسي سابقاً فإنه: «ينتظر بسبب عدم وجود تنظيم فعال أن تزداد أوجه عدم المساواة الراهنة في هذا المجال، مع

تدعيم حقوق الأقوياء بصورة يستحيل علاجها وغني عن البيان أن تقدماً كبيراً جرى في هذا الميدان بحيث أنه في غياب التنظيم الكافي يتوقع حدوث غزو حقيقي من الإذاعات والبرامج التلفزيونية يبلغ درجة انتهاك الأراضي الوطنية والمساكن الخاصة ويشمل في الحقيقة شكلاً من أشكال انتهاك العقول.. ويتعين شجب هذا الخطر بكل الوسائل الممكنة»[1].

وهناك مشكلة الجوانب الفنية التي تضيف أعباء وعوائق كبيرة على عاتق الدول النامية لأن طريقة الاستفادة من هذه القنوات في الماضي وما صاحب ذلك من هياكل ونظم موروثة تجعل من الصعب على الدول النامية الاستفادة الصحيحة من هذه الإمكانات.. وتؤدي إلى حرمانها من استخدام أمثل لقنوات الاتصال ويبدو الظلم والإجحاف واضحاً عندما نلاحظ أن الدول المتقدمة تستفيد من أفضل قنوات الاتصال بتكاليف زهيدة.. لمجرد أنها سبقت تكنولوجياً دون أن تأخذ في الاعتبار حاجة هذه الدول النامية إلى نفس الاستفادة وعجزها عن دفع تكاليف مرتفعة.. فالدول المتقدمة تستفيد بكمية أكبر وقنوات اتصال أوسع وبتكاليف زهيدة..: «وقد

(١) النظام العالمي الجديد للإعلام ـ وثيقة مقدمة من السيد مصطفى المصمودي كاتب الدولة للإعلام بتونس للجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمكنت الدول المتقدمة بفضل سبقها التكنولوجي ونظام رسوم المواصلات الدولية الذي أرسته، من أن تستفيد من أوضاع وامتيازات احتكارية سواء عند تحديد فئات نقل المطبوعات والمواصلات السلكية واللاسلكية أو في استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وقد أخفقت آخر محاولات لمعالجة هذا الوضع مثل محاولات المؤتمر الإقليمي الإداري للإذاعة بالترددات المنخفضة/ الترددات المتوسطة ـ ولا سيما في المنطقتين الأولى والثانية ـ ولقد انحصر نتاج هذا المؤتمر في التصديق روتينياً على وضع واقعي ضار بمصالح البلاد الصغيرة.

ويرجح أن يعمق البدء في استخدام التوابع الصناعية من عدم التوازن هذا إذا لم يتخذ قرار دولي حاسم وإذا لم تقدم المساعدات التكنولوجية إلى البلاد النامية. ويتبدى عدم التوازن هذا بصورة خاصة في المجالات التالية:

المواصلات السلكية واللاسلكية:

إن البنى والأنماط الراهنة لشبكات المواصلات السلكية واللاسلكية القائمة بين البلاد النامية تقوم فقط على معايير الربحية وحجم الحركة، ولذلك تشكل عائقاً خطيراً في سبيل تنمية الإعلام والاتصال. وهذا العائق يؤثر في كل البنى الأساسية ونظام الرسوم.

وفيما يتعلق بالبنى الأساسية يلاحظ فضلاً عن عدم وجود

اتصالات مباشرة بين البلاد النامية أن شبكات الاتصال مركزة في البلاد المتقدمة ـ ويمنع تخطيط البنى الأساسية الذي وضعته القوى الاستعمارية السابقة فيما يتعلق ببعض البلاد النامية أي إمكانية لإرسال المعلومات فيما وراء حدودها (محطات الأرضية تسمح فقط باستقبال برامج التلفزيون المنتجة في البلاد الصناعية دون إمكانية للإرسال نحو تلك البلدان»[1].

ويحلل الأستاذ المصمودي ظاهرة الرسوم، كيف إنها قد صممت لغير مصلحة الدول النامية ويقول إنه: «فيما يتعلق بالرسوم فالوضع أكثر مدعاة للدهشة بل وغير منطقي البتة في بعض جوانبه، فنظام الرسوم الراهن المصمم لغير صالح الإرسالات يشجع استمرار قبضة البلدان الغنية على خناق تدفق المعلومات. وأقل ما يقال في هذا الشأن أن من الغريب أن تكلفة الإرسالات عبر مسافة ما بين نقطتين داخل البلاد النامية أكثر مما تكلفه بين نقطتين بينهما نفس المسافة في البلاد المتقدمة كذلك ليس هناك ما يبرر أن يتكلف نقل الرسالة نفسها من بلد متقدم إلى بلد نام مما لو نقلت في الاتجاه المضاد وأن بقاء بعض الممارسات التي لا تتفق والعصر في حد ذاته

---

(١) النظام العالمي الجديد للإعلام ـ وثيقة مقدمة من السيد مصطفى المصمودي كاتب الدولة للإعلام بتونس للجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لتفسير بعض المعايير السارية فلماذا على سبيل المثال تتكلف دائرة صحفية تلغرافية أحياناً مثل دائرة تلفونية أو ربما أكثر منها. وكيف نقبل الميزة التي تتمتع بها وكالات الأنباء الكبرى التي تضمن ـ نظراً لكثافة حركة رسائلها ـ استخدام الدوائر كل الوقت بتكلفة لا تزيد في بعض الأحيان عن متوسط الاستخدام اليومي لمدة ساعة واحدة؟.. ويزداد الوضع سوءاً في بعض البلاد بسبب تأجير شبكة المواصلات السلكية واللاسلكية لشركات أجنبية علة وجودها هي الاستغلال والربح وتوجيه حركة الرسائل الدولية إلى بلادها الأصلية.

التوابع الصناعية

رغم أن مؤتمر جنيف لعام ١٩٧٧ م حاول وضع المقومات الرئيسية لإجراء يهدف إلى منع الخروج عن الاستخدام الرشيد للتوابع الصناعية فما زالت البلاد النامية مهددة بالاستخدام الفوضوي للفضاء الجوي الخارجي مما قد يزيد اختلال التوازن الذي يؤثر على شبكة المواصلات السلكية واللاسلكية حالياً.

توزيع الترددات الإذاعية:

تبرز اليوم بصورة ملحة مشكلة تخصيص طيف الترددات، وهو مورد طبيعي عالمي لكنه محدود.. والواقع أن

البلدان النامية أكثر تصميماً اليوم من أي وقت مضى على أن تتحدى بقوة الحقوق التي ادعتها لنفسها الدول المتقدمة في استخدامها لطيف الترددات، كما أنها عازمة أيضاً على الحصول على نصيب عادل من هذا الطيف. ومن المعروف عامة أن عدداً قليلاً من الدول المتقدمة تسيطر على حوالى ٩٠٪ من مصدر الطيف، وأن البلدان النامية، وإن كانت تغطي مساحة أوسع امتداداً، إلا أنها تملك قنوات أقل مما تملكه البلاد المتقدمة. أما كثافة الطاقة لكل كيلومتر مربع فهي أقل بمقدار أربع مرات في البلاد النامية منها في البلاد المتقدمة»[1].

فلا بد إذاً والحالة هذه أن يتم تغيير جذري في النظام الحالي الذي يحكم العلاقات الإعلامية.. وعملية الاتصال بين الدول المتقدمة والدول النامية بحيث تكون علاقة محترمة.. وعادلة ولو إلى الحد الأدنى لاحترام حقوق الإنسان في العالم الثالث وحقه في الاتصال.. وفي الإعلام بنفسه بدلاً من هذه العلاقة القائمة والتي تجعل فئة مسيطرة وفئة خاضعة مغلوبة على أمرها.. لا شك أن مثل هذا النظام الجديد سيجد له في ميثاق الأمم المتحدة والأعراف الدولية المحترمة لحقوق الإنسان

---

(١) النظام العالمي الجديد للإعلام ـ وثيقة مقدمة من السيد مصطفى المصمودي كاتب الدولة للإعلام بتونس للجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما يدعمه ويبرره ويبرز منطقيته.. ولكن هذا النظام الجديد.. لن يكون من السهل الوصول إليه.. فدونه ما دونه من صعوبات وكما يقولون دونه قطع الرقاب.. أو خرط القتاد.

«إذا كان من الطبيعي في أيامنا أن نسعى إلى تحقيق نظام عالمي جديد تقوم على أساسه وبمقتضاه علاقات الدول في شتى المجالات فقد بات من الطبيعي أن يحاذي هذا النظام لتدعيمه وتثبيت أقدامه، نظام علمي جديد يتصل بالإعلام كفيل بالاستجابة لرغباتنا. إن هذه الفقرة المقتبسة تعبر تماماً عن السؤال عما ينبغي أن ينطوي عليه هذا النظام العالمي الجديد للاعلام. فرغم أن الرأي العام يزداد تقبلاً لمبدئه إلا أن مضمونه ما زال غير محدد.

وينبغي التأكيد على أن هذا النظام الجديد يتطلب إعادة تكيف كاملة فهو ليس وصفة جاهزة قادرة على تحويل الوضع الجائر بين ليلة وضحاها إلى وضع أقل جوراً فالوضع الراهن نتاج تاريخ طويل ولذلك يمكن إصلاحه سريعاً والأحرى أن يكون الهدف هو البدء في عملية تجري في هذا الصدد على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية لأن الأمر يحتاج إلى تدابير محددة فعالة في مناقشات أكاديمية»[1].

(١) النظام العالمي الجديد للإعلام ـ وثيقة مقدمة من السيد مصطفى المصمودي كاتب الدولة للإعلام بتونس للجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام.

ولعل من أهم الركائز لهذا النظام هو أن تسير الدول النامية بصورة جادة نحو الاستغلال الثقافي والإعلامي الأمثل.. حتى تصبح دول منتجة في هذه القطاعات وليست مجرد مستهلكة وعالة على الدول الكبرى.. ولا بد أن يسمع صوتها دولياً حتى تدخل هذه الحقيقة إلى عقل.. ووجدان الدول الكبرى.. لتقتنع بأن هذه الدول مظلومة ومهدرة الحقوق.. وتساعدها بعد أن تساعد الدول النامية نفسها.. بالعمل.. وباستشعار المشكلة.. فما لم تشعر الدول بطبيعة هذه المشكلة.. فإن أحداً لن يتقدم لنجدتها ولهذا فلا بد أن ندرك جميعاً أبعاد وخطورة الوضع الراهن ثم نعمل كما ذكرت على إيضاح الأمر للرأي العام العالمي.. وإثارته واستنفار المؤسسات والهيئات الدولية حتى يدرك الجميع طبيعة وضعنا وحقيقة مشكلتنا...

ولا شك أن هناك أهمية كبرى تقع على عاتق القادة.. والمنظرين للأمة.. والمفكرين فيها لكي تتخذ الخطوات المناسبة في الطريق الصحيح.. وأهمها أن يكون لدينا تعريف واضح.. وسياسة محددة.. تترجم هويتنا الثقافية.. ومعطياتنا الحضارية وتوجهاتنا التربوية.. على أسس واضحة من عقيدتنا.. وقيمنا.. ومقوماتنا وأن نربط ذلك كله.. بالسياسة الإعلامية وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.. لبلادنا جميعاً.. ثم نعرف موقفنا من هذا العالم الذي يؤثر فينا.. ومن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المفروض أن نؤثر فيه ولا شك أن عملية الترابط.. داخل التراب الوطني مهمة جداً.. ثم داخل مجموعاتنا السياسية والإقليمية.. وهكذا وإلا فكيف نريد من العالم أن يفهمنا إذا لم نفهم بعضنا بعضاً.. وأن يقدرنا إذا لم نقدر بعضنا بعضاً.

«أليس من المفارقة المحزنة أن لا نعرف معلومة أو خبر عن الأردن إلا عن طريق وكالة أنباء رويتر؟؟.. وأن لا نعرف عن بنغلاديش إلا أنها دولة تكثر فيها الاضطرابات والقلاقل والفيضانات والفقر لأن وكالات الأنباء لا تنقل إلينا إلا هذه الصورة القاتمة السوداء عن هذا البلد المسلم الشقيق؟؟.. إن هذه المفارقات المحزنة ما هي إلا صورة من صور المعاناة التي نعيشها في عالمنا الإسلامي بسبب اعتماد وسائل الإعلام لدينا على وكالات الأنباء الأجنبية في معرفة أخبار بعضنا بعضاً بالإضافة إلى محدودية حجم هذه الأخبار فإنها لا تمثل الواقع إذ لا تقدم منه إلا ما يتعلق بالكوارث والقلاقل والسلبيات، أما غير ذلك من الأخبار الإيجابية فهي لا تمثل قيمة حقيقية لوكالات الأنباء الغربية لأن مفهوم الخبر الغربي يقوم على الإثارة الصارخة جرياً على مبدأ (إذا عض كلب رجلاً) فهو ليس بخبر ولكن إذا عض رجل كلباً فذلك هو الخبر ولهذه المعاناة صور أكثر إيلاماً وأبشع تأثيراً فوكالات الأنباء الأجنبية هي التي تصنع الرأي العام العالمي وتشكل رؤيته عنا نحن

العرب والمسلمين ولا عجب أن ينظر العالم إلينا نظرة الازدراء لأننا «قوم همجيون قساة القلوب نعبد المال والجنس ونحتقر المرأة ونحب الحرب ونكره السلام» ولا عجب أن ينظر العالم إلى ديننا تلك النظرة وأن تتكون لديه هذه الصورة الذهنية عنا، لأن وكالات الأنباء ووسائل الإعلام الغربية الأخرى تمد تلك النظرة بأسباب البقاء والنماء، كما أنها تشحن أذهان الناس بكل ما يرسخ معالم الصورة الذهنية البشعة عنا والتي تكون لديهم عبر الأيام»[1].

وعلينا أن ندرك أهمية بناء الرجال الذين يقومون على تنفيذ هذه السياسة.. وجعل أعباء تسيير مثل هذه المشروعات التي تحتاج إلى همم، وعمل.. وحزم.. وتتابع وجدية.. ورؤى واضحة..

ومن المهم أن تكون نظراتنا واقعية.. وتحركاتنا محسوبة بدقة.. وخططنا بعيدة عن الخيال والوهم.. وأن تتعاون جهات التعليم والثقافة والإعلام لصناعة الرجال القادرين حتى لا يحدث الخلل الذي أشرت إليه سابقاً.. وينتج عنه بطالات بشهادة عالية.. في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى أيد.. مدربة.. تحمل أعباء التنمية في البلاد.

(١) وهذا الحلم ـ مقالة للدكتور عبد القادر طاش نشرت بمجلة اليمامة العدد ٩٣٧ بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا بد من ربط.. يسمح للدول النامية بأن تتعاون فيما بينها بسبل علمية ومنطقية تقوم على أسس من الاحترام المتبادل الذي يجعل المعلومات.. والإنتاج ينتقل فيما بينها بطرق تسعد الجميع وتحترم حقوق الجميع.. بعقول متفتحة.. وأفكار واضحة في مناخ من العدل والمساواة وأن لا نشغل بعضنا بعضاً ولا أن نرتكب نفس الأخطاء التي نشكو منها عند التعامل مع الدول المتقدمة.. وعلينا ونحن نحاول أن نسمع صوتنا للعالم أن نسير على بصيرة ووعي لتصل احتجاجاتنا ومطالبنا بأسلوب تفهمه شعوب هذه الدول.. ويلفت نظرها إلى طبيعة الاختلال في التوازن الحاصل وأن الهوة تتسع.. والفجوة تزداد وهذا لا يخدم المجتمع الدولي على المدى الطويل وبهذا نكسب تعاطف هذه الشعوب معنا ونتدرج في تصحيح المعادلة الإعلامية والثقافية.. ومن ثم الاقتصادية.. والاجتماعية.. حتى نزيل الطابع الاستعماري من إعلامنا وثقافتنا.. ونتخلص من استعمار تخلصت منه الدول بطرده من الباب فدخل من النوافذ ولا بد أيضاً من صحوة.. لإبعاد الغزو الجديد.. والهيمنة الجديدة.. وبخاصة في مجال الصحافة ووكالات الأنباء.. وعلينا أن نفرق بين ما يفد إلينا من غث أو دس.. أو تشويه.. وأن لا نصبح مجرد وسائل تردد ما يبث إليها دون تثبت أو تدقق في صحة أبعاد هذه المعلومات.. وعلينا أن نثق في مصادر أخبارنا وأن نعتمد على بعضنا.. ونطور التبادل

بصورة أوسع.. وأن نطور أنفسنا وإمكاناتنا وأن ننفتح على العالم ونقدم أشياء محترمة وموثوقة.. وصحيحة من جميع الجوانب الفنية والإعلامية.

وعلينا أن نكافح بكل جهد هذا الغزو السافر لنا والذي يتركز على شكل محطات إذاعية تقوم بتشويه عقائد الأمة وتشككها في قيمها.. وموروثاتها الإنسانية وهذا لون خبيث ومباشر.. تعاني منه الكثير من الدول النامية..

إن عملية تغير النظام الإعلامي العالمي.. عملية مهمة ولكنها شاقة ودقيقة.. ومعقدة.. ولكنها ضرورية وجوهر هذه العملية كما يقول الأخ الدكتور أحمد أمبو مدير عام اليونسكو.. هو العمل على إقناع الرأي العام العالمي بأن المشكلات عالمية وبأن العالم بكل ما يحويه من تنوع ان هو إلا كون واحد يتألف من عوامل متداخلة متكافلة وبأن هناك تضامن أساسي بين البشر وبأن الحلول القائمة على التوفيق تخدم مصالح الجميع..

ولكن. وهذا هو السؤال المهم في رأيي هل نحن مقتنعون بهذا الأمر.. قبل أن نتحرك لإقناع الآخرين؟؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مع التحيات إلى ماليزيا

ماليزيا بلاد جميلة كل ما فيها يوحي بالهدوء ويبعث في جوانب القادم إحساس بالدفء.. والحب. وأهلها فيهم سماحة.. ووداعة وحسن ضيافة.. ولقد أحسست في كل مرة أزور فيها هذه البلاد براحة نفسية.. وهدوء.. وطمأنينة تملك علي جميع جوانحي. وتمنحني شعوراً جميلاً بالسعادة.. وكان مما يزيد في إحساسي هذا في الماضي.. وجود سفير قدير.. وإنسان كريم.. ونفس ذكية.. هو الشيخ العزيز ابن حاتم طي القرن العشرين أبو سليمان.. محمد الشبيلي أسأل الله له تمام الشفاء.. والحفظ من كل مكروه.. ولقد أسعدني أن اختار خادم الحرمين الأخ الكريم الداعية فؤاد الخطيب.. ليكمل المشوار سفيراً في ماليزيا.. وأسأل الله أن يجعله خير خلف لخير سلف.. وكلاهما خير إن شاء الله.

ولقد ذهبت إلى ماليزيا هذه المرة كرجل أعمال.. وهو

أمر استغربته في أول الأمر.. ولكن الصديق العزيز محمود حسوبة رئيس بنوك البركة.. أقنعني بأني فعلاً من رجال الأعمال.. لأنني ممن يتعاطون صناعة الوراقة.. فأنا من الوراقين.. وبذلك أكون من رجال الأعمال فصادف هذا هوى في نفسي.. وألقى بذلك في روعي فجلست مع رجال الأعمال.. والحق أنها كانت فرصة طيبة للالتقاء بصفوة من رجال الأعمال الماليزيين والسعوديين. الذين قدموا إلى ماليزيا لتدارس فرص الاستثمار فيها وتبادل الخبرات مع رجال الأعمال الماليزيين.. وقد كان الهدف الأساسي هو التعاون ودعم أواصر الإخاء.. وتشجيع التجارة مع بلد أغلبه من المسلمين.. وفيه الكثير من المواد. والبضائع التي تصلح لنا.. ونستوردها من كثير من بلاد العالم.. وربما تورد إلى بلادنا بضائع عن طريق أوروبا تكون مصنوعة أصلاً.. أو ذات نشأة ماليزية أو أندونيسية أو نحو ذلك.

ولقد كانت اللقاءات في «كوالامبور». وهي عاصمة ماليزيا لقاءات ممتعة كما ذكرت ويشعر الإنسان من أول وهلة بحب هؤلاء الناس.. وقربتهم.. وأنهم يحبوننا ويسعدون للاقتراب منا أكثر فأكثر وبحيث لا يخطىء القادم في الإحساس بهذا الحب.. وهذه العلاقة الإنسانية الكريمة ولعله من المناسب أن أعطي القارىء فكرة عابرة عن هذه البلاد الجميلة.. والنظيفة.. قبل الدخول في موضوع الاستثمار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفرص الاستثمار ونحو ذلك.

فهذه البلاد قريبة من خط الاستواء بين خطي (١ ـ ٧ شمالاً وبين خطي ١٠٠ ـ ١١٩ شرقاً وهي على شكل هلالي جميل وتضم منطقتين تفصلها مسافة ٧٥٠ كيلومتر من جنوب بحر الصين. . وشبه جزيرة ماليزيا لها حدود مع شمال تايلاند. . ومن الجنوب تتصل بجمهورية سنغافورة. . ويربطها بها طريق مرتفع لعبور المستنقعات وعبر مضيق ملاكا تتصل بجزيرة سومطرة الأندونيسية. . وتقع جزر الفلبين في الشمال الشرقي من ولاية صباح وتتكون منطقتي ماليزيا من:

١ ـ منطقة شبه الجزيرة الماليزية وتمتد من برزخ أكرا إلى مضيق جوهور.

٢ ـ منطقة صباح وساراداك بالساحل الغربي من جزيرة برونيو.

والجو الذي يسود البلاد جو استوائي وتهب عادة رياح موسمية جنوبية غربية ورياح موسمية شمالية شرقية. . ومتوسط الأمطار بين ٢٠٣٢ إلى ٢٥٤٠مم سنوياً. . والحرارة اليومية بين درجتي ٢١ ـ ٢٢ مئوية. . وفي المناطق المرتفعة من ٢٦ ـ ٣٠' مئوية. والرطوبة تصل إلى ٨٪.

والناس في ماليزيا لهم طباع هادئة. . ويتمتعون بأدب كثير. . ويميلون إلى القناعة. . ولذلك فكثير من النشاطات

التجارية والأرباح تمر عبرهم إلى سنغافورة. . وبعض بلاد الشرق المجاورة. . حتى أن المواد الخام التي تصنع منها الكثير من البضائع يكون مصدرها الأصلي ماليزيا. . ولكنها تصنع في غيرها. . وقد تصدر إليها مرة أخرى. . ولكنهم الآن أكثر حرصاً مما مضى. . وقد تنبه رجال المال والاقتصاد لأهمية التصنيع. . وعكفوا على خطط وبرامج تدعو إلى التفاؤل. . ويمكن تلخيص الوضع الاقتصادي والسياسة الاقتصادية الجديدة منذ مطلع عام ١٩٨٣ م فيما يلي:

السياسة الاقتصادية الجديدة منذ مطلع عام ١٩٨٣م:

شهدت المرحلة منذ بداية عام ١٩٨٣م بداية لسياسة اقتصادية جديدة في ماليزيا كانت ملامحها ومرتكزاتها الرئيسية متمثلة في تقليص الانفاق الحكومي وتشجيع القطاع الخاص والمبادرة الفردية والاستثمار الخاص لتحمل أعباء التنمية في البلاد في الحقبة القادمة. . كما تضمنت السياسة تحويل ملكية عدد من المشروعات الحكومية إلى القطاع الخاص لتخفيف الأعباء المالية الملقاة على عاتق الحكومة الفدرالية.

ومن بين عناصر استراتيجية الحكومة لحفز الاستثمار الخاص تقديم المزيد من الحوافز له وتحريره من القيود في مختلف الميادين والعمل عموماً على خفض كلفة الاستثمار في ماليزيا. . وبشكل خاص يمكن ذكر الإجراءات التالية التي طبقتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلطات الماليزية مؤخراً:

١ - تخفيض القيود على درجة المشاركة الأجنبية في رأس المال المساهم للمشروعات المقامة في ماليزيا بحيث يمكن للمستثمر الأجنبي المساهمة الكاملة (١٠٠٪ ملكية) في المشروعات المقامة لأغراض تنمية الصادرات.

٢ - تحرير مستلزمات الحصول على تأشيرات الزيارة وتصاريح العمل لأي شركة ذات رأسمال أجنبي مدفوع يعادل ٢ مليون دولار أمريكي أو أكثر.

٣ - التعجيل بإصدار الموافقات اللازمة لترخيص إنشاء الاستثمارات الجديدة الأمر الذي يقلل من كلفة إنشاء هذه المشروعات الاستثمارية.

٤ - إصلاح سوق كوالالمبور للأوراق المالية بشكل يضمن حقوق المستثمرين.

٥ - تعديل القواعد الإرشادية للجنة الاستثمار الأجنبي ( ) لتجنب الحصول على موافقة اللجنة المسبقة لعمليات تداول أسهم الشركات للمبالغ التي تقل عن ٥ مليون دولار ماليزي.

٦ - تعديل برنامج البنك المركزي الماليزي المتعلق بإعادة تمويل ائتمان الصادرات (الخصم/ إعادة الخصم) بصورة

تضمن تنمية الصادرات.

وخلاصة السياسة الاقتصادية الماليزية في المرحلة الحالية أنه لاعودة لتطبيق العلاجات المقترحة في النظرية الكينزية ممثلة في الاعتماد على أدوات السياسة المالية ممثلة في زيادة الإنفاق الحكومي لحفز التنمية الاقتصادية.. وإنما فسح المجال أمام تنشيط فعاليات القطاع الخاص لتأخذ زمام العملية التنموية في البلاد.. وفي المقابل تتولى الحكومة مهمة توفير الإطار اللازم والمناخ الاستثماري المواتي والحوافز اللازمة ومرافق البنية التحتية اللازمة لنجاح هذه الاستراتيجية.

نظام الصرف في ماليزيا:

يعد نظام الصرف في ماليزيا نظاماً حراً. ولكن مستوى الأداء الاقتصادي أقل من مستوى الأداء في اليابان وتايوان وكوريا.. إلا أن نظام الصرف في ماليزيا يعتبر أكثر تحرراً من مثيله في تلك الدول.

والقيود الوحيدة على الصرف المعمول بها حالياً في ماليزيا هي:

١ - ضرورة إعادة عائد الصادرات بالعملات الأجنبية وبيعها لأي بنك في ماليزيا وذلك بهدف تشجيع عمليات سوق الصرف الأجنبي في البلاد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ ـ الاقتراض الخارجي بحاجة إلى موافقة مسبقة وهو مضمون للمشروعات التي تدر أو توفر العملات الأجنبية والغاية من هذا القيد هو معرفة حجم الالتزامات المستقبلية بالعملات الأجنبية على البلاد، إذ أن الاقتراض يمثل التزاماً مباشراً يجب الوفاء به مستقبلاً.. ويمكن للمستثمرين الأجانب الاقتراض بحرية من الخارج.

٣ ـ يحتاج غير المقيمين إلى موافقة مسبقة للاقتراض من سوق المال الماليزي وغاية ذلك أن يتم التأكد من أن المستثمر الأجنبي يدخل للبلاد النقد والتكنولوجيا اللازمين.

٤ ـ يمكن للمقيمين وغير المقيمين التصرف بأموالهم بحرية تامة فيما يخص المدفوعات إلى خارج ماليزيا إلا أن السلطات النقدية الماليزية لا تشجع مثل هذه التحويلات إلى الخارج إذا كانت الموارد المستخدمة لذلك من الداخل[1].

وقد نشط القطاع الخاص خلال عامي ٨٦ و٨٧ وبرزت مؤشرات إيجابية مثل:

(١) التقرير الاقتصادي الذي قامت بإعداده البعثة المشتركة للبنك الإسلامي للتنمية ومجموعة البركة للاستثمار والتنمية حول الأوضاع الاقتصادية والمناخ الاستثماري في ماليزيا.

١ ـ تواجد الشركات الخاصة التي تعتمد على تصريف منتجاتها في السوق المحلي طلباً ضعيفاً على هذه المنتجات وعليه فإن إيراداتها لا تزال ضعيفة.

٢ ـ أما الشركات التي تعتمد في تصريف منتجاتها عبر قنوات التصدير للخارج فهناك تحسن في الطلب على منتجاتها وفي أسعار المواد الأولية وعليه فإن إيراداتها في تحسن.

٣ ـ وبشكل عام فإن إجمالي إيرادات الشركات يميل نحو التحسن عام ١٩٨٧ م عما كان عليه في عام ١٩٨٦ م.

٤ ـ هناك تحسن عام في موارد وسيولة القطاع الخاص الأمر الذي مكن الشركات المحلية من زيادة رأس المال العامل لديها بشكل نسبي. غير أن معظم فائض السيولة المحلية قد جرى توظيفها في الأدوات المالية في السوق الثانوية للأوراق المالية بدلاً من توظيفها في الأصول المنتجة الثابتة التي تزيد من القاعدة الإنتاجية للاقتصاد الماليزي.

٥ ـ يظهر الجدول التالي تقديرات لحجم الاستثمارات المنفذ من قبل القطاع الخاص عام ١٩٨٦ م بالمقارنة مع إجمالي العائدات موزعة على حسب النشاط الاقتصادي والأرقام مبنية على مسح لأكبر (٢٢٠) شركة عاملة في القطاع الخاص.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استثمارات وعائدات القطاع الخاص حسب النشاط الاقتصادي
لعام ١٩٨٦ م (بالمليون دولار أمريكي)

النشاط/ القطاع	اجمالي الاستثمار	اجمالي الإيرادات
المطاط	٢٠,٥	٢١٩,٤
زيت النخيل	١١٦,٤	١٠٦٩,٨
الأخشاب	٦,٧	٥٨٧,١
التعدين	٥,٢	٢٦٢,٠
التصنيع :	٦١٣,٢	١٥٧٩٨,٣
(أغذية)	١١٢,٥	٣٧٩٢,٠
(منسوجات)	٢,٥	٣٢٤,٤
(منتجات معدنية لافلزية)	٣٠,٣	٥٣٦,٤
(منتجات كهربائية)	١٥٥,٤	٣٣٩٨,٠
(وسائل نقل)	٦٣,٤	٥٩٢,٢
(منتجات صناعية أخرى)	١٧٧,١	٤٩٠٩,٥
الإنشاءات	٧,٥	٤٧٤,٨
تجارة الجملة والمفرق	١٨٥,٨	٩٧٩٢,٦
الفنادق (أرقام نصف سنة فقط)	١,٤	٦٩,٤
البنوك والمؤسسات المالية الأخرى	٢٣٥,٩	٥٨٧٢,٢
التأمين والعقارات	٧,٣	١١٢٥,٥
النقل	١١٦,٤	٣٠٣٠,٧[1]

وقد اهتمت الدولة بحوافز الاستثمار ابتداء من عام ٨٦

(١) التقرير الاقتصادي الذي قامت بإعداده البعثة المشتركة للبنك الإسلامي للتنمية ومجموعة البركة للاستثمار والتنمية حول الأوضاع الاقتصادية والمناخ الاستثماري في ماليزيا.

وطورت نظام الحوافز السابق الذي صدر في عام ٦٨ م.

«ويغطي نظام حوافز الاستثمار الجديد عدداً أكبر من الفعاليات الاقتصادية مثل التصنيع والزراعة والفنادق وصناعة السياحة. . ويمكن تلخيص الحوافز التي يقدمها النظام كما يلي:

١ ـ المشروعات الرائدة.
٢ ـ الإعفاء الضريبي على الاستثمار.
٣ ـ تعديلات الدخل وفقاً لموقع المشروع وحجمه.
٤ ـ حوافز التصدير.
٥ ـ التخفيض المزدوج للنفقات المدفوعة لأغراض تنمية الصادرات.
٦ ـ إعفاءات إعادة استثمار الأرباح.

ولتشجيع نمو قطاع التصنيع تم تخفيض متطلبات ترخيص الشركات بحيث أصبحت موافقة الحكومة مطلوبة فقط للمشروعات التي يزيد رأسمالها الأسهمي على ٢,٥ مليون دولار ماليزي أو توظيف ٧٥ عاملاً فأكثر.

١ ـ المشروعات الرائدة

تمنح المشروعات التي تصنف كمشروعات رائدة إعفاءاً من الضريبة لمدة خمس سنوات تبدأ من تاريخ الإنتاج كما يحدده وزير الصناعة والتجارة في الشهادة التي يصدرها لتصنيف المشروع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويمكن للشركة أن تتقدم بطلب تمديد الإعفاء الضريبي لفترة ثانية شريطة أن يكون المشروع الرائد قد وظف استثماراً رأسمالياً لا يقل عن ٢٥ مليون دولار ماليزي (عدا الأراضي) لإنشاء المصنع والآلات المرتبطة بالإنتاج بنهاية فترة الإعفاء الأولى، أو أن يكون قد وظف ما لا يقل عن ٥٠٠ موظف دائمين خلال ذات الفترة.

٢ ـ الإعفاء الضريبي على الاستثمار

يعتبر بديلاً للنوع الأول من الإعفاءات. وقد تصل نسبته أيضاً إلى ١٠٠٪ من الإنفاق الرأسمالي المؤهل والذي تتحمله الشركة في أول خمس سنوات من تاريخ الموافقة على المشروع. ويتم منح هذا النوع من الإعفاء بصورة تخفيض في الدخل المعدل الخاضع للضريبة. كما يمكن لأي شركة عاملة أن تطلب الإعفاء الممنوح على رأس المال نظير ما تنفقه بصورة توظيفات رأسمالية مؤهلة.

ويمكن أيضاً لأي شركة مقيمة تبرغب في المساهمة في تطوير الأنشطة الرائدة أو إنتاج سلعة رائدة (كما تحددها السلطات الماليزية في جداول معدة لذلك الغرض) أن تتقدم بطلب للإفادة من مثل هذا الإعفاء الضريبي.

وفيما يلي مقارنة بين نوعي الإعفاء الضريبي سالفي الذكر:

أ ـ تعفى الأرباح الناجمة من عمليات المشروعات الرائدة أو الدخل المعدل وفقاً للنوع الثاني من الإعفاءات، تعفى من ضريبة الدخل على الشركات والبالغة (٤٠٪)، ومن ضريبة التطوير (٥٪) ومن ضريبة الأرباح الإضافية (٣٪).

وتجدر الإشارة أن الحكومة الماليزية قد ألغت مؤخراً (أكتوبر ١٩٨٧) النوع الأخير من الضرائب (ضرائب الأرباح الإضافية)، بحيث بقي نوعان من الضرائب على أرباح الشركات أو دخلها المعدل كما يلي:

- ضريبة الدخل على الشركات(٤٠٪)
- ضريبة التطوير (٥٪)

ب ـ تعفى من الضريبة الأرباح الموزعة على المساهمين من الدخل المعدل. ولو كان مالك الأسهم شركة، يمكن لها أيضاً أن توزع الأرباح المعفاة من الضريبة التي تسلمتها من الغير بصورة أرباح غير خاضعة للضريبة.

٣ ـ تعديلات الدخل

يعفى من الضريبة ٥٪ من الدخل (المعدل لأغراض الضريبة) لشركات التصنيع المقيمة والتي تنشأ في المناطق الصناعية وعددها حالياً ٨٤ منطقة صناعية في مختلف أرجاء البلاد. وتكون مدة الإعفاء (٥) سنوات متتالية على الأقل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى ولو صدر قرار حكومي بإلغاء المنطقة الصناعية التي يعمل فيها المشروع.

ويعطى نفس الإعفاء للمشروعات ذات الحجم الصغير لمدة (٥) سنوات فقط. وتعرف هذه المشروعات بأنها تلك التي لا يزيد حجم رأسمالها الأسهمي في أول يوم من سنة التقدير المعنية على (٥٠٠,٠٠٠) دولار ماليزي.

كما يعطى نفس الإعفاء لكافة المشروعات الصناعية بغض النظر عن حجمها ما دامت ملتزمة بالسياسة المعلنة من قبل وزير التجارة والصناعة فيما يخص توظيف اليد العاملة الماليزية أو المشاركة الرأسمالية.

٤ ـ حوافز التصدير

تم وضع هذا النظام من الحوافز في ضوء سياسة الحكومة الرامية إلى تشجيع صادرات البلاد من المواد المصنعة ولغايات تشجيع استخدام المواد الخام المحلية إلى الخارج.

وبموجب هذا النظام، تتأهل الشركة العاملة في مجال الإنتاج والتصدير لتخفيض في تقديرات الدخل المعدل تعادل المقادير التالية:

أ ـ معدل التخفيض × ٥٠٪ × الدخل المعدل حيث إنّ معدل التخفيض يمثل نسبة الصادرات إلى إجمالي

المبيعات (محلياً وخارجياً) وتحسب الصادرات على أساس (فوب) كما تشمل المبيعات إلى المناطق الحرة في ماليزيا وإلى بيوت التصنيع المرخصة.

ب ـ يتم تخفيض الدخل المعدل أيضاً بنسبة ٥٪ من قيمة المواد الخام المحلية التي استخدمت في الإنتاج لغايات التصدير، وهناك قوائم معتمدة لتحديد هذه المواد المحلية.

جـ ـ لا يمنح التخفيض على الدخل المعدل للسلع المصدرة التي تحددها الدولة وهي خمسة منتجات مثل صفائح التنك والمطاط الطبيعي وزيت النخيل الخام وزيت جوز الهند والخشب المنشور.

د ـ تمنح دخول شركات تصدير المنتجات الزراعية المقيمة والشركات التجارية الأخرى إعفاء بواقع ٥٪ من قيمة مبيعاتها التصديرية (فوب).

٥ ـ التخفيض المزدوج للنفقات المدفوعة لأغراض تنمية وترويج الصادرات

يجوز استثناء النفقات المدفوعة لأغراض ترويج الصادرات من الدخل الخاضع للضريبة كنفقات الإعلان والعينات الترويجية وتكاليف تحضير العطاءات ونفقات العلاقات العامة والمشاركة في المعارض والسفر للخارج ونفقات مكاتب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التصدير في الخارج ومخصصات سفر موظفي الشركة في الخارج لأغراض ترويج الصادرات بواقع ٢٠٠ دولار ماليزي للفرد في اليوم الواحد.

٦ ـ إعفاءات إعادة استثمار الأرباح

وتتمثل بشكل تخفيض على الدخل المعدل الخاضع للضريبة في حدود مبلغ يعادل (٢٥٪) من النفقات الرأسمالية للمصنع المرخص. ويقصد بالمصنع المرخص هو ذلك النشاط الذي تنفذه الشركة لتوسيع نشاطها القائم كما يوافق عليه وزير التجارة والصناعة.

وعليه فإن المبلغ المسموح بتخفيضه يعفى من ضريبة الدخل.

٧ ـ حوافز استثمارية أخرى

أ ـ مخصصات الإهلاك السريع:

وتمنح للمشروع والآلات بواقع ٢٠٪ كمخصص بداية العمل و٤٠٪ من الإنفاق الرأسمالي المؤهل في السنة الأولى و٤٠٪ من الإنفاق الرأسمالي المؤهل في السنة الثانية.

ب ـ مخصصات الأبنية الصناعية:

تمنح المباني المستخدمة لأغراض التدريب الصناعي

والأبحاث المرخصة تخفيضاً بنسبة ١٠٪ لبداية العمل، وتخفيضات سنوية بواقع ٢٪.

جـ ـ التخفيض المزدوج على أقساط تأمين ائتمان الصادرات:

ويمنح هذا التخفيض للمصدرين ما دامت شركة التأمين مرخصة من قبل وزير المالية.

د ـ التخفيض المزدوج لنفقات التدريب المعتمدة بموجب شهادة صادرة عن وزير العمل»[1].

ومما يلاحظ فعلاً أن المناخ الاستثماري بصورة عامة في ماليزيا يعتبر مشجعاً وهناك ترحيب واضح لدى رجال الأعمال المسؤولين في المستويات كافة وتبدو عليهم علامات الفرح بقدوم المستثمرين العرب.. وقد ألقى رئيس الوزراء كلمة رائعة في بداية المؤتمر.. عبر فيها عن المشاعر الطيبة لديهم تجاه الشعوب العربية واستثمارات رجال الأعمال العرب.. وأكد على الموقف الإيجابي لدى المسؤولين الماليزيين وتوجهاتهم الأخوية تجاه قدوم إخوانهم العرب.

والحق أن المسلمين هناك يحتاجون إلى تشجيع ودعم.. فعلى الرغم من أنهم أغلبية من ناحية عدد السكان إلا أن

(١) التقرير الاقتصادي الذي قامت بإعداده البعثة المشتركة للبنك الإسلامي للتنمية ومجموعة البركة للاستثمار والتنمية حول الأوضاع الاقتصادية والمناخ الاستثماري في ماليزيا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مساهماتهم في المجال التجاري ما تزال متواضعة.. وسوف يساعد الوضع الحالي كثيراً على الاستفادة حيث إنّ الدولة تحرص فيها على إعطاء دور قيادي للقطاع الخاص الماليزي عن طريق تقليل الدور الحكومي المباشر في الحياة الاقتصادية.. وعلى ذلك سوف يقتصر دور القطاع الحكومي على تهيئة المناخ الاستثماري المناسب للقطاع الخاص بحيث يتمكن من قيادة الاقتصاد القومي.. ومن هنا جاءت أهمية التعاون معهم للدين والدنيا.

ولقد سعدت في هذه اللقاءات بالتعرف على كثير من رجال الأعمال العرب والماليزيين وشعرت بفرحة وأنا أرى أجواء المؤتمر وقد عطرها عرف شذي من الروح الإسلامية وأحاط بها جو بديع من الإخاء والمودة.. كما فرحت بجهود شباب الندوة العالمية للشباب الإسلامي الذين عملوا وسهروا من أجل نجاح المؤتمر.. وجزى الله رجال البنك الإسلامي للتنمية.. والإخوة من رجال الأعمال الذين بذلوا الكثير من الجهد في سبيل نجاح هذا المؤتمر.

كما سرني اهتمام الأخ الدكتور أحمد محمد علي رئيس البنك الإسلامي للتنمية ورجال البنك بهذه البلاد وفرص الاستثمار فيها.. وتشجيعهم للعمل بها.. وتعبيرهم عن رغبة حقيقية في تنمية أوضاع المسلمين هناك.. وكذلك رجال الأعمال السعوديين الذين تسابقوا إلى هذا اللقاء.. وعبروا عن

رغبة صادقة في التعاون منطلقين من أسس الروابط الأخوية والتاريخية المشتركة بين البلاد العربية وماليزيا وأسسوا شركة قابضة وهذه الشركة ستكون ذات مسؤولية محدودة برأسمال قدره مائة مليون دولار أمريكي تقوم بجميع أعمالها بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية وتسعى لدراسة الفرص الاستثمارية في ماليزيا وإقامة مشاريع مستقلة بها بالاشتراك مع الشركات أو المؤسسات أو الحكومة الماليزية واتفق المؤسسون على تشكيل لجنة تكونت من كل من الشيخ صالح عبدالله كامل والشيخ سليمان العبد العزيز الراجحي والشيخ عبدالرحمن بن عبدالله بن عقيل ومؤسسة سار لاستكمال الإجراءات الخاصة بتسجيل الشركة.

وأسأل الله أن تكون الخطوات القادمة محاطة بالنجاح والتوفيق.. وان يكون الحضور أكثر.. وأكبر فعالية.

وما توفيقي إلا بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حميدة في كوريا

ما إن هبطت بنا الطائرة في مطار سيول بكوريا الجنوبية طبعاً.. حتى لاحظت كثرة تردد اسم حميدة.. وتبادر إلى ذهني أن مضيفي الذي استقبلني عند سلم الطائرة.. يسألني عنها.. وأردت أن أنفي معرفتي بها.. وأبرىء نفسي خشية من عواقب لا تحمد عقباها عند حكومة الظل في بيتنا.. لأن.. في بيتنا حكومة.. مع الاعتذار لصاحب الرواية..

ولكني فهمت بعد فترة أن حميدة هي كلمة تحية عند الكوريين.. ويسبقونها بكلمة خمسة.. أو همسة.. لتكون «خمسة حميدة» أي شكراً.. والحق أنني قد استمتعت بزيارتي على قصر مدتها إلى كوريا.. فقد تعلمت الشيء الكثير عن هذه البلاد وأهلها. ففيهم رجولة وفيهم «استندال» أيضاً.. وعندهم مروءة.. وعندهم لؤم كذلك ويحترمون الصداقة.. ولكنها لا تدوم إلا مع دوام الارتباط المادي أو المصلحة كما

يقول تشرشل... في تعريفه للصداقة بين الدول بأن هناك مصالح دائمة.. وليس صداقة دائمة..

المهم أن هذا الشعب الكوري.. شعب يحب العمل ويرهق نفسه.. في سبيل لقمة العيش حتى إن العمل لا يعتبر سمة أو صفة لهم فحسب بل هو حتى هوايتهم. شعب يعمل ليلاً ونهاراً.. الأب يعمل.. والأم تعمل.. والجدة تعمل والفتاة تعمل.. والطالب يعمل.. الكل في دوامة من العمل بلا ملل ولا كلل.. ومن الأشياء المسلَّم بها عندهم... أن القيادة في المنزل.. والسلطة مطلقة لصاحبته فالمرأة قوية جداً.. ومسيطرة على شؤون المنزل الداخلية.. وأغلب الشؤون الخارجية إلا ما سترها الله بستره.. والرجال مستسلمون.. راضون.. وقل أو ندر أن تجد رجلاً مستأسداً أو متمرداً.. وعندما سألت بعض من لقيتهم عن مدى إحساسهم بهذه الهيمنة.. والسيطرة «الحريمي» قال إنه مرتاح فهو.. يسلم لها القيادة ويتفرغ للعمل وبالتالي لا يحتاج إلى التفكير في العبء الإداري بالمنزل.. وفوجئت به يرد السؤال إلي.. فيسألني وهل أنتم كذلك في البلاد العربية...

وقلت له مستدركاً.. لا.. لا.. لسنا كذلك.. فنحن نسيطر على منازلنا إعلامياً وتسير الأمور وفق اتفاقات لا يعكرها غير بعض الاشتباكات على المحاور الشمالية والجنوبية.. مع بعض التراشقات الخفيفة وأحسست أني أتحدث وكأني أصف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حوادث بيروت.. فقلت مستدركاً..

لا نحب أن نتحدث عن منازلنا.. لأنها أسرارنا.. هل تفهمني.. البيوت أسرار ثم يا أخي ربنا سترنا فلماذا تريد أن تفضحنا.. وتبسم صاحبي. وخشيت أن يكون قد فهم...

والحقيقة أنه عوداً على موضوع صداقة الكوريين أقول إن معظمهم باعترافهم لا يولون موضوع الصداقة كثير اهتمام.. وهي تتناسب طردياً مع رباط المصلحة والعمل.. والمنفعة.. ولهذا فصداقتهم لا تطول عادة ولا يشعر الواحد منهم بأي غضاضة.. إذا ما توقف فجأة.. أو تنكر فجأة.. ولكن بدون أن يكيد لك.. وهو إنما يتعامل معك وكأنه عقد.. انتهى بانتهاء مدة صلاحيته وكذلك العلاقات الأسرية الحديثة ليست شديدة الترابط وقد كانوا في السابق يقدسون.. الأم والأخ الأكبر.. أما الآن.. فلقمة العيش أصبحت في المقدمة.. والقرش هو الصاحب والأخ.. والقريب.. ولكنهم شعب وديع ولا يؤذي الناس والجريمة والشغب قليل عندهم ولكنه.. شعب لا يعير الدين أو العلاقة بالله أي اهتمام.. اللهم إلا فئات قليلة من المسلمين غير التجاريين.. وبعض أهل الكتاب وفئات متدينة قليلة.. والبقية مرتع خصب لكل الدعاة. وسوق رائج للديانات بشكل مخيف.. يجعل من الصعب تمييز الصحيح من غيره والكذب من الصدق ولا لوم عليهم فإن الطريقة التي يتبعها بعض الداعين إلى الدين..

تبعث على مثل هذا السلوك الذي يبدو تجارياً في بعض الأحيان...

وللأسف الشديد فإن بعض الشركات الكبرى في الشرق عموماً تاجرت بالدين.. ودفعت الآلاف إلى اعتناق الدين الإسلامي لتحقيق أهداف معينة تهمها قبل أي اعتبار وشاء الله أن يتم نوره.. فترسبت بعض الفئات التي حافظت على جوهر الدين وقامت بدور بارز في نشره على أسس سليمة.. تجعل بعض المراقبين يتفاءلون بمستقبل زاهر ينتشر في ربوع هذه البلاد الخصبة إن سارت الأمور وفق إخلاص وعقيدة سليمة.. ونية صالحة وجهد صادق ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف ٢١].

والحق أن هناك عصبة تعمل في سبيل رفعة الإسلام داخل اتحاد المسلمين الكوريين وهناك جهود متفرقة لعدد من الدول الإسلامية.. ورابطة العالم الإسلامي والمؤتمر الإسلامي.. والبنك الإسلامي للتنمية.. ولكن الأمر يحتاج إلى جمع هذه الجهود المتفرقة وتوحيدها.. وصبها في قالب يخدم أهداف الدعوة الإسلامية هناك...

ولقد سرني حماس الأخ الصديق سعادة سفير المملكة العربية السعودية هناك وبعض زملائه الذين يبذلون جهداً لجمع كلمة المسلمين.. وتوحيد صفوفهم.. وأما بالنسبة لطبيعة الشعب الكوري فقد لاحظت أنه سهل الانقياد..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحب إطاعة الأوامر ويهتم بما يوكل إليه من عمل ولكنه لا يحاول اهتبال الفرص ولا التطوير في أمر أوكل إليه تنفيذه.. وإنما ينفذه بحذافيره وإذا سألته لماذا لم تفعل كذا.. يكون الجواب الروتيني...

- لم تأمرني بذلك..

ولعلها رواسب تاريخ الحكم الذي توالى عليهم فلم يعطهم الفرصة للتفكير.. أو الرفض أو التمرد.. منذ أيام الأباطرة الأول وما خلفهم ومن خلفهم.. ولا يعني هذا أن ليس لديهم إبداع.. مطلقاً.. وإنما هي سمة من سماتهم.. الطاعة العمياء التي تعتبر نقطة من نقاط قوتهم عندما يعملون كجماعة.. في شركة أو مؤسسة حيث يكون العمل منتظماً.. ومتواتراً ودقيقاً وصريحاً أيضاً...

وبالمناسبة فإن الشركات الكورية الكبرى التي عملت في المملكة وفي الخليج.. لم تكن وفية.. لتلك العشرة الطويلة فما إن هدأت الفورة البترولية حتى تنكروا لنا.. وبدأوا يتذمرون حتى من انخفاض معدلات الدفع في بعض دولنا.. وقلبوا ظهر المجن.. ورفضوا حتى مجرد التعاون في سبيل تسديد استحقاقهم.. ببعض إنتاجنا الذي كان مرغوباً عندهم.. أليس هذا «استندال» إن لم تكن «الندالة بعينها» ولكنها الحياة.. والاقتصاد.. والسياسة ولا دائم إلا وجه الله.. وخمسة حميدة «أو همسة حميدة».

أمريكا يوم خاص.. وحرية

واحتفلت أمريكا كلها بمرور مائتي عام ونيف على وجودها.. وصادف وجودي هناك في نيويورك.. هذه المدينة التي تضم المتناقضات.. ففيها الفضيلة وفيها الرذيلة.. والحضارة والهمجية.. والنظام والفوضى والرقة والعنف.. والالتزام والرفض.. إلى آخر ما هناك.. وهي مدينة لا بد أن يعشقها من يحسن العيش فيها.. فمظاهر الجمال فيها كثيرة ولكنها خفية أيضاً.

وقد ارتدت هذه المدينة الضخمة أجمل حللها وهي تحتفي بتمثال الحرية بعد أن أعيد ترميمه وإصلاحه.. وانتشر الضوء في كل مكان.. حتى أحالت أضواء الألعاب النارية جوانب المدينة إلى هالة من الضوء المتلون الساطع.. والطائرات تعبر سماءها وتبث دخاناً ملوناً.. وحتى المياه تلونت.. والبالونات في كل مكان.. احتفال حقيقي بحرية حقيقية.. فمن حق أمريكا أن تحتفل بعيدها.. وأن تقول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأنها بلاد الحرية وذلك لأنها بالفعل بلد تمارس فيه الحرية الفردية على أوسع نطاق وهي حرية يحميها القانون.. ولا يحدها.. ويحافظ عليها ولا يحول دون أي ممارسة صحيحة لها.

ولهذا فقد تدافع الآلاف من المكبوتين.. والمقهورين.. والمظلومين والمغلوبين على أمرهم في أنحاء العالم نحو هذه البلاد طمعاً في الحرية وهرباً من ظلم الحكام الطغاة.. والجبابرة الذين سحقوا شعوبهم وحرموها أبسط حقوقها في التعبير.. بالقول فضلاً عن الفعل والممارسة للشعائر أو الضمائر..

وأمريكا بلاد حرة.. ولكن السياسة في أوقات كثيرة تحول دون الرؤية الصحيحة للأمور عندهم خصوصاً عندما يتصل الأمر بالدول الأخرى لأن الفرد الأمريكي في المتوسط قليل الاهتمام محدود المعرفة بالعالم الخارجي.. وهو رهن لما يقدم له من خلال أجهزة الإعلام من معلومات.. يصدقها ويقبلها بلا تحفظ فهو يثق في أجهزة إعلامه كما يثق برجال السياسة.. ويعتقد أنهم لا يكذبون.. ولكن هذه الثقة المطلقة تتحول إلى احتقار وليس إلى شك فقط إذا ثبت أن هذا السياسي.. أو ذاك قد كذب.. أو أخفى أي معلومات عن ناخبيه أو حتى عن الأمة ككل... (لأن الكذب عندهم رذيلة)..

ومن هنا جاءت الكارثة بالنسبة لنا.. فلا نحن على علاقة طيبة برجال السياسة.. وصناع القرار في أمريكا.. ولا

نحن على صلة صحيحة برجال الإعلام.. ومن المؤسف أننا في الوطن العربي لا نختار سوى «المتردية والنطيحة أو ما أكل السبع» لنقيم معهم علاقات.. في الغالب تضرنا ولا تنفعنا.. وتسيء ولا تحسن إلينا.. وتساهم في مزيد من الغموض عنا وقد تؤدي إلى احتقارنا لدى الشعب الأمريكي وكراهيته لنا.. وذلك لأن القنوات التي نسلكها للتعبير عن أنفسنا كأمة عربية لا تؤدي بالضرورة إلى وضوح الرؤية بالنسبة لقضايانا المصيرية.. وكثيراً ما نحسن الظن بثقافة الرجل الأمريكي العادي.. وفهمه وتفهمه لهذه القضايا.. وكثيراً ما نخاطبه بعقلية عربية حماسية ينظر إليها على أنها من الفلكلور.. والممارسات الصوتية.. ولا يتبين مطالبنا أو يحس بواقعنا من خلالها.. أو يدرك أبعاد ما ندعو إليه أو حتى نصرخ من أجله.. لأننا نتكلم بلغة لا يفهمها وإن كانت بإنجليزية صحيحة لغوياً.

والحق أن الرابع من شهر يوليو.. كان احتفالاً كبيراً.. وتعبيراً صادقاً عن حب هذا الشعب لوطنه.. وغيرته على حريته وتشبثه بها.. وشعر الرئيس الأمريكي كما قال وهو يدشن تمثال الحرية بطاقة تحرك في أعماقه العزة والكرامة لأمريكا.. كما لم يحس بذلك منذ توليه سدة الرئاسة وكذلك كان شعور أولئك الذين عبروا عن أنفسهم خلال لقاءات أجهزة الإعلام.. فقد كان يوماً خاصاً حرك فيهم مشاعر العزة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودعاهم إلى التشبث بهذه الحرية.. وكذلك وقف أولئك الآلاف في (اليس ايسلاند) بوابة أمريكا لهذه الأعداد من المهاجرين واللاجئين يرددون خلف رئيس القضاة (وارن بيرجر) اليمين القانوني.. ويقولون بصوت واحد: (أنا أمريكي).. ومعظمهم لا يحسن التكلم باللغة الإنجليزية.. ولكنه يريد أن يكون مواطناً في بلد يمارس فيه حريته كإنسان.. ويدير ظهره لوطن حرمه هذه الحرية.. وعاش فيه.. وهو يخاف منه ولا يخاف عليه.. ولهذا فقد كانت فرصة حصولهم على حق الجنسية الأمريكية كبيرة.. طمعاً في الحرية.. وربما في رغد العيش.

هذه هي أمريكا إذاً.. بلاد فيها مواطنون يعيشون بأعلى معدلات المعيشة.. وأفضل حالات رغد العيش والرفاهية.. وفيها من يعاني من شظف العيش.. وربما الفقر المدقع.. ولكن كل فرد مسؤول عن نفسه وعليه أن يعمل لكي يعيش!.. أو يحتال.. أو ينصب.. أو حتى يسرق.. ولكن في ظل القانون.. (والحر بوق عمره ما يموت)..

وتحية لأمريكا في عيد حريتها.. ليرحم الله هذه الأمة الإسلامية. والعربية التي علمت الناس معنى الحرية.. يوم جاءت الصرخة الكبرى..:

الخلق عيال الله.

الناس سواسية.
كلكم لآدم وآدم من تراب.
لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى.
متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

لقد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أصبت فأعينوني.. وإن أخطأت فقوموني...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تركيا مرحباً بالعثمانيين الجدد

(١)

ما الذي يحدث في تركيا اليوم. . .؟؟

من الملاحظ أن ثمة اتجاهاً لإحياء الدين والاهتمام باللغة العربية كما أن هناك إشارات لا يخطئها النظر في اتجاه بعض الدول العربية، بهدف إعادة بناء الجسور معها. . .

والسؤال الآن هو: هل هذه الإشارات، وذلك الاتجاه مجرد مناورة تستهدف المصالحة السياسية مع العرب، وتنشيط التبادل الاقتصادي معهم؟ أم أن المسألة أعمق من هذا وتستند إلى نزوع شعبي تركي أصيل نحو الدين الحنيف الذي لم تمحه من الضمائر فترة من العلمنة والاستغراب لا تزيد على واحد وستين عاماً. . .؟؟

وهذا السؤال يترتب عليه أو ينبع منه سؤال آخر وهو: ما هو رد فعل العرب تجاه هذا الذي يحدث في «تركيا»؟؟، هل يهملونه؟ ويتعاملون معه على أنه مجرد مناورة سياسية يجب أن

لا يتجاوز رد الفعل عليها المجال السياسي الضيق؟؟ أم يشجعونه، ويباركونه، ويعملون على تعميمه وتوسيعه والخروج به إلى الساحات الحضارية والثقافية الأبعد مدى، والأشد تأثيراً في مستقبل العلاقات بين الدول. . .؟؟

لقد قمت بعدة زيارات إلى تركيا في الفترة الحاضرة، إبان الحكم العسكري، وحرصت على مقابلة عدد من رجال الفكر والسياسة والتعليم والاقتصاد وعلماء الدين الإسلامي، وجرى بيني وبينهم حوار استفدت منه كثيراً.

وسوف أحاول في هذا البحث الوصول إلى الجذور التاريخية، والظروف السياسية التي مرت بها الأمة التركية، والمناخ الذي فرض عليها ولعبت تياراته المختلفة دوراً أساسياً في تشكيل أوضاعها وتحركاتها في الداخل والخارج. . .

وغايتي من هذا البحث، أن أحدد رد فعل العرب تجاه ما يجري في تركيا. ومن الطبيعي أن رد الفعل العربي يتبلور وفقاً للأهداف التركية المتوخاة من محاولة التقرب إلى العرب والمسلمين وإحياء الدين. فلو أنها أهداف سياسية لا علاقة لها بأي نزوع أصيل لدى الشعب التركي فيما يتصل بالدين والأخوة الإسلامية، فإن لكل دولة عربية أو إسلامية أن تختار رد فعلها وفقاً لحساباتها السياسية العارضة والموقوتة. أما إذا كانت الأهداف التركية المتوخاة راسخة الجذور في المجتمع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التركي دينياً ونفسياً واجتماعياً إلى غير ذلك، فإن الأمر يقتضي رد فعل مختلف حتى ولو جاء مجافياً لأية مصلحة سياسية عابرة، أو محسوبة بالزمن المحدود. . .

ولعلنا نبادر على الفور ونقول إن رد فعل العرب والمسلمين تجاه محاولات الحكم التركي الجديد إحياء الدين والاهتمام باللغة العربية والعودة إلى العالم الإسلامي يجب أن يكون مشجعاً، ومن منظور الأهداف العربية ذاتها، بصرف النظر عن الدوافع المحركة للمحاولات التركية، بمعنى أننا لو افترضنا جدلاً أن تركيا تتقرب من العرب وتتودد للمسلمين بهدف سياسي طارىء ومحدد، فإن على العرب والمسلمين، أن يأخذوا بتلابيب هذه الفرصة لتعميق هذا الاتجاه التركي، ونقله من المجالات الضيقة المفترضة، إلى مجالات أخرى أرحب، وأرسخ جذوراً، وأوسع مدى. وشأننا مع تركيا في هذا الأمر، كشأننا مع عابر سبيل، يريد أن يستأنس بنا في قطع بعض أشواط طريقه الوعرة، ولكننا لسابق معرفتنا به، نحاول أن نستذكر معه تاريخنا المشترك وقيمنا الواحدة والأصول العميقة التي تربط بيننا، لكي نحيل هذا الاستئناس العابر إلى رفقة دائمة، وترابط مصيري لا ينفصم.

لتكن أهداف تركيا الآن ما تكون ولكن لنكن نحن على بينة من الأهداف الأعمق والأوسع التي نريد أن نحققها

استثماراً لهذا الاتجاه التركي الجديد لأننا بهذا نخدم قضية جليلة، وهي إعادة تركيا إلى حضن الإسلام الدافىء.

ويكفينا من التاريخ العثماني لمحة لكي نضع الاتجاه التركي الجديد في إطاره التاريخي الجديد. . .

ونستأذن في أن نلخص هذه اللمحة فيما يلي:

أولاً: إن العثمانيين ليسوا هم الأتراك، وإن كانوا قد اتخذوا بعد انتصارهم على البيزنطيين من العاصمة التركية عاصمة للخلافة العثمانية.

إن «عثمان» الذي تنسب الدولة العثمانية إليه هو ولد «أرطغول بن سليمان» زعيم عشيرة قابي القادمة من تركستان وكان «أرطغول» قد تعاون مع السلاجقة في حربهم ضد الدولة البيزنطية، مما جعل السلطان السلجوقي «علاء الدين الثاني» يملّكه المستنقعات المتاخمة للحدود البيزنطية، ويسمح له أن يضيف إليها ما يستطيع انتزاعه من ممتلكات البيزنطيين، فنشط «أرطغول» وولده «عثمان» واستطاعا معاً أن يضعا أيديهما على مساحات شاسعة من الدولة البيزنطية التي كانت نواة للدولة العثمانية التي أعلنها «عثمان» بعد وفاة والده عام ١٢٨١ م وزوال دولة السلاجقة بمداهمة المغول لها عام ١٢٩٩ م ووفاة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلطان «علاء الدين» في نفس العام.

ومعنى هذا إن العثمانيين ليسوا هم الأتراك، وإن كان الأتراك قد لعبوا دوراً أساسياً في بناء الدولة العثمانية وبصورة أوضح ليس كل الأتراك عثمانيين.. فقد كانت تركيا والأتراك موجودين قبل الدولة العثمانية بل قبل الميلاد بخمسة آلاف عام... إذاً ففترة الامبراطورية العثمانية ليست هي تاريخ تركيا الكامل...

ثانياً: إن التاريخ العثماني، لا التركي، يثير لدى العرب بعض المشاعر المتناقضة، فمنهم من لا يزال يذكر بالحنين دور الإمبراطورية العثمانية باعتبارها إمبراطورية إسلامية وآخر مظهر للخلافة كما عرفها المسلمون بحسبانها القيادة الدينية والزمنية التي يدين لها المسلمون في كل مكان ولا شك أن الخلافة العثمانية، وان سجل عليها التاريخ بعض المآخذ جديرة بهذا الحنين. لقد قضت الإمبراطورية العثمانية على الدولة البيزنطية الأجنبية الدخيلة، ورفعت عن المسلمين ويلاتها ومظالمها، كما أنها بقوتها وسيطرتها، وقفت سداً منيعاً ضد محاولة تكرار الحروب الصليبية. ولم يكن غريباً أن يعتبر الجنرال

«اللينبي» هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى النهاية الحقيقية للحروب الصليبية، ذلك بأن الإمبراطورية هي التي حالت طوال سبعة قرون دون عودة الصليبيين للانتقام لهزيمتهم على يد المسلمين بزعامة «صلاح الدين».

وكان السلطان عبد الحميد هو الذي وقف موقفاً مشرفاً، حين رفض بيع الأراضي في فلسطين لليهود، رغم الإغراءات الشديدة التي تعرض لها. ولمثل هذه المواقف المشرفة، إلى جانب القضايا الإسلامية والعربية، فإن التاريخ شهد زعماء عرب يتحمسون للخلافة العثمانية، ولا يرون فيها احتلالاً أجنبياً، كالزعيم مصطفى كامل في مصر.

ولا ننسى أن الامبراطورية العثمانية توسعت في بناء المساجد والمكتبات الإسلامية، وكان تعاملها مع أصحاب الديانات الأخرى بالسماحة واللين، مما يتفق مع الروح الإسلامية الأصيلة، وقيم الدين الحنيف، الذي ينبذ التعصب، ويجعل من المجادلة بالتي هي أحسن أساس الدعوة لنشر الدين.

على أن هذا لا يعني أننا نبرىء الدولة العثمانية من الأخطاء، فقد انعزلت وعزلت العالم الخاضع لها في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض مراحل مرضها وضعفها عن التطور العالمي والعلمي، وأساءت في إدارة الحكم وجعلت همه الجباية، وتورطت في العنف والمذابح. وكان لهذا أثره في أمرين على الأقل: **أولهما**: هو ذبول الإحساس لدى جمهرة المسلمين بأن الخلافة العثمانية هي خلافة إسلامية حقيقية، ذلك بأن المثل الذي يتطلع إليه المسلمون، في هذا الصدد، هو الخلافة الرشيدة، وما قامت عليه من العدل بين المسلمين، ورعاية مصالحهم، والتحرج في معاملتهم بصرف النظر عن العرق أو اللون أو البلد الذي ينتمي إليه المسلم بالمواطنة، ولقد كان من نتائج ذبول هذا الإحساس تدريجياً أن نشبت الثورة العربية الكبرى في آخر عهد الدولة العثمانية ضد الحكم العثماني في العالم العربي بهدف تقويضه وخلعه والتحرر منه، ولقد يجادل البعض في سلامة التوجه الأساسي لهذه الثورة، باعتبار اعتمادها على أجنبي غير مسلم لمقاومة خلافة إسلامية، ولكن أحداً لا يمكن أن يجادل في أنه لو أن الخلافة العثمانية، نهجت في سياسة أمور المسلمين الخاضعين لها نهجاً سوياً كما كانت في السابق تبعد عن ارتكاب المذابح لتأثيل الحكم العثماني وتعضيده ويقوم بدلاً من ذلك على

الشورى والعدل واستنفار المشاعر الإسلامية الصحيحة لربما تحرجت الثورة العربية نفسها من معاداة العثمانيين ولما وجدت قيادات هذه الثورة سنداً لها، بمثل هذه القوة، بين الشعوب العربية. **وثانيهما**: أنه عندما انهزمت الامبراطورية، وجاء «كمال أتاتورك» بدعوى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، كانت مشاعره غاضبة جداً ضد العرب والمسلمين والإسلام، وعلق خيانته لهؤلاء جميعاً على حكاية التعاون العربي ـ الغربي ضد الامبراطورية العثمانية وهذه مسألة نحار في فهمها.. فهب أن الثورة العربية ناصبت الإمبراطورية العثمانية العداء، لما أشاعته من مظالم لا ينكرها أحد، فهل يجوز أن يتخذ «أتاتورك» هذه الخصومة السياسية كذريعة لمحاربة الدين نفسه واضطهاد علمائه، وإغلاق المساجد أو تدميرها، والتنكر للمسلمين في كل قضية؟؟

لقد اختلف المسلمون على آماد التاريخ وحقبه المختلفة وكونوا النحل والفرق، واندلعت بينهم الخصومات والمذابح ولكن كل هذا لم يدفع واحدة منها إلى إنكار الدين جملة بل إن كل هاته المعارك، التي دارت بين الفرق، اتخذت لها حجة أساسية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهي أن كل فرقة تقوم للدين الصحيح.

إن تنكر «أتاتورك» للدين لا يمكن أن يرد إلى خصومة سياسية بين العرب والعثمانيين، وإنما يعود في الحقيقة إلى اتجاه إلحادي عميق الجذور لدى «أتاتورك» نفسه، فقد كان الرجل غربي الجلد والنبض في آن معاً.. ولهذا تنكر لكل ما هو عربي إسلامي شرقي، واتجه لكل ما هو غربي أوروبي، معاد للإسلام ولم يكن هذا الاتجاه إيجابياً ولا حتى على المصلحة القومية التركية نفسها.

ولعل «أتاتورك» تناسى عمداً أن سقوط الإمبراطورية العثمانية، أو رجل أوروبا المريض، لم يكن بفعل الثورة العربية، وإنما بفعل تآمر أوروبا نفسها عليها، بهدف خلافتها في أجزائها الواسعة المترامية. لقد كانت الإمبراطورية العثمانية تسيطر على دول أوروبية، وعلى دول الشرق الأوسط، وكانت القوى الاستعمارية الأوروبية قد دخلت عهد الاستعمار وتريد أن تحرر دول أوروبا، وتحتل دول الشرق الأوسط التي كانت تحت الخلافة العثمانية.

ولا يمكن القول أن «أتاتورك» كان يجهل هذه الحقيقة المجردة.. ولكن ما الذي كان يمكن أن يفعله تجاه

قوى استعمارية عاتية، لا قبل له بها؟؟... إن هذا العجز في مواجهة الغالب، مع الإعجاب الغريزي والمتأصل بحضارته وقيمه، هما اللذان دفعا «أتاتورك» إلى التنكر للعرب وللمسلمين والإسلام جملة، مع تعليق هذا إعلامياً وظاهرياً على معاداة العرب لتركيا أثناء الحرب العالمية الأولى. وشبيه بهذا إعجاب المجلود بجلاده، وهو إعجاب لا يعبر فقط عن حالة عجز نفسي، وإنما أيضاً عن انبهار بحضارة الغالب ونفور من حضارة المغلوب وقيمه، ورد كل أسباب الهزيمة إليها.

ثالثاً: إنه منذ هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وظهور «أتاتورك» باتجاهاته المعادية للعرب والمسلمين والإسلام نفسه، وكان ذلك منذ ما يزيد على واحد وستين عاماً، فإن تركيا لم تحقق من الأمجاد، أو حتى الأمن، ما يستجيب لطموحات وذكريات شعب كان إلى عهد جد قريب، على رأس إمبراطورية واسعة الأرجاء، تخيف الأعداء من حولها، وتعتبر حجر الزاوية في كل التوازنات الأوروبية والعالمية.

لقد كان قصارى ما فعلته الجمهورية التركية أنها غدت عضواً في التحالف الغربي، وفي مواجهة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحالف وارسو كما أنها في بعض مراحل هذه الحقبة التاريخية، أو في معظمها، دخلت في عداء صريح مع العرب والدول الإسلامية بسبب موقفها من إسرائيل من ناحية، وسبب تنكرها للإسلام من الناحية الأخرى...

ولم يأت لها تحالفها مع الغرب بنتيجة تذكر، فهي **أولاً**: في مهب الخطر السوفييتي الذي بدأت تشعر بوطأته منذ أن فشل التحالف الغربي في رد العدوان عن «أفغانستان» المجاورة. وهي، **ثانياً**: تشعر بالعزلة عن جيرانها المسلمين، وهي عزلة تفرض آثارها السلبية على كل شؤونها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وهي **ثالثاً**: تعاني مشاعر الخوف والقلق بسبب الاتجاهات الغامضة للحكم الإيراني بزعامة «الخميني». فهذا حكم متطرف يتخذ الثورة الإسلامية شعاراً له. فما هو الأثر الذي يمكن أن يتركه على الشعب التركي بنزعاته الدينية العميقة الجذور؟؟. وهل يكون التحوط من آثار الحكم الإيراني بمزيد من كبت المشاعر الدينية في تركيا أم برفع الغطاء قليلاً لكي يجد البخار المحبوس له متنفساً؟؟؟ وهي، **رابعاً**: تعاني اقتصادياً بسبب انغماسها في مشكلات عسكرية، وفي قضية

الاستراتيجيات العسكرية والسياسية الدولية وما يؤدي إليه ذلك حتماً من إهمال قضية التنمية وما تحتاجه من تطوير علمي وتكنولوجي وتفرغ للبناء الداخلي، وبسبب العزلة عن العالم المحيط بها والذي كان يمكن أن يكون سوقاً رائجة للمنتجات الصناعية التركية ومصدراً لما هي في أشد الحاجة إليه من خامات وقروض...

على أن أكبر ما أثر أخيراً في التوجهات التركية هو شعورها بأن الغرب لم يقف مع تركيا بدرجة كافية بعد أن قامت بالرد على الانقلاب العسكري اليوناني في قبرص باحتلال الجزء الشمالي من هذه الجزيرة وإعلانها الدولة القبرصية التركية المستقلة فيه. وكان من أخطاء الغرب أن حاولت الولايات المتحدة الأمريكية معاقبة تركيا بحرمانها من المساعدات العسكرية والاقتصادية في وقت بلغت فيه المشاعر التركية الذروة بسبب مشاعر الغضب التي كان الانقلاب العسكري اليوناني في «قبرص» قد أثارها، وإحساس الشعب التركي بضرورة أن يكون الرد حاسماً للدفاع عن الأتراك القبارصة. وموقف الغرب هذا ليس شاذاً مع تركيا فهم دائماً مع مصالحهم وليس لديهم صداقة دائمة كما قال تشرشل: بل هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مصالح دائمة . . . وكذلك كان موقفهم مع العرب على أي حال.

ولا بد أن نضيف إلى ذلك أن مشاعر الإحباط في تركيا قد أدت إلى ظهور الجماعات المتطرفة ذات النزعات الشاذة سواء من اليسار أو اليمين، وإن هذا قد تمخض عن قلاقل داخلية خطيرة تنذر بتشرذم حاد في المجتمع التركي، وتغري بمحاولات التغيير المفاجىء وغير المحسوب، ولهذا جاء الانقلاب العسكري الأخير عام ١٩٨٠ م بزعامة «ايفرين» للسيطرة على الموقف الداخلي في تركيا بعد أن كاد زمامه يفلت من أيدي الأحزاب المتصارعة.

كل هذا يعني شيئاً واحداً أساسياً من بين أشياء أخرى وهو أن تركيا لم تجد مرفأها الأمن في أحضان «الكمالية» وأنها على العكس تماماً، لا بد أن تشعر بأنها كانت شيئاً هاماً أيام الخلافة العثمانية، مهما تكن أخطاؤها، في حين إنها الآن في مهب رياح كثيرة عاتية، لعل أهمها وأخطرها ريح التمزق الداخلي. ولا بد أن تشعر أننا نمد أيدينا ونفتح قلوبنا لعودتها إلى أحضان أشقائها الذين يعتبرونها جزءاً هاماً في كيانهم وفصلاً أساسياً من تاريخهم الحديث.

رابعاً: إن تاريخ الواحد والستين عاماً الأخيرة من عمر تركيا قد أثبت أن الدين عميق الجذور في النفسية التركية من ناحية وأنه هو نفسه أحكم دفاع ضد الخطر الشيوعي، وخصوصاً حين يلجأ إلى محاولات الغزو من الداخل. إن حلف الأطلنطي ـ وتركيا عضو فيه كما هو معروف ـ يتكفل بصد الخطر السوفييتي الخارجي، ولكن من يدافع عن تركيا ضد محاولات الغزو الداخلي الذي تقوم به الجماعات الماركسية المتطرفة الإرهابية؟؟ . . هنا يأتي دور الدين الذي هو حركة الضمير لدرء المذاهب الدخيلة، والوافدة، المنافية لما يؤمن به . . .

لكن القيادة التركية، فيما يبدو، تحاول أن تأخذ الأمر كله بحذر شديد. فهي لا تريد أن تطلق العنان للطاقات الروحية الإسلامية، وما زالت تعلن أن تركيا دولة «علمانية» وفي نفس الوقت فإن هذه القيادة توقن بأن المشاعر الدينية العميقة الجذور في ضمير الشعب التركي هي العاصم ضد التيارات المنحلة والإرهاب الماركسي الإلحادي.

وهذا الحذر الواضح في خطو القيادة التركية على طريق إحياء الدين في تركيا يدل على حالة من التردد في إطلاق العنان لكامل الطاقة الدينية خوفاً من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تطور غير محسوب كهذا الذي حدث في إيران، كما إنه يدل على تردد من نوع آخر ونعني به التردد في كبت المشاعر الدينية، أو الاستمرار في كبتها على نهج «الكماليين». ذلك بأن هذا الكبت قد يولد الانفجار طالما أنه قد ثبت أن التيار الإسلامي موجود، وقوي، ويحظى بالتفاف شعبي كبير حوله.

ولعل هذا ما يفسر لماذا تتوجه تركيا في عهدها الجديد إلى دول عربية معروفة بجذورها العميقة في الدين كدول الخليج ومصر، فقد تبودلت الزيارات بين المسؤولين الأتراك ومسؤولين آخرين في هذه الدول. إن تركيا تعاني من التطرف الداخلي لبعض الجماعات، وهي لا تريد لأحد أن يستغل الدين لأغراض سياسية، ولهذا تعمد إلى توثيق روابطها بالدول العربية التي أشرنا إليها، كما إنها تعمد إلى تعليم الدين في المدارس، ليس فقط كعمل لا بد منه لعملية الإحياء الديني، بل وأساساً لأن هذا هو العاصم ضد الفهم الديني غير الصحيح الذي تنشره وتروج له، الجماعات الدينية المتطرفة، بهدف إثارة البلبلة، والسيطرة على الحكم واستغلال الدين في غير مقاصده الشريفة.

وخلاصة ما نود أن نصل إليه هي، أن تاريخ واحد

وستين عاماً من الكمالية العلمانية لم تمح من ذاكرة الشعب التركي أمجاد الخلافة العثمانية، ولم تستأصل من ضميره النوازع الدينية المتأصلة وهذا بعض ما يثير في الشعب التركي الحنين إلى دور إسلامي وإلى إحياء علاقاته المتميزة مع العالم العربي خصوصاً. والقيادة التركية مضطرة إلى مجاراة هذه المشاعر والاستجابة لها، ولئن جاءت هذه بحذر، وبتردد، فإن علينا نحن العرب دوراً أساسياً في التوطئة لمزيد من التطور التركي في اتجاه الدين وفي اتجاه علاقات مزدهرة مع العرب في مختلف المجالات.. ولا بد أن نفتح قلوبنا وعقولنا للقادمين الجدد.. أو العائدين إلى الأبد إن شاء الله بعد أن تعلموا الدرس وتعلمناه.. وفهموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه...

﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تركيا مرحباً بالعثمانيين الجدد

(٢)

قلت إن غاية هذا البحث، هي التعرف على رد الفعل العربي المناسب، إزاء الحركة التركية الرسمية الحالية، في اتجاه العودة إلى الدين الإسلامي الحنيف.

ولكي نتعرف على رد الفعل هذا، لا بد أن نلاحظ منذ البداية أمرين:

أولهما : إن هذه الحركة رسمية، أي حكومية. وقد نجم عنها بعض الأمور التي كانت محظورة رسمياً من قبل، وهي تدريس اللغة العربية في المدارس الحكومية التركية، وتعليم الدين فيها، وغض الطرف عن النشاط الديني الذي تمارسه بعض الجماعات، والذي كان، ولا يزال محظوراً بصفة رسمية، ثم السماح بإنشاء بعض المصارف الإسلامية، التي لا تتعامل بالربا، وتؤدي، من ثم

دوراً في تطبيق الشريعة الإسلامية في أحد المجالات الاقتصادية الهامة.

وثانيهما : إن كون هذه الحركة حكومية رسمية هو الذي يلفت النظر، ذلك بأن الشعب التركي لم يتخلَّ يوماً عن دينه، برغم إعلان العلمانية رسمياً منذ أيام «كمال أتاتورك»، وهو الأمر الذي جر في أعقابه اضطهاداً شديداً للمسلمين، ومحاولات لا تتوقف بهدف إخماد جذوة الدين في النفوس. فاتجاه الحكومة التركية الآن لإحياء الدين ليس من قبيل نشر الدعوة في شعب غير مؤمن بها، وإنما هو من قبيل الاستجابة لتيار شعبي ديني كاسح لم يستطع اضطهاد واحد وستين عاماً أن يثنيه، أو يستأصله، أو يوقف هديره، ويكفي في حالة كهذه، أن ترفع الحكومة العقوبات حتى يتدفق التيار طلقاً ومندفعاً في كل الأودية والدروب وبعبارة أخرى فإن مجرد الموافقة من جانب الحكومة يعني كل شيء بالنسبة للموضوع برمته.

على أننا نحتاج إلى توضيح أمرين آخرين وهما: أن الحكومة ما تزال تعلن أن تركيا دولة علمانية، وأن الدين لن يكون مصدراً من مصادر التشريع. وأما الأمر الثاني، فهو أن هذا الاتجاه الرسمي الحكومي قد يكون مشوباً ـ والحال هذه ـ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ببعض المقاصد السياسية.

أما أن تركيا لا تزال متمسكة بعلمانيتها فهذا أمر لا جدال فيه كما أنه يجب ألا يؤثر في رد الفعل العربي والإسلامي تجاه ما يدور الآن فيها، وهو رد فعل يجب أن يكون مشجعاً ومقدراً للظروف التي تتحرك فيها القيادة التركية، وأنه ما دام أن التيار الشعبي الديني قوياً ومتماسكاً وفعالاً فإن الأمل يبقى كبيراً في مزيد من الاستجابة الحكومية الرسمية له، ويكفينا الآن أنها توافق على بعض ما كانت تحظره بالأمس القريب.. ففي ظل هذه الموافقة، وتحت جناحها يمكن للتيار الديني أن ينمو، ويلعب دوره في صبغ الحكم بصبغة الله في بعض مراحل التطور المقبلة.. فمن المهم أن نتفهم طبيعة الظروف التي يمرون بها.. ونشعرهم بمدى اهتمامنا بما يجري وأننا في النهاية نرحب بهم كأشقاء مسلمين دون شك.

كذلك فإن اصطباغ هذا الاتجاه الرسمي التركي بالمآرب السياسية يجب ألا يقلل من تقديرنا له.. وحرصنا عليه.. ودأبنا في تشجيعه وتعميقه وتوسيع مجاله..إن السياسة في هذا المجال لا تتناقض مع الدين بل تعاون عليه.. ويجب أن نذكر في هذا الصدد أن الإسلام دين حياة وآخرة.. أي أنه يجمع الدين والدنيا في نظرة كلية شاملة.

وهنا يجدر بنا أن نسأل: ما الأسباب السياسية التي

يمكن أن تكون قد حفزت الحكومة التركية على هذا النهج الجديد؟؟..

لا تكاد هذه الأسباب تخرج عن قصد واضح وهو الاستجابة لذلك التيار العميق لدى هذا الشعب المسلم الذي يحن إلى دين الإسلام.. والحياة الإسلامية الكريمة.. وكذلك إعادة بناء الجسور شبه المحطمة مع العرب لأهداف تتصل بمشكلات التنمية الاقتصادية التركية وحاجتها إلى رؤوس الأموال العربية.. ولأهداف أخرى تمت إلى محاولة بناء خط استراتيجي بعيد المدى دعامته عربية ـ تركية ـ إسلامية للتعامل مع الخطر السوفيتي الذي بدت طلائعه في (أفغانستان) وضرورة التصدي له حتى لا يكتسح (باكستان) و(الخليج العربي) و(تركيا) نفسها.

ولو أننا سلمنا أن التوجه التركي الجديد يتركز على هذه الخلفية السياسية فإن تسليمنا بهذا يجب أن لا يؤدي إلى التهوين من شأن التوجه نفسه أو إلى مقابلته بعدم الإكتراث.. بل العكس هو الصحيح ذلك بأنه لو كان هذا التوجه يستمد حوافزه من المنهل الديني وحده.. ولو كانت الحكومة التركية قد خرجت على العالم ببيان تعلن فيه أن الإسلام قد عاد ليكون دينها الرسمي إذن لكان الأمر قد فرغ منه ولم يعد أمامنا شيء لنفعله سوى التعامل مع تركيا كدولة مسلمة شقيقة.

ولكن وجود الدوافع السياسية مع التمسك بالعلمانية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسمياً، هو الذي يدعونا إلى الدقة في تخير رد الفعل العربي، وفي اتباع سياسات من شأنها أن تعمق من النهج التركي الجديد بأن تستثمر حوافزه السياسية نفسها لتحقيق مزيد من الالتزام الديني الخالص.

وبعبارة أوضح فإنه إذا كانت «تركيا» تبدي الآن موقفاً متسامحاً من الدين تودداً للعرب، واستجلاباً لاستثمار اقتصادي، أو تمهيداً لخطة استراتيجية ضد خطر خارجي مشترك هو العدوان السوفييتي أو التسلل الشيوعي، فإن أفضل ما يفعله العرب هو العمل، بذكاء ودأب، لتحقيق الاستجابة المدروسة لهذا التوجه التركي مع السعي باستمرار لربط هذه الاستجابة بمزيد من الإجراءات التركية على طريق العودة إلى الدين.

وكما قلنا فإن الدين تيار قوي في صفوف الشعب التركي، وأنه يكفي أن ينجح العرب في التعامل سياسياً مع الحوافز السياسية التركية الرسمية لكي ترتفع العقبات الباقية في سبيل العودة إلى الدين بشكل رسمي كامل.

ويجب علينا بطبيعة الحال، أن نوطن أنفسنا على أن مثل هذا الأمر لن يأتي عفواً، وإنما يحتاج إلى جهد جهيد، وخطة محكمة، ودراسة مستأنية للأوضاع التركية ومجمل حوافز القيادة الراهنة للتصرف والعمل.

ولسنا في الحقيقة نجد سبباً واحداً لعدم المبالاة بما يجري في تركيا من تحولات رسمية في التعامل مع الاتجاهات الدينية الشعبية الكاسحة، فلو أننا صرفنا النظر عنها بمقولة أنها ذات دوافع سياسية، لا تمت إلى الدين، فمن يدرينا أن الأشواق الدينية غير موجودة على المستوى الرسمي، وأنها تبحث لنفسها عن منفذ من الظروف التركية لكي تتبلور وتسفر عن وجهها الصبوح؟.. وأفلا نكون حينئذ قد وأدنا بالإهمال وعدم الاكتراث فرصة واعدة، وقتلنا نبتة قد تكون مثمرة؟؟.. على أن الدوافع السياسية نفسها ليست شراً، وإنما هي أساس التعامل مع الدول، فإن استطعنا نحن أن نستثمر هذه الدوافع لتطوير المقصد الديني الخالص، فإننا نكون بذلك قد أدينا خدمة لله وللوطن في آن معاً..

وتسأل: هل هذا أمر ممكن...؟

ونجيب: بأنه ممكن. ولا نشترط أن يكون ثمة اتفاق عربي مسبق على طريقة الاستجابة للتلميحات والإشارات التركية فغير خاف على أحد أن بعض القوى العربية قد لا ترحب بهذا المنحنى التركي الجديد وبصفة خاصة المقاصد السياسية المتوخاة منه. ولكن من حسن الحظ، أن هذه القوى نفسها ليست القوى المقصودة بالإشارات التركية، لأنه ليس لديها ما تعطيه لتركيا سياسياً أو اقتصادياً، أو خلاف ذلك. وإنما الاستجابة المشجعة هي التي يجب أن تأتي من الدول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقصودة بالإشارات التركية، وهذه الدول ذاتها هي المرشحة للتأثير في التوجه التركي نحو الدين، وتوسيع مجاله، وتعميق أسسه.

على أن بعض المتابعين للاتجاهات التركية يتساءل: أفيمكن أن يكون لدى القيادة التركية بعض النية في تمهيد الأرض للمطالبة بوضع متميز في الوطن العربي الذي كان خاضعاً لها إبان الخلافة العثمانية؟؟

ومثل هذه التساؤلات في الحقيقة تثير من التشكك أكثر مما تثير من الآمال، وتدعو إلى الإحباط، وتحرص على صد تركيا وردها بدلاً من أن تحض على تشجيعها بالاستجابة لها..

إننا نعتقد أن مثل هذه المخاوف لا أساس لها، وقصارى ما يمكن أن تؤدي إليه هو دفع العرب إلى الوقوف سلبياً من بادرة مشجعة قد يتمخض عنها خير كثير لصالح الدين ذاته، ولصالح علاقات تركية ـ عربية متطورة وموفية بأغراض هامة في ظروف قاسية تعيشها الأمة الإسلامية بعد الغزو السوفيتي لـ «أفغانستان».

ونحن في الحقيقة نريد أن نفتح عقولنا وقلوبنا للإشارات التركية الجديدة، وأن نعمل ما بوسعنا، وهو كثير، لتحقيق عودة تركية صادقة إلى رحاب الدين الحنيف. ولكن كيف يمكن لهذا أن يتحقق؟؟ نعني كيف يتسنى لنا أن نستجيب استجابة

صحيحة تساعد على تحقيق هذه العودة المنشودة؟؟

نستأذن في أن نطرح هنا بعض الأفكار والمقترحات على النحو التالي:

أولاً: إننا يجب أن نتخلص من كل نوازع الشك في هذه المسألة نعني في حقيقة التوجه التركي. ذلك بأننا حين نفترض أن الدافع التركي هو في الأساس دافع سياسي فيجب علينا أن نسلم بأن الدافع السياسي ليس بذاته شراً تجب محاذرته إن العلاقات بين الدول تقوم على المصالح السياسية ولكن تطور العلاقات السياسية بين أي دولتين، أو مجموعة من الدول تكون له عادة، انعكاسات ثقافية وحضارية ودينية أيضاً، فإذا ما جاءت العلاقة السياسية المتطورة بين الدولة التركية بماضيها الإسلامي المعروف وبين مجموعة الدول العربية التي تعتبر الآن قيّمة على الشؤون الدينية الإسلامية في العالم فإن هذه العلاقات تصبح مرشحة للعب دور هام في الصحوة الدينية التركية خاصة وأن تركيا لم تجد ما كانت تنشده من المفارقة للعرب وللإسلام...

ثانياً: إنه في ظل علاقة سياسية متطورة، فإن الدول العربية تستطيع أن تنشط عمليات التبادل الثقافي مع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تركيا، ومن المؤكد أن هذه العمليات تتضمن تبادل زيارات الوفود والكتب والنشرات وعقد المؤتمرات.. وغيرها.. وسوف يكون من ضمن ما يتبادله العرب مع تركيا في هذا المجال، الكتب الدينية، ونحن نقدر أن الإقبال على مثل هذه الكتب سوف يكون شديداً لأنه يستجيب للنوازع الدينية العميقة لدى الشعب التركي، أو قطاعاته العريضة والتي لم تفلح الفترة السابقة في طمس اعتقاده الديني الراسخ وأن الدين الإسلامي سوف يخرج بربح كبير في حال تطور عمليات التبادل الثقافي التركي مع العرب، ومن المؤكد أن العلاقات التركية ـ العربية السياسية المتطورة سوف تساهم في ألا تلقى الكتب الدينية العربية أية مقاومة سرية أو علنية وأن هذه الكتب أو غيرها من أدوات نقل الثقافة الدينية العربية سوف يكون لها تأثيرها في إعلاء النوازع الدينية وإطلاقها من عقالها وتغليبها على غيرها من النوازع السلبية أو الهدامة.

ولكن المهم هو حسن اختيار هذه الكتب والتي يجب أن تكون مناسبة وهادفة ومكتوبة بأسلوب علمي صحيح يحترم عقلية هؤلاء الأشقاء الذين أبعدتهم الظروف عن منابع الدين وحرصت

على قطع الطرق عنهم وحرمت بعضهم من الاتصال بروح الدين الحقيقية حتى رسخت في أذهانهم وبصورة خاصة لدى الناشئة فكرة العلمانية وكراهية الدين بل واحتقاره في كثير من الأحيان عند بعض العلمانيين ومن هنا جاءت أهمية اختيار الكتب التي تتفق مع ظروف هذه الأمة وثقافتها وعقليتها.. وأن نتدرج للأخذ بيدها نحو الدين مرة أخرى.

ثالثاً : ولا يختلف أحد في أن نمو العلاقات السياسية مع تركيا يمكن استثماره في حض السلطات التركية على منح مزيد من الحرية للحركات والجماعات الدينية، أو على الأقل تخفيف عبء الضغط عليها. إن الدولة التركية، كما قلنا، لا زالت تعلن أنها «علمانية» وهذا يعني أنها لا تلتزم بأي دين بعينه كما يعني مقاومتها لنمو أي جماعة دينية فوق حجم تحدده الدولة نفسها. غير أن وجود علاقات بين الدولة التركية والدول العربية من النوع المتطور الذي يسمح بإدارة حوار مستمر في كل الشؤون التي تمس طرفيها لا بد أن يساعد في إعطاء مزيد من الفرص لحركة العودة إلى الإسلام.

ولا بد أن نضيف هنا أن العودة إلى الإسلام هي في صالح الدولة التركية نفسها، وأنه إذا كانت تركيا تنشد الآن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض المصالح السياسية مع العرب فإنها سوف تدرك أن تحقيق هذه المصالح يكون أسهل في حال تذكير العرب بالدور التركي الإسلامي، ليس فقط من منظور ما حدث في الماضي، بل وأساساً من منظور ما لا بد أن يحدث في المستقبل إذا أرادت تركيا أن تزدهر مصالحها مع العرب سياسياً واقتصادياً وحضارياً...

والواقع الاجتماعي التركي يؤكد أن الجماعات المعارضة لعودة الإسلام إلى تركيا، أو عودة تركيا إلى الإسلام، هي جماعات المثقفين بشكل عام، والمراكسة منهم بصفة خاصة. ومعروف أن تركيا دولة رأسمالية، وأنها عضو في حلف الأطلنطي وأنها من ثم، لا يمكن أن ترحب بوأد حركة تنشيط الدعوة إلى الإسلام لصالح جماعات ماركسية تنتمي إلى دول معادية سياسياً، وتتغذى على مساعداتهم وتحريضاتهم السرية والعلنية، ومعنى ذلك بوضوح، هو أن العودة إلى الإسلام في تركيا تستجيب في جملتها للاتجاهات السياسية التركية سواء من حيث الانتماء إلى الجماعة الرأسمالية العالمية، أو حلف الأطلنطي العسكري أو المصالح السياسية المتنامية في العالم العربي ودول الخليج خصوصاً، ويبقى الأمر في النهاية منوطاً بقدرة العرب على فهم هذه الاتجاهات، وعدم التعصب ضدها وفتح المجال أمامها، ليس فقط من زاوية سياسية وإنما من زاوية أوسع تشمل الحرص العربي على تغذية التبادل الثقافي، وتشجيع

الدعوات الدينية المستقيمة داخل تركيا وربط المصالح الاقتصادية التركية بمزيد من الاستجابة التركية الداخلية لنوازع التاريخ الإسلامي المشترك مع العرب.

ونقول الدعوات «المستقيمة» لأننا جميعاً نعرف: **أولاً**: أن ثمة دعوات متطرفة لا تمت إلى جوهر الدين الإسلامي بسبب، وربما تغذيها جهات دولية تحرص على الإساءة لسمعة الإسلام تمهيداً لمحاصرة الصحوة الإسلامية، وضرب النطاق حول الدور الإسلامي، في الشؤون الدولية. كما إننا نعرف، **ثانياً**: أن الدولة التركية قد لا تتحرك لتوجيه ضربة إجهاضية إلى حركة العودة إلى الإسلام إلا إذا شعرت بخطر هذه الحركة على سلطة الدولة نفسها. وإذا أرادت هذه الحركة أن تنجو من مصير كهذا المصير فليس أمامها إلا أن تدعو إلى سبيل ربها بالتي هي أحسن، وبقوة الإقناع والمنطق، وليس بالعنف وأساليب الإرهاب التي هي أداة من ليس لديه شيء يمكن أن يقتنع به الناس أو يعتقدوا في صدقه وصوابه.

إن الدين الإسلامي هو دين الرشد والعقل والحكمة والمنطق، وهو دين يعمل للدنيا والآخرة، ولا يزهد الناس في الطيبات التي حللها الله ولهذا كله فإنه الدعوة التي تحمل بذاتها بذور نجاحها والمنطق اللازم للإقناع. فلماذا تلجأ بعض الجماعات المحسوبة على الإسلام إلى العنف الذي ينفر الناس منها ويحرض السلطة عليها فتجهضها قبل أن تؤتي أكلها؟؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخير ما يتبعه العرب الحريصون على عودة تركيا إلى الإسلام هو تشجيع هذه العودة، ومباركتها، وتقديم يد العون للقائمين عليها، وذلك كله بشرط نعتبره أساسياً، وهو أن تبرأ هذه الدعوة من أية شبهة للعنف أو استغلال النفوذ، أو اللعب على عواطف الجماهير لصالح الصراع الداخلي على السلطة. إنه يوم أن تزدهر الدعوة في كل الضمائر فإن كل الثمرات يمكن أن تتساقط منها في مجتمع ديموقراطي يدلي فيه الناخبون بأصواتهم من وحي ضمائرهم فقط، ويبرأ من العنف الذي قد يشعله المتطرفون لإضعاف السلطة، ولكن السلطة عادة ما تنجح في استغلاله مرات لسحق هؤلاء المتطرفين...

ونحن نتطلع إلى يوم قريب تأخذ فيه «تركيا» مكانها المرموق إلى جانب شقيقاتها الإسلاميات في إعلاء كلمة الحق، والذود عن حقوق المسلمين، وبناء حضارة إنسانية تقوم على أسس الدين الحنيف وقيمه ومبادئه...

بين الكاوبوي الأمريكي والدّب الروسي

١ ـ الكاوبوي

هناك إجماع، لا جدال حوله، على تقسيم القوى العالمية في عصرنا الراهن إلى قوتين اثنتين ليس غير: القوة الأمريكية، والقوة السوفييتية.

أما باقي القوى، مهما بلغت، فإنها تصنف إما على أساس دورانها في فلك إحدى القوتين الكبريين، أو على أساس أوضاعها «الإقليمية» في المناطق التي توجد فيها.

ولقد ذهب المعلقون والمحللون إلى وصف القوتين الكبريين بكلمات توحي وكأنه ليس في الدنيا سواهما، فقيل «القوتين الأعظم» وقيل «القوتين الأكبر» وقيل «القوتين العظميين».. وقيلت أوصاف كثيرة أخرى...

ونحن لا نجادل في مدى صحة تلك الأوصاف، ولا في مدى استحقاق كل من القوتين لها، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما بلغتاه من مستوى متقدم سواء في غزو الفضاء، والوصول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى الكواكب، واستخدام الأقمار الصناعية، وإنتاج الأسلحة الاستراتيجية الكونية، العابرة للفضاء والقارات، بما تحمل من قنابل للتدمير الشامل: ذرية وهيدروجينية وربما نيترونية...

ولكننا نجادل، بل ونعترض، تجاه هذه الحالة الغريبة من التسليم بتلك الأوصاف وكأن «القوتين الأعظم» قد استباحتا الأرض وما عليها لأطماعهما، وكأنه ليس على السطح سواهما، وكأن الوقوف في وجههما أمر مستحيل، وان على الدول الأخرى أن تختار بين هذه وتلك من القوتين لتنضوي تحت لوائها، وتحتمي بظلها، أو يكون مصيرها الضياع والدمار....

ذلك أن سبب قوة أمريكا وروسيا هو - بالذات وفي نفس الوقت - سبب ضعفهما، ما دام ليس باستطاعة أي منهما أن يستخدم قوته النووية الهائلة، خضوعاً لمبدأ «الردع المتبادل» فكأن تلك القوى - إذن - غير موجودة، وكأن الدولتين الكبيرتين لا تزيدان إلا من حيث الإمكانات المادية على الدول الأخرى... فهما قوتان عظيمتان ولكنهما ليستا القوتين الأعظم، وهما دولتان كبيرتان، ولكنهما ليستا الدولتين الأكبر...

ولا سبيل إلى الشك، ولا إلى الإنكار بالتالي، أن أمريكا قد بلغت من التقدم الحضاري والتكنولوجي مبلغاً عظيماً جداً،

ربما لا نجد له - كثافة وعمقاً - مثيلاً في العالم...

ولهذا التقدم أسبابه الكثيرة، ولكن أهم تلك الأسباب - في نظري - هو بعد القارة الأمريكية عن مسارح الصراع العالمي، إبان احتدامها في أوروبا وآسيا وأفريقيا خلال القرنين الحالي والسابق وهما القرنان اللذان يعادلان - بالضبط - عمر الحضارة الأمريكية.

وبحكم الوضع الجغرافي الخاص، هذا، استطاعت أمريكا - دوماً - أن تختار المكان والزمان الملائمين لحركتها، فهي لم تدخل الحربين العالميتين السابقتين إلا بعد نشوبهما بزمن، وعلى ضوء معطيات وحسابات ما كان لها أن تصيب لو أن «الولايات المتحدة» كانت في القارة الأوروبية، حيث دارت الأحداث بعنف دون أن تحسب حساباً لآراء ومواقف الدول الأوروبية المختلفة.

ولقد ظل هذا الوضع الجغرافي الخاص أساساً تلقائياً من أسس السياسة الأمريكية، بصورة جعلت كل ما هو أمريكي مختلفاً - بشكل أو بآخر - عما هو موجود في بلاد العالم الأخرى.

وكانت هذه العزلة الجغرافية، سبباً في نشوء النمط الفريد للحياة الأمريكية، وهو النمط الذي بدأ بظهور من يسمى «راعي البقر» - الكاوبوي - والدور الذي لعبه رعاة البقر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في جميع مناحي الحياة الأمريكية، منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا..

إلى يومنا هذا؟

أجل..

لأن آثار الكاوبوي الأمريكي التقليدية قد حفرت في أعماق الشخصية الأمريكية العادية، بدليل أن تلك الآثار ما تزال مادة رئيسية في الأفلام والمسلسلات التليفزيونية والكتب والقصص التي تطلع علينا - أيامنا هذه - كل يوم..

فالكاوبوي ليس مجرد راعي بقر كما هو شأن الرعاة في العالم...

الراعي في البلاد الأخرى يرتبط في الأذهان بالهدوء والسكينة والوداعة، وقد تضاف إلى صورته لمحة أخرى هي «ناي» يعزف عليه خلال ساعات نهاره الطويلة، وقد يصبح شاعراً يستلهم الطبيعة التي يعيش في أحضانها معظم أيامه..

أما الكاوبوي الأمريكي فشيء آخر..

إن صورته النموذجية معروفة للجميع.. فهو قد اشتهر بملابسه التي لاتخرج عن البنطلون والقميص المزركشين، والملتصقين بجسمه التصاقاً وثيقاً، والمنديل الملتف حول عنقه وعقدته متجهة إلى اليمين أو اليسار، والجزمة الطويلة اللامعة بمهمازيها اللذين يصدران صوتاً معدنياً مميزاً كلما سار.. ثم -

وهذا هو المهم - المسدسان المشدودان على جانبي وسطه، يتباهى بهما ويسير مختالاً، ويداه - دائماً وأبداً - قريبتان منهما، مستعداً لأن يتناولهما في مثل لمح البصر ليطلقهما يمنة ويسرة دون أن يحاسبه أحد على ما يفعل...

كان المقياس الذي به تعرف قيمة الكاوبوي هو - بالتحديد - قدرته على تناول مسدسه بسرعة تفوق سرعة خصمه ثم على إصابة الهدف بدقة، وعلى هاتين النقطتين تتوقف حياته، كما تتوقف «سمعته» في أوساط «الكاوبويز» جميعاً عبر القرى والمدن والولايات.

وحول هذا المحور دارت جميع أقاصيص «الكاوبويز» وأساطيرهم: كتباً، وأفلاماً، ومسلسلات ما زال ينتج منها، حتى اليوم شيء كثير.

وفي هذه الأقاصيص أسماء لامعة يعرفها الأمريكيون كباراً وصغاراً، حق المعرفة، وهي لا تقل أهمية عندهم عن أهمية واشنطن وجيفرسون ولنكولن وسواهم من الرؤساء التاريخيين.

وبطبيعة الحال، نشأت الأجيال الأمريكية وهي مشبعة بروح الكاوبويز التي تؤمن بالمسدس وسيلة للتعبير عن الذات، دفاعاً وعدواناً لا فرق، وبسرعة تناول المسدس وإطلاقه مقياساً للبطولة و«العظمة».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحتى بعد أن سارت الولايات المتحدة على طريق التمدن والتحضر أشواطاً بعيدة وعرفت ما عرفت من وسائل الحضارة، ظلت صورة الكاوبوي تسيطر على عقول الأمريكيين وضمائرهم سواء وعوا ذلك أم لم يعوه.

فالجريمة العصرية التي تعتمد على المدافع الرشاشة، والقنابل، والعنف المدمر هي من الابتكارات الأمريكية التي ظلت ـ إلى اليوم ـ عنواناً من عناوين الحياة الأمريكية العادية، ومع أن بعض البلاد الأوروبية قد اقتبست ذلك الأسلوب، إلا أنه ظل ابتكاراً وممارسة أمريكيين لم يصل إلى مستواهما أي شعب من الشعوب.

إنه الكاوبوي الجديد الذي استبدل «مسدس الطاحونة» بالمدفع الرشاش، ولكنه ظل ـ كما كان ـ الرجل الذي يقيس الأمور بمدى القدرة على سرعة استخدام السلاح واتقان الإصابة.

إنه ـ هو نفسه ـ الكاوبوي الأمريكي التقليدي...

وهي ـ نفسها ـ عقلية «رعاة البقر» التي ما زالت مترسبة في أعماق الأمريكي، كبيراً كان أم صغيراً...

وإذا كانت أمريكا قد ضربت أرقاماً قياسية كثيرة في مجالات حضارية متقدمة لا تنكر، فإنها قد ضربت ـ كذلك وبجدارة تامة ـ أرقاماً قياسية في معدلات الجرائم والحوادث

التي تستخدم فيها المدافع الرشاشة والبازوكا والقنابل في وضح النهار، وفي أكثر المناطق والمدن رقياً وازدحاماً.

ومع خروج أمريكا من عزلتها التي كانت قد التزمتها حتى بداية الحرب العالمية الأولى رأى سكان العالم القديم الكاوبوي الأمريكي القادم من العالم الجديد رأي العين.

رأوه بسلاحه الفتاك.. وشعوره العميق بالتفوق والتميز، وبقدراته المادية العظيمة يقاتل إلى جانب الحلفاء ويرجح كفتهم لتحقيق النصر، ثم يستمرىء اللعبة فيجد نفسه، برغبته أو بدونها، أحد محاور الأحداث في الكرة الأرضية جمعاء...

وما ندري... أكان هذا «الظهور» من حسن حظ البشرية أم لا.. ولكن من الثابت أن الكاوبوي الأمريكي قد بات رقماً رئيسياً في معادلات السياسة الدولية...

ومن هنا بدأت المأساة.. أو المشكلة..

إن الأمر الذي يؤسف له حقاً، أن الكاوبوي الأمريكي قد ظهر على المسرح بنفس صورته الأسطورية المثالية التي ظهر بها «الكاوبويز الطيبون» فيما مضى..

إنه الكاوبوي الشهم، البطل، المقدام، الذي يلقي بنفسه في المهالك لإنقاذ الشعوب المستضعفة والمغلوب على أمرها. تاريخه ناصع البياض، فلا تشوبه لطخات استعمارية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بغيضة كتلك التي تملأ تاريخ الدول الأوروبية الاستعمارية: بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا وروسيا...

وقصة كفاحه ـ هذا الكاوبوي ـ قد وصلت إلى شعوب العالم القديم، فملأتها إعجاباً وتقديراً، وبهرتها بأضوائها وتهاويلها...

بل إن الأمر بلغ ببعض الشعوب أن اختارت «الانتداب الأمريكي» إذا كان لا بد من فرض الانتداب عليها بعد الحرب العظمى...

وكان السبب في ذلك، كما قلنا، هو امتلاء الأفكار بشهامة الكاوبوي الأمريكي البطل، وترفعه عن ممارسة الأساليب الاستعمارية الدموية التي اشتهرت بها الدول الأوروبية العريقة في تلك الأساليب.

لقد بدأت نفس الفكرة التي ولد وعاش الكاوبوي عليها تصبح سياسة ثابتة له...

فكما كان، في الماضي، يؤمن بأحقيته في امتلاك أية مساحة من الأرض بمجرد وضع يده عليها، ثم بضرورة القدرة على الدفاع عنها، بدأ الكاوبوي الأمريكي الجديد يمد نفوذه هنا وهناك إلى مسافات قريبة، نسبياً، منه، فأصبح بعض بلاد الشرق الأقصى منطقة نفوذ أمريكية، ومعظم بلاد أمريكا الوسطى والجنوبية كذلك...

ومع تتابع الأحداث في القارة الأوروبية، كان الكاوبوي الأمريكي بعيداً عن المشاركة فيها، وقد عبر تشرشل في مذكراته عن غيظه من هذا الموقف الذي جعل بريطانيا تقف به وحيدة في مواجهة العملاق الألماني الذي أطلقه هتلر في الثلاثينات من هذا القرن، والذي بدأ في التهام أقطار أوروبية واحداً تلو الآخر غير مكترث لشيء... ولكن الكاوبوي الأمريكي لم يبد كثير اهتمام، في الواقع، بما كان يجري في الوجه الآخر من الكرة الأرضية...

وفجأة نزل إلى الساحة كاوبوي آخر، كان الأسرع في إطلاق مسدسه، وأبرع في إحكام إصابته، ولكنه ـ في الواقع ـ لم يكن «كاوبوياً» تقليدياً وإنما كان من «السامورائي» الياباني...

لقد جاء الكاوبوي، هذه المرة، من اليابان.. فكانت حادثة «بيرل هاربر» ـ ٧ ديسمبر ١٩٤١ م ـ نقطة تحول في التاريخ.

كانت ضربة الكاوبوي الياباني موجعة وقاسية، حين غزا «بيرل هاربر» جواً وبحراً ليقضي على أعداد كبيرة من الأسطول الأمريكي، ولينبه الكاوبوي الأمريكي إلى أن هناك من يستطيعون تطبيق نفس الأساليب التقليدية للكاوبويز.

العجيب حقاً، أن الأمريكيين ما زالوا ـ حتى الآن ـ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معجبين بالأميرال الياباني «ياماموتو» الذي أعد وقاد ضربة بيرل هاربر التي أصابتهم في الصميم. . .

لقد ألّفوا عنه كثيراً من الكتب وما زالوا، وأنتجوا عن الحادثة أكثر من فيلم سينمائي ضخم.

كانوا مبهورين ـ ومعجبين ـ بالكيفية التي شهر بها الكاوبوي الياباني مسدسه ليطلقه على الكاوبوي الأمريكي. . .

قالوا ـ بإعجاب ـ أن الكاوبوي الياباني هو الأسرع في إطلاق مسدسه. . .

وسارت الأحداث على النحو الذي نعرفه وباتت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية القوة الكبرى الوحيدة في العالم. .

وهنا بدأ في التاريخ عهد جديد تسلمت أمريكا فيه ـ راضية أم مكرهة ـ زمام السياسة الدولية. . .

وكان دهاقنة السياسة الأوربيون يشدون شعورهم غيظاً واستنكاراً. . .

فإذا كانت الامبراطورية البريطانية قد أنشئت بالذكاء والخبث والدهاء، فإن الأمريكيين أنشأوا امبراطوريتهم بالمال والقوة والعنف. . .

ومرة أخرى يعرب لنا تشرشل عن غيظه ودهشته لما كاد أن يسميه ضيق الأفق الأمريكي. . مثال ذلك، أن رئيس

الوزارة البريطانية الأسبق قد بذل المستحيل لإقناع ـ أو لإفهام ـ القائد الأعلى للقوات الحليفة الجنرال الأمريكي أيزنهاور، بأن من الضروري أن تسارع تلك القوات إلى احتلال برلين ودول البلقان وأوروبا الوسطى قبل السوفييت. .

كان تشرشل يفكر كسياسي محترف يتطلع إلى ما وراء الأحداث. .

وكان أيزنهاور يفكر كـ «كاوبوي» محترف يريد أن يحقق نصراً عسكرياً كاملاً دون نظر إلى الخلفيات السياسية للمعارك العسكرية. .

وكانت نتيجة ذلك أن وقعت برلين ونصف ألمانيا ودول أوروبا الوسطى في قبضة الشيوعية واضطرت أمريكا، بعد ذلك، لبذل جهود هائلة لحماية ما تبقى من أوروبا تجاه المطامع والتهديدات السوفييتية.

لقد استخدم الكاوبوي مسدسه ولم يستخدم عقله. . وكانت النتيجة ما نرى. . وكان بوسع أمريكا أن تفرض على السوفييت ما شاءت بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، وانفرادها إذ ذاك بامتلاك هذا السلاح التدميري الفتاك. .

ولكن الكاوبوي ربت على مسدسه ـ وهو هذه المرة قنبلة ذرية ـ واكتفى من الغنيمة بما حقق. .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونفس القول ينطبق على الممارسة الأمريكية في الصين..

لقد حاول الزعيم الصيني «تشان كاي تشيك» عبثاً إقناع ـ أو إفهام ـ أمريكا نتائج تخليها عنه وتركها الصين نهباً لماوتسي تونج وأصدقائه السوفييت..

ولكن الكاوبوي لم يفهم.. وكان ما كان..

لقد وجد نفسه، كما كان في الماضي، في ساحة خالية من الأقوياء، سواه، فأعاد سيرة جده الذي كان يسيطر على بلدة بأكملها بواسطة مسدسه سريع الطلقات..

ولكن الوضع كان قد اختلف كثيراً..

كانت هناك دول أخرى، ليست عظمى في الواقع، ولكنها ذات تراث ثقافي وحضاري وسياسي عريق..

وكان في مقدمة تلك الدول فرنسا الديغولية التي كانت أول من قال للكاوبوي (لا) وتصرفت في معزل عن إرادة هذا الكاوبوي...

لقد فسر ديغول سياسته، بكل بساطة، إنها دفاع عن الثقافة الأوروبية، والفرنسية منها بشكل خاص، وأنه لا يرضى لدولة عريقة مثل فرنسا أن تصبح تابعاً للولايات المتحدة حتى ولو كانت تملك السلاح والدولارات.. كانت تلك السلسلة من الإجراءات التي اتخذها ديغول والتي كان لها وقع عميق في أمريكا لم تغفره للجنرال الفرنسي قط.. فقد استبدل ديغول

الدولارات التي تملكها فرنسا بالذهب، وأخرج قيادة حلف الأطلسي من أرض فرنسا، وبدأ بتطبيق سياسة تقارب مع السوفييت والصينيين، ووضع مصلحة فرنسا فوق مصلحة أمريكا..

ولا يتسع لنا المجال هنا لاستعراض كافة الصدمات التي أصيب بها الكاوبوي الأمريكي حين واجه مقاومة من صغار، وضعفاء، وفقراء، وكان في ظنه أنه لا يوجد على وجه الأرض من يجرؤ على مواجهته وهو: الكبير، والقوي، والغني.

ونكتفي بالإشارة إلى نموذج واحد وهو النموذج الفييتنامي..

فعندما، أقيم احتفال لذكرى ضحايا الحرب الأمريكية في فييتنام وكشف الستار ـ لأول مرة ـ عن الرقم الحقيقي للضحايا الأمريكيين في تلك الحرب..

كان الرقم سبعين ألف قتيل خسرتهم أمريكا في فييتنام من أجل «قضية» لم يعرف أحد، حتى الآن، ما هي على وجه التحديد...

ففي أيام تصاعد الحرب الأمريكية في فييتنام قالت أمريكا أنها تدافع عن «أمنها» مع أن أمريكا تبعد آلاف الأميال عن فييتنام..

لقد مارست أمريكا نفس المنطق الهتلري في التمسك بما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سماه هتلر «المدى الحيوي» والذي، بحجته، غزا تشيكوسلوفاكيا وبولندا. والنمسا ثم تعداها إلى معظم أرجاء أوروبا..

ولكن الشعب الأمريكي لم يقتنع.. وبات التساؤل عن معنى وفائدة حرب فييتنام مادة رئيسية للحديث...

بل إن نيكسون فاز بتلك الأغلبية الساحقة على أساس برنامجه لإنهاء الحرب في فييتنام.

وسواء شئنا أم أبينا، أو بالأصح: شاءت أمريكا أم أبت، فقد انتهت الحرب الفييتنامية بهزيمة أمريكا...

والغريب أنه عندما نقضت «هانوي» اتفاقية إنهاء الحرب واكتسحت فييتنام الجنوبية بأكملها لم تحرك أمريكا ساكناً.. أي ساكن.. فلقد كان الكاوبوي الفييتنامي أشد مراساً وأصلب عوداً. وأكثر مقاومة، ولقد قالها نيكسون مرة في رسالته الشهيرة لعبد الناصر: «نحن قوم نحترم الرجولة ونصفق للبطولة»..

وهكذا أصبح الانفراد بسياسة «غير أمريكية» سياسة رسمية في كثير من بلاد العالم ومنها أوروبا الغربية التي بدأت في تطبيق سياسة مستقلة، كثيراً أو قليلاً عن السياسة الأمريكية وخاصة عبر السوق الأوربية المشتركة والبرلمان الأوروبي..

وكل يوم، تقريباً، نسمع عن المظاهرات الشعبية

الرافضة لزرع الصواريخ الأمريكية النووية في أوروبا، والمنادية بسياسة لا تنحاز إلى أي من القوتين الكبريين..

وفي الشرق الأقصى: من كوريا إلى فييتنام إلى لاوس إلى كمبوديا لاقت السياسة الأمريكية هزائم أخرى...

فلقد أدرك العالم كله، من خلال واقع التطبيق السياسي الأمريكي العملي، أن أمريكا ليست مستعدة لأن تقاتل من أجل أحد سواها، وأن على الجميع أن يقاتلوا من أجلها...

وتثق أوروبا الغربية، اليوم، أن أمريكا لن تحرك ساكناً إذا ما هاجمها السوفييت ما دام هذا الهجوم بعيداً عن الأراضي الأمريكية..

وأن استخدام الصواريخ النووية ـ التي يقوم الخلاف حول زرعها في أوروبا الآن ـ هو للدفاع عن أمريكا ذاتها وليس عن أوروبا...

وأن الأمريكيين لو كانوا جادين حقاً في الدفاع عن أوروبا لفعلوا شيئاً ـ أي شيء ـ للدفاع عن المجر وتشيكوسلوفاكيا و... بولونيا...

وهذه هي ـ بالضبط ـ عقلية الكاوبوي الذي يعتمد على مسدسه أكثر مما يعتمد على عقله...

ومن المؤكد أن أوروبا في توجهها المزدوج نحو دولها فيما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بينها من جهة، ونحو السوفييت من جهة أخرى إنما تمارس حقها في الدفاع عن نفسها ومصالحها، تماماً، كما تفعل أمريكا...

وليس عهدنا بعيداً بالأزمة التي أثارها مشروع أنبوب الغاز السوفييتي الذي تحدت به أوروبا حليفتها الكبرى أمريكا وأصرت على تنفيذه..

والطريف أن الكاوبوي الأمريكي قد «أعجب» بالصلابة الأوروبية في التصميم على تنفيذ المشروع فكف عن معارضته وأعلن عن موافقته الضمنية..

إنه منطق الكاوبوي الذي يؤمن بأن الحديد لا يفله إلا الحديد...

ولو انتقلنا إلى الشرق الأوسط لوجدنا أن العقلية الأمريكية لم تتغير قط.. أمريكا تقول إنها زرعت إسرائيل في قلب المنطقة العربية لحماية مصالحها.. مع أنها تعلم أن شعوب المنطقة، أعني الشعوب العربية أقرب إلى التعاطف مع أمريكا منهم إلى التعاطف مع السوفييت لأسباب كثيرة أهمها أن السوفييت شيوعيون ملحدون..

ومن المؤكد أنه كان ـ ولا زال ـ بالإمكان إقامة علاقات طيبة متكافئة بين أمريكا والعرب تحفظ فيها مصالح الطرفين دون وجود إسرائيل.. وإن هذه العلاقات قابلة للتوثق والقوة

أكثر بكثير من علاقات تقام ـ إذا قامت ـ بسبب وجود إسرائيل...

ولا ندري أي كمبيوتر ذاك الذي أوحى للأمريكيين أن بأمكانهم أن يحفظوا مصالحهم في المنطقة العربية بالقهر والعنف والعدوان التي تمثلها إسرائيل..

وأي الحالتين أفضل: علاقة بريئة صادقة قائمة على الثقة.. أم علاقة ملطخة بدماء ضحايا الاعتداءات الإسرائيلية بالسلاح الأمريكي...

لقد وقف الأمريكيون مبهورين أمام روعة القتال الذي أداه العرب أيام حرب رمضان وقد اعترف نيكسون بذلك بصراحة تامة في مناسبات عديدة...

فالعربي كان أسرع إلى سحب مسدسه وأبرع في إطلاق نيرانه، فاستحق إعجاب الكاوبوي الأمريكي...

ـ هل يجب أن يصبح العالم كله «كاوبوياً» لكي يتمكن من التعامل مع أمريكا والتفاهم معها؟..

وبعبارة أخرى:

هل نعيش حياة الغاب.. وشريعة العدوان.. وأسلوب المسدسات سريعة الطلقات لكي نحمل أمريكا على تفهم قضايانا وقضايا سوانا من الشعوب؟

ترى...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما ضر الكاوبوي الأمريكي لو أنه قدم قوته التي لا ينكرها أحد في نصرة الشعوب المظلومة ومساعدة الدول المغلوبة على أمرها، وردع المعتدين والضرب على أيدي الأشرار؟.. وهلا يعتقد الكاوبوي، هذا أن مصالحه تكون في أمان أكثر، وضمان أكبر، بدل أساليبه الحالية التي أثبتت فشلها وجعلت أمريكا مكروهة في بلاد. وغير محبوبة في بلاد.. وغير مرغوب بها في بلاد ثالثة؟..

إنها مأساة العصر التي لم يسبق لها مثيل...

ففي زمن يفترض فيه أن تجني البشرية ثمار التكنولوجيا المذهلة التي وصلت إليها لتعيش بسلام ودعة واطمئنان.. نجدها تعيش حالة من الذعر الدائم والرعب المستمر.. فالكاوبوي يقف في الساحة شاهراً مسدسيه، يطلق النار جزافاً وعلى غير هدى...

أما في الطرف الآخر من الساحة فيجثو دب أبيض، ضخم الجثة، بطيء الحركة قوي الضربة، يعرفه العالم باسم «الدب الروسي».

وما بين الكاوبوي الأمريكي.. والدب الروسي.. تعيش البشرية أسوأ فترة مرت عليها منذ مئات السنين.. وذاك حديث آخر موعدنا معه ـ إن شاء الله ـ في القسم التالي.. حيث نلقي الضوء على سلوك «الدب الروسي» وتحركاته.. وعقليته، وممارساته في العالم..

بين الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي

٢ ـ الدب الروسي

في أي دائرة معارف أو مرجع عن التاريخ الطبيعي، تجد تعريف «الدب» متفق عليه في جملة نقاط أهمها: ضخامة الجثة، وبطء الحركة، وقوة الضربة والسذاجة و.. حب العسل و«الاستعباط».

وما أدري لماذا وكيف أطلق اسم «الدب» على الروس ـ الذين أصبحوا سوفييت بعد ولماذا اشتهر تعبير «الدب الروسي» في الاشارة إلى «روسيا»، ولكنني أتصور أن من ابتكر هذا اللقب أخذ في اعتباره التكوين النفسي والحركي ثم الهيكلي للكيان السوفيتي.

وأبادر فأشير إلى أن تمييزي ما بين «روسيا» والاتحاد السوفيتي هو تمييز مقصود، لأن منطلق دراسة أوضاع الدب الروسي في عالمنا المعاصر واعتباره، مع الكاوبوي الأمريكي، قوتين عظيمتين، إنما يبدأ ـ تحديداً ـ من تلك النقطة.

وأرجو ألا يدهش القارىء إذا وجدني أتجاوز مؤقتاً، عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واقع الاتحاد السوفييتي كدولة شيوعية كبرى، بدأت منها الشيوعية وانتهت إليها، فهذا ـ ورجاء من القارىء ألا يعجب ـ لا يعنيني كثيراً في موضوع بحثنا، لأن الدب الروسي بكل ما فيه من صفات. كان هكذا أيام القياصرة واستمر هكذا أيامنا هذه، ولم يتغير فيه شيء.. فهو ـ كما كان أيام القياصرة ـ ما زال ضخم الجثة، بطيء الحركة، قوي الضربة، غبياً، وهائماً بالعسل...

وقد ذهل بعض الناس من الغزو السوفييتي لأفغانستان وتساءلوا.. أي عفريت ركبهم حتى أقدموا على عمل كهذا.. وغزوا أفغانستان بين يوم وليلة؟ وهكذا فجأة بدون مقدمات.

وأما الراسخون في العلم.. فلم يفاجأوا أبداً.. بل اعتبروه خطوة متوقعة للتوسع السوفييتي.. الذي يحارب الإمبريالية.. والاستعمار إعلامياً، ويمارسها فعلياً.. بل ويسعى لبسط نفوذه على أكبر رقعة ممكنة.. ووفق تحرك استراتيجي مدروس.. وبتوقيت متزامن مع قدراتهم على الحركة.. والاستيعاب والتبرير غير المنطقي طبعاً.. ولكنه تصرف «الدب» وحركته...

إنني لا أنسى قط عبارة قرأتها منذ سنوات طويلة ولكنها تستوقف النظر وتستحق الاهتمام، وتعتبر مفتاحاً لتفسير تحركات الدب الروسي، بعيداً عن شعاراته المرفوعة ومبادئه المعلنة.

هذه العبارة تقول، قدر ما تسعفني الذاكرة:

إن روسيا كانت وستظل قيصرية وبيزنطية، وأن عظام القياصرة لتهتز الآن فرحاً في قبورهم. لأن الشيوعيين قد تفوقوا عليهم في إنجازاتهم الامبراطورية.

ومعنى هذا أن الشيوعية، كنظام، ليست أكثر من وسيلة جديدة في يد روسيا «الامبريالية» بعد أن كانت «البيزنطية» وسيلة القياصرة في بسط سيطرتهم ـ الإمبريالية أيضاً ـ على أجزاء شاسعة من أوروبا الشرقية وآسيا الشمالية الغربية. فكل ما تغير هو «نوعية النظام» ولكن المطامع الإمبريالية الروسية قد ظلت كما كانت.

معنى هذا الكلام أيضاً، أن شعار «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» الذي رفعه لينين، وبالتالي كل شعارات محاربة الاستعمار والإمبريالية لم تكن أكثر من أكذوبة كبرى، لأن شيوعيي روسيا لا يقلون عن أسلافهم القياصرة في مطامعهم الإمبريالية وخططهم التوسعية التسلطية..

ونستطيع القول ـ بكل بساطة ـ إن كل ما زاد عن روسيا الطبيعية من أراضي «الاتحاد السوفييتي» إنما هي مستعمرات روسية كان القياصرة قد بدأوا من قبل ببسط نفوذهم عليها، ثم جاء الشيوعيون فأضافوا إلى الامبراطورية الروسية بلاداً بأكملها كان القياصرة قد عجزوا عن السيطرة عليها..

فكيف يتفق هذا مع ادعاء الشيوعية محاربة الإمبريالية؟...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه واحدة . . .

أما الثانية : فتتعلق بأقطار أوروبا الشرقية التي يسيطر عليها السوفييت بحرابهم ودباباتهم تحت اسم «حلف وارسو»، وتحت شعار «منع توحيد ألمانيا» فأية علاقة بين روسيا وبين تلك الدول؟ . .

والثالثة هي الفضيحة التاريخية التي وقعت في بدايات الحرب العالمية الثانية . حين وقع «مولوتوف» و«ريبنتروب» - وزير خارجية ستالين وهتلر - اتفاقية التعاون والصداقة التي اقتسم فيها ستالين وهتلر أوروبا الشرقية، بحيث اجتاحت الجيوش الروسية فنلندا واستونيا ولتوانيا ولاتفيا في الوقت الذي كانت فيه جيوش هتلر تجتاح أواسط أوروبا وغربها .

ما الفرق - هنا - بين هتلر وستالين؟ . . أو بين روسيا الشيوعية وألمانيا الهتلرية؟

وكما نعلم، فلقد كان من الواضح . إذ ذاك، أن الحرب العالمية الثانية سوف تتمخض عن قوتين عظميين عالميتين ليس غير، هما روسيا وأمريكا، لأن منطق مجريات الحرب كان يشير إلى ذلك، ومن هنا كان اتفاق «يالطا» الذي عقد بين ستالين وترومان وتقاسم الاثنان فيه مناطق النفوذ، ونظراً لأن ترومان لم يكن أكثر من «كاوبوي» جاء من بلاد «الكاوبويز» لم يكن يهمه كثيراً أن يفكر بعقله قدر ما يهمه أن يستخدم قوته ويطمئن

إليها، فإن ستالين قد انتزع منه شيئاً كثيراً، رغم ضعف موقفه بالنسبة لأمريكا التي كانت تمتلك - وحدها إذ ذاك - القنبلة الذرية، وهو الأمر الذي اضطر السياسي المحترف «تشرشل» للتدخل، رغم علمه أنه لم يكن يمثل أكثر من دولة من الدرجة الثانية . فعدّل الاتفاق بخط يده، وكان فحوى الاتفاق إطلاق يد روسيا في جميع أقطار أوروبا الشرقية والوسطى مع تحفظ واحد، هو الذي كتبه تشرشل بخط يده، يتعلق برومانيا وهو أن تكون من نصيب السوفييت بنسبة تسعين في المائة ومن نصيب «الغرب» بنسبة عشرة في المائة وهذا هو سر انفراد رومانيا بمواقف خاصة خرجت بها عن إجماع الدول الشيوعية الأخرى، فهي تعلم أنها تتمتع بنسبة ١٠ في المائة من حماية الكاوبوي الأميركي وقد استطاعت استغلال هذه الحماية ببراعة .

وهكذا تضخم الدب الروسي وترهل أكثر فأكثر، وباتت له أمبراطورية مترامية الأطراف تحتل جانباً كبيراً من أوروبا الشرقية، ومن آسيا الشمالية، تجمع مائة وأربع قوميات وتتكلم عشرات اللغات، وتضم أكثر من مائتين وسبعة وخمسين مليوناً (عدا سكان المستعمرات غير الداخلة في نطاق الاتحاد السوفييتي) .

أما عن بطء الحركة، فإنها سمة أساسية من سمات الدب الروسي، كما هي سمة الدب الأصلي، ولقد قرأنا عن هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البطء شيئاً كثيراً في مذكرات كثير من السياسيين بما فيهم بعض السياسيين العرب. فيوم الكرملين بسنة، وشهرهم بعقد، وسنتهم بقرن، وهم يعترفون بذلك ويقولون أن سببه هو «البيروقراطية» و«الروتينية» وكثرة الجهات التي يجب عليها المشاركة في اتخاذ القرار...

ولكن قوة البطش وسرعة الحركة تبدو لنا على الفور إذا ما خطر لإحدى المستعمرات أن تحاول استنشاق هواء الحرية، فالدب ـ عندها ـ يكشف عن مخالبه ويضرب بلا أدنى رحمة أو شفقة، وهو ما حدث في المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا و... أفغانستان..

ويبقى بعد ذلك أن نتساءل:

ـ إذا كان قد تبين لنا أن الدب الروسي ضخم الجثة، قوي الضربة، بطيء الحركة محب للعسل (والعسل هنا هو المستعمرات الروسية طبعاً) فهل هو ـ بعد ذلك ـ (ساذج)؟

ونجيب:

ـ أجل.. إنه كذلك.. ولو لم يكن ساذجاً لما كان دباً، فهو ساذج إذ يعتقد أن هناك عاقلاً واحداً يصدق مزاعمه حول معاداته للإمبريالية ومحاربته إياها.. وهو غبي إذ يعتقد أننا نصدق دعاواه في نصرة الشعوب المستضعفة والتي يجعل أعوانه من تلك الدعاوي بضاعة يومية يتاجرون بها.. وهو غبي إذ

يعتقد أن بوسعه أن يقضي على الإسلام، والإسلام بالذات، سواء داخل الإمبراطورية الروسية أو خارجها..

وهكذا اكتملت مأساة عالمنا المعاصر في وجود الكاوبوي الأميركي بمسدسيه سريعي الطلقات والدب الروسي بضخامته وبلادته وغبائه وهيامه بالعسل..

إن من المفارقات الطريفة، هنا، أن الطرفين كليهما يعتمدان على قوتيهما العظميين في سياستهما العالمية، وأنهما لا يجهدان النفس كثيراً في «التفكير» الذي قد يصل بهما، لو حدث، إلى الاقتناع بعقم محاولاتهما للسيطرة على العالم..

لقد سار السوفييت وراء السياسة الأمريكية يستفيدون من أخطائها ويوظفونها لحسابهم لا لأنهم «أذكياء» ولكن لأن الأميركيين أنفسهم «غير أذكياء»...

فمن الحقائق المدهشة، والمضحكة، أن وراء كل نصر سوفييتي خطأ أميركي، فكلما ارتكبت أمريكا أخطاء في حق الشعوب التي تتعامل معها، كان هؤلاء يعبرون عن رأيهم في أمريكا بالانحياز إلى روسيا، لا حباً بها، ولكن نكاية في أمريكا.

ولو أن أمريكا وعت هذه الحقيقة، فمما لا شك فيه أن وجه التاريخ كان قد تغير كثيراً عما هو عليه الآن، ولكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمريكا ـ لسبب ما ـ لم تفهم ذلك قط. . وما زالت لا تفهمه حتى الآن. . .

والدليل على ذلك أن جميع الدول التي ارتبطت مع السوفييت بعلاقات طيبة، لم تلبث ان انقلبت عليهم في فترة لاحقة، وكان السوفييت يتغاضون أحياناً. ويصلحون خطأهم حناً آخر، أو يهملون البلد الذي انقلب عليهم، وفي جميع الأحوال لم يحدث قط أن أمريكا استطاعت الاستفادة من تلك المتغيرات والتعامل مع تلك الشعوب من منطلق يختلف عن منطلق أسلوبها الذي يستمد من أخلاقيات وطباع «الكاوبوي» الشيء الكثير.

ثم جاءت لعبة «الوفاق» التي كشفت حقيقة موقف الكاوبوي الأميركي والدب الروسي معاً. . ويمكن تلخيص تلك اللعبة ـ بكل بساطة وإيجاز ـ بأن الطرفين كليهما يبحثان عن مصالحهما قبل كل شيء. وأن علاقتهما مع الدول الأخرى، كبيرها وصغيرها، محكومة بهذا الاعتبار. . .

وتم التفاهم على مناطق النفوذ. .
بعضها مغلق لصالح أمريكا. .
وبعضها مغلق لصالح السوفييت وحدهم. .

وبعضها متروك لـ «شطارة» الطرفين ما دامت لا تمس مصالحهما مساساً مباشراً.

وعلى هذا الأساس سارت سياسة القوتين الكبيرتين خلال السنوات الفائتة، فلا غزو السوفييت لتشيكوسلوفاكيا أزعج أمريكا، ولا اعتداؤهم على أفغانستان استدعى وقفة أميركية صلبة، وبالمقابل ظلت ـ إسرائيل ـ تعربد في الشرق الأوسط ـ بالأسلحة الأميركية ـ والسوفييت يتغاضون، فالوفاق سائد بين الطرفين، وكل منهما يبحث عن مصالحه الخاصة ضمن حدود اللعبة، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. . .

وخلال ذلك، كان ما يزيد عن ثلاثة مليارات ونصف المليار من سكان العالم يعانون من مد سياسة الوفاق وجزرها، ويكتوون بنار المطامع التي تمثلها الدولتان القويتان: الكاوبوي المسلح بصواريخ «بيرشنغ» والدب المسلح بصواريخ (س. س). . وكلاهما لا يهتم لغير مصالحه الإمبراطورية التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً. . .

ومع أن لكل من الطرفين حلفاءه وأصدقاءه، فقد أثبتت الأحداث، أن أولئك الحلفاء والأصدقاء يرزحون تحت وطأة التحالف القاتل والصداقة المميتة، وأنه لولا حسابات الأوضاع الدولية القائمة وتوقعاتها لانفض الجميع عن العملاقين كليهما، وهو ما رأينا له أدلة ومظاهر كثيرة. .

أوروبا الغربية، مثلاً، لم تترك وسيلة تعبر بها عن ضيقها من السياسة الأميركية إلا وسلكتها، ووجدت في تكتلاتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السياسية والاقتصادية طريقة تحاول أن تتقي بها شر السياستين الأميركية والسوفييتية معاً..

وأوروبا الشرقية، هي أسوأ حالاً، تكاد أنفاسها أن تزهق تحت وطأة «الصداقة» السوفييتية فتعبر عن رأيها بتلك الانتفاضات الدموية بين الحين والحين..

وفي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، نجد الظاهرة نفسها التي تتأرجح ما بين الاستقلال، كثيراً أو قليلاً، عن العملاقين، والتحالف الكامل مع أحدهما، ثم تأرجح هذا التحالف بدوره ما بين المتانة والفتور، بمقدار ما تتطور مجريات السياسة العالمية...

ولعل ظاهرة التكتل والتوحد والاندماج التي نراها في بعض أنحاء العالم، إنما هي نتيجة تلقائية لتحسس الدول والشعوب بأخطار التعامل مع الكاوبوي الذي اعتمد مسدسه وسيلة للتفاهم، والدب الذي ليس له من هدف أو غاية إلا: العسل..

ففي أوروبا نجد السوق الأوروبية المشتركة والبرلمان الأوروبي المشترك، والمجالس الوزارية المشتركة، وفي أفريقيا نجد منظمة الوحدة الأفريقية، وفي آسيا نجد تكتلات إقليمية عديدة، وفي الخليج نجد مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وفي العالم الإسلامي نجد رابطة العالم الإسلامي والمؤتمر

الإسلامي، ومؤتمرات القمة والوزراء المتخصصين في العالم الإسلامي وربما أمكن أيضاً أن نضيف «جامعة الدول العربية»، وكل هذه التكتلات تهدف ـ حسب ظروف كل منها ـ إلى حماية نفسها من العملاقين المتربصين بالأرض وسكانها، والبحث عن مصالحها بعيداً عن مخاطر التعامل مع أي من العملاقين..

وإذ نتساءل:

ـ ما هو موقفنا، كمسلمين وكعرب، وسط لهيب الأوضاع الدولية الحارقة؟...

وما هو موقفنا ونحن مستهدفون بشكل مباشر من القوتين الكبيرتين معاً، في سعيهما المحموم لاحتوائنا وضمنا إلى مناطق نفوذهما؟..

ـ وما هي الوسيلة التي نستطيع بها أن نحقق أهدافنا الوحدوية والتطورية مع أقرب الناس إلينا وألصقهم بنا وأكثرهم اتفاقاً معنا في الأهداف والطموحات، وفي التعرض لمخاطر مؤامرات الكاوبوي وزميله الدب؟..

الجواب، من غير تردد، إنما يكمن في كلمتين اثنتين ليس غير، بهما نحمي أنفسنا، ونقف كقوة عالمية ذات وزن، ونصدع ـ قبل ذلك ـ بما أمر به ربنا وديننا:

ـ التضامن الإسلامي.. التضامن الذي يطابق القول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفعل، . . ويسعىٰ فعلاً لجعل كلمة الله هي العليا . . .

أجل ففي غمرة الصراع العالمي المستميت بين القوتين الكبريين، ووسط تعقيدات المواقف الدولية التي لم يسبق لها ان كانت ـ تاريخياً ـ كما هي اليوم، نجد أن اتجاه المسلمين إلى بعضهم البعض، وتحالفهم وتضامنهم ووحدة كلمتهم، ووحدة اقتصادهم، ووحدة أهدافهم، هي السبيل الوحيد ـ بل الأوحد ـ نحو التحول التاريخي الحاسم الذي به نثبت جدارتنا في أن نكون مسلمين . . .

ولهذا الحديث لقاء آخر بإذن الله . . .

بين الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي
٣ ـ طريق السلامة

فما هو طريق السلامة إذن؟
وأين نقف؟
ومع من؟

وإذا كانت هذه هي طبيعة التصرف الأمريكي وتلك سمات عقليته، وطبيعة حركته . . وإذا كان هذا هو التصرف الروسي مع من يدور في فلكه من قوى مكملة له، حركة، وتأهب، ثم انقضاض، فإني أحسب أن طريق السلامة لن يكون عن طريق إثارتهما، أو بمحاولة الاحتكاك بأي منهما، أو الانضمام إلى أي من المعسكرين، بل إن طريق السلامة هو استقلالية، وذاتية، وأصالة، وعقلانية تحكم حركتنا . . .

نحافظ فيها على احترام أنفسنا، والحفاظ على ذاتيتنا دون ما حاجة إلى التورط في حبائل أي منهما، وفرق كبير بين التعاون الذي لا يرفضه عاقل، والذي تحتمه المصالح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاقتصادية والعلمية، وغيرها، وبين التحالف الذي لا يجلب إلا أضراراً مباشرة، وإثارة لأحدهما حسداً وغيرة من الآخر، ولكن أحداً لا يمكن أن يلومنا أو يمنعنا من التعاون في المجالات الحيوية، والمعاشية، غير أن الخطورة كما أسلفت تكمن دون شك، في عملية الاستدارج التي تتم نحو تطوير العلاقات مع أي من المعسكرين بشكل يسمح له بالاقتراب فالتواجد، فالتدخل في شؤون المنطقة، وعندها يستحيل التنبؤ بأبعاد ومخاطر المراحل القادمة..

والعقل دون شك يدعونا من الناحية الأخرى إلى عدم إثارتهما، أو التصادم معهما، فرحم الله امرءاً عرف قدر نفسه، والقيم أيضاً، والمبادىء الأصيلة لهذه الأمة تدعونا للعزة، والكرامة، فلا نهين أنفسنا خوفاً، أو وجلاً، فنهون على الناس ومن يهن يسهل الهوان عليه..

ولقد خلصت في الحلقتين السابقتين بعد استعراض حال القوتين الكبيرتين في العالم (أمريكا وروسيا) وممارساتهما في السياسة الدولية.. خلصت من ذلك الاستعراض بحقيقتين..

الأولى: أنه لا أمل في أن تتفهم الولايات المتحدة الحقائق المحيطة بأوضاع كل منطقة وكل دولة في مختلف بلاد العالم، وأن هدفها الوحيد هو تحقيق مصالحها عن

طريق «العنف» أي بنفس طريقة الكاوبوي الأمريكي التقليدي الذي لا يتحدث إلا بلغة المسدسات سريعة الطلقات، ولا يعجب ـ أو يحترم ـ إلا بكاوبوي مثله يسارع إلى إشهار مسدسه أولاً، بصرف النظر عما إذا كان ذلك الكاوبوي على حق أو على باطل، وأن هذه السياسة إذا صلحت فيما مضى ـ دون شك ـ لا تصلح في عصرنا هذا، فعصر الكاوبوي قد انتهى وانقضى، والسياسة الأمريكية تلحق الضرر بالمصالح الأمريكية، كما تلحقه ـ قصداً أو عفواً ـ بمصالح كثير من الدول الأخرى بما فيها الدول الصديقة.

الثانية: إن الاتحاد السوفييتي، الذي ما زال يرمز إليه بالدب الأبيض منذ عهد القياصرة إلى اليوم، مشغول بمطامعه «الإمبريالية» التي حقق شطراً كبيراً منها والتي أكمل بها «السوفييت» ما بدأ به القياصرة، مع فارق هام جداً هو أن القياصرة كانوا يعترفون بأن لهم مطامع «إمبريالية» أما «السوفييت» فإنهم يحققون مطامعهم «الإمبريالية» تحت شعار «مكافحة الإمبريالية».

ومن منطلق «الرادع النووي» الذي لجم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدولتين العظميين ـ كليهما ـ أصبح المقياس هو القوة العسكرية التقليدية، أصالة أو وكالة، وأن الدول الأخرى، حتى ما كان خاضعاً منها مباشرة لإحدى القوتين ليست ملزمة بالضرورة لأن تنحاز إلى إحدى القوتين، ولو كرهاً في إحداهما، وأن أصغر دولة في العالم، ولو كانت بحجم طابع البريد، من حقها أن ترفض الانحياز، وأن تبحث عن مصالحها الخاصة مثلما يبحث العملاقان عن مصالحهما الخاصة.

وبطبيعة الحال لم تلاق هذه النظرية هوى في نفوس الأمريكيين أو السوفييت، فأمريكا رفعت في وقت من الأوقات شعار «من ليس معي فهو ضدي» وروسيا لها أسلوبها الخاص في الغزو والسيطرة والاقتحام، مع إيجاد المبررات «الأيديولوجية» اللازمة..

وربما كان الرئيس اليوغوسلافي الراحل «تيتو» من أوائل من أدركوا حقائق متغيرات عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية، فهو أول من شق عصا الطاعة على الكرملين، وذلك بعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب، وانفصل عن الفلك السوفييتي الذي كان يدور فيه، وأعلن سياسة مستقلة عن

المعسكرين مستغلاً بذلك ظروف السياسة الدولية في ذلك الحين، والخوف السوفييتي من السلاح النووي الأمريكي، إذ لم تكن روسيا قد امتلكت هذا السلاح بعد، وتمكن تيتو من أن يثبت على سياسته هذه إلى حد بعيد، وضمن حسابات دقيقة جعلت استقلاله عن سلطة الكرملين أمراً واقعاً استمر بعد ذلك إلى يومنا هذا..

وربما نسجل لتيتو هذا الموقف لنستخلص منه المغزى: وهو اكتشافه وسيلة للتعايش مع العملاقين، وفي معزل عنهما، الأمر الذي وجه انتباه العملاقين إلى ضرورة بلورة موقف الدول ـ معها أو ضدها ـ فبدأت بذلك «موضة الأحلاف» التي كانت وسيلة لتحديد مواقف بعض الدول، فظهر حلف الأطلسي، وتبعه حلف وارسو. ثم بدأت «حقبة الأحلاف» في التاريخ الحديث التي بدأت مع مطلع الخمسينات.

المهم هنا، أن العملاقين ـ على قوتهما العظمى ـ شعرا بالحاجة إلى «التكتل» مع دول أخرى، بصرف النظر عن مدى قوتها، وما تملك من مال وسلاح، لأنهما شعرا بأنهما لا يستطيعان الانفراد بالمواجهة كلاً اتجاه الآخر، فكانت «حقبة الأحلاف» مرحلة عاصفة في هذا القرن، سالت بسببها دماء كثيرة، ووقعت أحداث هائلة، وتغيرت دول وأنظمة وحكام،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان المستفيد الوحيد في ذلك هو هذا المعسكر أو ذاك . .

فإذا كان العملاقان قد شعرا بعجزهما عن الوقوف وحيدين، وهما على ما هما عليه من قوة وسلاح ومناطق نفوذ، فماذا يكون شأن الدول الأخرى التي تعتمد على أحد المعسكرين في كثير من الشؤون العسكرية والاقتصادية والسياسية.

لقد بدأ الضيق بسياسة الدولتين العظميين ومحاولاتهما احتواء الدول الأخرى إلى صفهما يطرح شعاراً جديداً هو «الحياد» الذي أبدل اسمه بعد ذلك إلى تعبير أكثر دقة هو «عدم الانحياز» . .

وكان «عدم الانحياز» ـ هذا ـ جزءاً من طريق السلامة الذي اكتشفته دول كثيرة، ليست كبيرة وليست عظمى، وبات هذا الشعار مرفوعاً حتى اليوم، وما زال يزعج الأمريكيين والروس معاً . .

عملياً لم تكن دول «عدم الانحياز» جميعاً «غير منحازة» فهناك دول ذات ارتباط وثيق بأمريكا، وأخرى بالسوفييت، ولم يستطع هذا الاتجاه أن يبلور نفسه كقوة عالمية ثالثة، فظل عدم الانحياز شعاراً ورموزاً أكثر منه تطبيقاً ومنهجاً، بل إن العملاقين قد اتخذا من بعض دول عدم الانحياز «حصان

طروادة» الذي به يضربون المنظمة والشعار، ويفرغونها من كل مضمون عملي.

ولا يتسع لنا المجال للبحث في عوامل عدم فعالية منظمة دول عدم الإنحياز، رغم استمرار اجتماعاتها ومؤتمراتها، ولكننا نقول إنه من غير المعقول أن يجتمع أقصى الشرق وأقصى الغرب في منظمة واحدة. ذات أهداف واحدة، وأن تتفق دولة شيوعة النظام مثل «كوبا/ كاسترو» مع دولة أو دول أخرى تتناقض معها في كل شيء.

عدم الانحياز إذن ليس هو «طريق السلامة» تجاه العملاقين، فماذا يكون هذا الطريق؟ . .

إنه ـ وبكل بساطة ـ التكتل الدولي ذو التوجهات المشتركة الحقيقية. .

ومن بين كثير من تجارب هذه التكتلات، أنتقي تجربتين نموذجيتين يمكن أن نجعلهما مقياساً لما يجب أن يكون عليه طريق السلامة.

وأضرب صفحاً عن «منظمة الشعوب الأمريكية» والأحلاف العسكرية، والمنظمات الأقليمية المرتبطة كلياً بأحد المعسكرين، لأنها أدوات سياسية أكثر منها تكتلات فعلية، وأختار تجربتين اثنتين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التجربة الأولى: زمنياً، هي تجربة السوق الأوروبية المشتركة، وما تفرع عنها من مؤسسات، لقد أدركت دول أوروبا الغربية أنها قد أصبحت دولاً من الدرجة الثانية، تجاه أمريكا وروسيا، وأن عهد إمبراطورياتها قد ولى ليفسح الطريق لامبراطوريتي الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي الأحمر، وأن طريق السلامة الوحيد المفتوح أمامها هو أن تتوحد لتشكل قوة قائمة بذاتها تستطيع مواجهة العملاقين والدفاع عن مصالحها...

والواقع أن التناقضات القائمة بين دول أوروبا الغربية هي أكثر من عوامل الاتفاق، فهناك ثارات تاريخية قديمة بين ألمانيا وفرنسا، وهناك نزاعات - مجمدة - على الحدود، وهناك ثقافات مختلفة جذرياً عن بعضها، فالثقافة الألمانية هي غير الثقافة الفرنسية، وغير الثقافة الإيطالية والتوزيع السكاني غير منسجم مع واقع كل دولة، فهناك «فرنسيون» يتكلمون اللغة الألمانية، وهناك تنافس اقتصادي كبير بين معظم الدول الأوروبية، بحكم أنها كلها صناعية، وهناك اختلافات في أنظمة الحكم، وهناك مشكلات داخلية كثيرة..

ورغم ذلك كله كانت «الوحدة» هي الوسيلة الوحيدة أمام تلك الدول لكي تحمي نفسها في غمرة الصراع المستميت بين العملاقين...

وهكذا أنشئت «السوق الأوروبية المشتركة» والبرلمان الأوروبي، ومجلس الوحدة الأوروبية، وهي مؤسسات غايتها السير بالدول الأوروبية على طريق الوحدة بتؤدة واتزان، بدءاً من التنسيق الاقتصادي وانتهاء بشكل وحدوي يجمع بين تلك الدول على غرار الولايات المتحدة الأمريكية..

وبقدر ما شعر السوفييت بالارتياح لذلك، شعر الأمريكيون بانزعاج.. فالسوفييت يؤيديون - بطبيعة الحال - أية مبادرة تهدف إلى الانعتاق من السيطرة الأمريكية بالنسبة لأية دولة من الدول، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بدول أوروبية كانت عظمى؟...

والأمريكيون يعتبرون الأوروبيين الغربيين حلفاءهم الطبيعيين، ولكن على الطريقة الأمريكية، فالكاوبوي الأمريكي هو الذي يحمي أوروبا الغربية بمسدسه وعلى الدول «المحمية» أن تدين له بالولاء والطاعة، ما دام هو الأقوى والأقدر..

وصدرت عن الولايات المتحدة مبادرات كثيرة أراد الأمريكيون منها أن يفهموا الأوروبيين أنهم لا يساوون شيئاً بدونهم.. وفي نفس الوقت دافع الأمريكيون بعنف عن مصالحهم الاقتصادية ضد مصالح الدول الأوروبية، ومن شواهد هذا الدفاع معركة طائرة «الكونكورد» الفرنسية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البريطانية التي قتلها الأمريكيون دون شفقة رغم أنها كبدت فرنسا وبريطانيا نفقات باهظة جداً، وتفوقت «البوينج» الأمريكية حتى في قلب أوروبا الغربية.

وسيطرت الثقافة الأمريكية، بسطحيتها وفراغها من المحتوى الجدير بالتقدير، على عقول الأجيال الأوروبية، عبر المسلسلات والموسيقى والرقص، الأمريكية، التي أخذت طريقها بسهولة إلى تلك الأجيال.

وكانت مبادرة الرئيس الفرنسي ديغول، ضد أمريكا، أول رد على ذلك الغزو، وهي المبادرة التي زلزلت مركز الدولار فترة من الوقت، وأدت إلى تخلي أمريكا عن ضمان سعر الدولار، مما لا تزال أثاره تتفاعل حتى الآن، وكان تعليل ديغول لمبادرته تلك أنها ـ بكل بساطة ـ دفاع عن الثقافة الفرنسية..

وكلنا نتذكر الموقف الحيادي الذي وقفته الدول الأوربية الغربية تجاه التدخل الأمريكي لصالح إسرائيل أيام حرب رمضان وقد رفضت جميع الدول ـ عدا البرتغال ـ أن تسمح بإقامة جسر جوي أمريكي إلى إسرائيل عبر أجوائها، ورفضت كذلك إخراج أية أسلحة أمريكية من قواعدها في أوروبا، وعندما حاولت أمريكا أن تلوح بحلف الأطلسي والتزاماته التي تشمل الجميع، ردت الدول الغربية ـ وهي أعضاء في الحلف ـ إن التدخل الأمريكي لصالح إسرائيل لا يدخل

ضمن مهام الحلف وإنها بالتالي ترفض التعاون مع أمريكا في ذلك. وقد كان ذلك موقفاً يلفت النظر فعلاً إذا أخذنا في الاعتبارات العلاقات الوثيقة القائمة بين إسرائيل ومعظم دول الحلف...

وكان موقف الدول الأوروبية من مشروع خط أنابيب الغاز السوفييتي تعبيراً آخر عن محاولة أوروبا الغربية إثبات استقلاليتها حين قررت المضي في تنفيذ المشروع لصالح السوفييات رغم اعتراض الأمريكيين..

وزاد في بلبلة الأمور دخول بريطانيا السوق الأوروبية المشتركة، وهي الدولة التي تعتبر أكثر دول أوروبا الغربية ولاء لأمريكا وارتباطاً بها، فكأن الأمريكيين قد دسوا ـ عبر بريطانيا ـ «عميلاً» ينطق بلسانهم ويدافع عن مصالحهم ويحاول تخريب السوق إذا استطاع..

فإذا كانت الدول الأوروبية رغم تناقضاتها العميقة قد سارت على طريق الوحدة رغم كل الصعوبات، فما يكون عذرنا ـ نحن العرب ـ إذ نجد منظمتنا الوحدوية العتيدة ـ أعني جامعة الدول العربية ـ لم تكد تحقق شيئاً على طريق التنسيق بين الدول العربية الاثنتين والعشرين؟

إننا حين ننظر إلى حالة التمزق والتشرذم القائمة بين بعض الدول العربية لنشعر بالدهشة بقدر ما نشعر بالألم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك أن مقومات الوفاق العربي أكثر ـ بما لا يقاس ـ من مقومات الوفاق الأوروبي، وفي مقدمتها: الدين، واللغة، والتاريخ، والامتداد الجغرافي، والترابط الاقتصادي والحياة البشرية والثقافة و... الهموم...

ولو قارنا أسباب الخلاف العربية بأسباب الخلاف الأوروبية لوجدنا الفارق عظيماً... فالشعوب الأوروبية مختلفة جذرياً في كل شيء، وثاراتها تضرب عميقاً في التاريخ البعيد والقريب...

بينما لانجد أسباباً جوهرية للخلافات العربية أكثر من المصالح الذاتية، التي تكاد تكون فردية، والتي يمكن حلها كلها دفعة واحدة إذا ما صدقت النية وصح العزم..

ولقد أثبتت الشعوب العربية مصداقية تماسكها بالانتماء العربي في أوقات الأزمات والحروب، فتضامنت جميعها، أيام المعارك مع العدو الصهيوني، لا سيما أيام حرب رمضان، وأسهم كل منها بما استطاع في تحقيق النصر...

والتفاعل الثقافي بين الشعوب العربية هو أكثر عمقاً ورسوخاً عندنا عما هو عليه في أوروبا الغربية...

والمصالح الاقتصادية والبشرية والسياسية هي أكثر وضوحاً وإلحاحاً عما عليه لدى الشعوب الأوروبية...

ومع هذا لم يعرف العالم العربي في تاريخه كله حالة من التمزق والتشرذم والتباعد والخصومة كما هو الشأن اليوم...

لماذا؟

لا أحد يدري...

وفيم الخلاف؟

لا أحد يدري...

أقولها صادقاً، وأرجو من أي كان أن يتكرم بإقناعي ـ بأية وسيلة ـ بجدية أسباب الخلافات العربية واستعصائها على الحل...

ومن هنا برزت صورة نموذجية من صور التحسس بأخطار الأوضاع العالمية الراهنة، والحاجة إلى التعاون والتنسيق وأعني بها صورة «مجلس التعاون الخليجي».

ولا نعرف تنسيقاً دولياً حقق النجاح والتطور الإيجابي المستمر مثلما حقق التنسيق بين دول مجلس التعاون.. على الأقل. فيما طرح حتى الآن.. وما تم بالفعل.

ولعل هذا المجلس هو المؤسسة الدولية الوحيدة التي لم تعصف بها الخلافات ولم يهزها تباين في وجهات النظر، فاتفقت جوهراً ومخبراً، وسارت على طريق السلامة أشواطاً بعيدة جداً في زمن قصير جداً.. فقد ساروا على أساس «أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعله ـ كذلك ـ أصدق صور التعاون العربي الذي وضع الأماني موضع التطبيق وبلور الوحدة الخليجية على شكل إجراءات عملية أفاد منها كل مواطن خليجي، وأصبح يتطلع إلى تعاون مستقبلي أوثق.

وفي اعتقادي أن سبب نجاح التعاون الخليجي مرده إلى النية الصادقة المشتركة بين جميع الأطراف لإنجاح هذه المؤسسة والسير بها في الطريق المرسوم بشكل متواصل لا يتوقف عند أية عقبة...

فالمقررات المشتركة، من القمة إلى القاعدة، تتخذ طريقها إلى التنفيذ الفوري، وتباين وجهات النظر ـ إذا وجد ـ يحل بمزيد من الدراسة والتحليل للتوصل إلى صيغة تلائم جميع الأطراف...

ولو أن أسلوب مجلس التعاون الخليجي قد طبق على مستوى الوطن العربي كله لتغير وجه التاريخ، ولبات حال العرب خيراً مما هو الآن...

وقد يخطر لك أن تتساءل:

ما الذي يمنع من تطبيق النموذج الخليجي على دول الجامعة العربية كلها؟ وأجيبك: بأنه لا شيء ـ عملياً ونظرياً ـ يمنع من ذلك... ولكن... وأكتفي من الجواب بهذا الحد.

المهم أن عهد المواقف الفردية قد انتهى منذ نهاية الحرب

العالمية الثانية ويستحيل على أية دولة، حتى ولو كانت أمريكا أو روسيا، أن تنفرد بمواقف وأوضاع تختلف أو تنعزل بها عن الآخرين..

فإذا كان العملاقان ـ وهما عملاقان ـ يشعران بالحاجة إلى حلفاء وأصدقاء يبذلان من أجل ذلك جهوداً محمومة وأموالاً طائلة...

وإذا كانت الأخطار المتربصة بالجميع قد دعت أعداء الأمس في أوروبا الغربية إلى التوافق والتعاون والتنسيق...

وإذا كانت هناك تجارب نموذجية تثبت أن التكتل الإقليمي والدولي ممكن، إذا صدقت النيات.

إذا كان الأمر كذلك من مختلف نواحيه ـ وهو كذلك فعلاً ـ فماذا يتعين علينا ـ نحن المسلمين ـ الذي يعدون قرابة مليار نسمة أن نفعل؟...

وكيف نواجه الحروب الشرسة الموجهة ضدنا بالذات ـ لأننا مسلمون ـ من العملاقين كليهما؟

وكيف نستطيع أن نحمي أنفسنا وسط خضم الأعاصير التي تجتاح معظم أرجاء العالم؟

وكيف ـ بعد ذلك ـ نستطيع أن نتقي شرور ممارسات الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي ونقف كقوة دولية ذات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وزن مستقلة المواقف والآراء . . .

ذلك هو موضوع القسم الرابع ـ والأخير ـ من حديثي هذا . . .

بين الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي
٤ ـ التضامن هو الحل

وهكذا رأينا أن الاتجاه إلى التكتل الدولي، على أوسع نطاق، رغم التناقضات ورغم الخصومات التاريخية والعداوات التقليدية، هو السمة المميزة للعصر الذي نعيش فيه تستوي في ذلك الدول المتحضرة والدول المتخلفة والدول الكبرى والدول الصغرى لأن كلاً منها يشعر بأنه لا يستطيع الوقوف وحيداً في ساحة تتصارع فيها الوحوش البشرية لدرجة الموت، وتتكشف فيها المطامع والأهداف العدوانية إلى درجة التدمير.

وحتى العملاقان ـ الكاوبوي بمسدسه، والدب بمخالبه، يبذلان جهوداً مستميتة لاكتساب الأعوان والحلفاء والأصدقاء، لأنه لم يعد للفرديين والانعزاليين مجال في عالم الثورة الاليكترونية والكومبيوتر والصعود إلى الكواكب . . وعلى أهل الأرض جميعاً أن يختاروا لهم طريقاً . . مع الكاوبوي . . أو مع الدب . . أو مع بعضهم البعض.

فالتكتل والتضامن هو الحل، والمهم هو اختيار اتجاه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التكتل وتحديد جهة التضامن، وما من شك في أن كل دولة تتجه إلى هذا المعسكر أو ذاك، أو ـ تعمد إلى الدخول في تكتلات إقليمية، إنما تنطلق في ذلك من أوضاعها البشرية والجغرافية والاقتصادية والسياسية، ومن عوامل أخرى لا تخفى على القارىء.

ولو أردنا أن نسرد تاريخ دول أمريكا الوسطى والجنوبية خلال مائتي سنة خلت، لتبين لنا أن هذا التاريخ ـ منذ بدايته وحتى يومنا هذا ـ إنما هو صراع مكشوف ومستتر، ما بين تلك الدول والولايات الأمريكية.

فالولايات المتحدة لا تفهم من منطق التعاون الدولي سوى «الاحتواء» وهو الأمر الذي رفضته شعوب أمريكا اللاتينية، فكان هذا الرفض سبباً في سلسلة الانقلابات، والثورات، والاضطرابات، والفوضى التي كانت ـ وما تزال ـ تجتاح معظم تلك البلاد، في صراع ضد الهيمنة الأمريكية وأعوانها في الدول الأمريكية اللاتينية، وما يستتبعه ـ بالضرورة ـ من تنصيب «العملاء» حكاماً. ثم سقوط أولئك العملاء، بشكل أو بآخر ولسبب أو لآخر. ومجيء سواهم، لتعود الدوامة إلى الدوران من جديد، فإذا كان الحكام الجدد محل الرضى الأمريكي اشتعلت النار ما بين العميل الحاكم وبين شعبه، وإذا لم يكونوا كذلك هبت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لإسقاط أولئك الحكام تحت مختلف الحجج

وبمختلف الوسائل، حتى ولو أدى ذلك إلى ارتكاب عملية قتل علنية كما حدث مع رئيس التشيلي السابق «الليندي».

ولأن أوروبا الغربية أكثر تحضراً وثقافة ووعياً، فقد كان مسار علاقاتها مع أمريكا يتسم، ظاهرياً، بالتفاهم والانسجام، ولكنه لا يلبث أن يتفجر على شكل خلافات حادة، كما حدث أيام ديغول ومن تلاه من الرؤساء الفرنسيين.. وما أعقب ذلك من هزات عميقة أصابت المؤسسات الأوروبية الوحدوية كالسوق المشتركة والبرلمان الأوروبي وغيرهما.

ولولا أن لأمريكا صديقين مطيعين في المجموعة الأوروبية ـ هما بريطانيا أولاً وألمانيا ثانياً ـ لكانت العلاقات الأمريكية ـ الأوربية أسوأ بكثير مما هي عليه الآن.

أما بالنسبة للسوفييت فالمسائل تعالج بشكل آخر فيه نسبة عشرة في المائة من السياسة وتسعون في المائة من العنف...

فالعلاقة بين السوفييت وحلفائهم هي علاقة تقوم تحت مظلة من حراب الجيش الأحمر ودباباته وطائراته وصواريخه.. فالحوار ممنوع، والتفاهم لا سبيل إليه، والرأي لا قيمة له، والموقف الذي يشتم السوفييت منه شيئاً من التفكير في الانعتاق يسحق في الحال بالدبابات ولو أدى ذلك إلى إبادة أي عدد من البشر أو هدم مدن بأكملها على رؤوس أصحابها، وشواهدنا في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك ما حدث في ألمانيا الشرقية ثم في المجر ثم في تشيكوسلوفاكيا وبولندا.

وبالمنطق نفسه تدفقت آلات الحرب السوفيتية على أفغانستان لفرض نظام مرفوض من قبل الشعب بقوة الحديد والنار، ولا زال في أفغانستان قائماً على النحو الذي نعرف.

ولقد أشرت من قبل إلى المؤسسات التضامنية لدول ما يسمى بـ «العالم الثالث» ما بين منظمات وجامعات وهيئات لعدم الانحياز وللدول الأسيوية والدول الأفريقية والدول العربية وتبين لنا أن المنظمات التي لا تستهدف مصالحنا الحقيقية، مسلمين وعرباً، بشكل مباشر تعتبر منظمات «رمزية» أكثر منها عملية تستطيع أن تحقق لنا السلامة وسط غابة الوحوش المتصارعة في معظم بقاع الأرض.

ولعل الحقيقة الأولى التي يتوجب أن نستوعبها بأعمق ما يمكن من الفهم، هي أن أمة الإسلام هي الأمة الوحيدة في العالم ذات المؤهلات والمسوغات التي تسوق ـ تلقائياً ـ إلى أن التضامن والتعاون والتفاهم هي الحالة الطبيعية التي يجب أن تكون، وأن خلاف ذلك هو حالة شاذة يجب أن يوضع لها حد، ويوجد لها حل، وأن يقضى عليها من غير تردد.

فالتضامن ـ كما هو معروف ـ هو من أسس الإيمان ومقوماته، والإسلام يأمر بالتضامن، ويحث على التعاون والإخاء، ويذكر المسلمين أننا أمة واحدة، وأن رضى الله

سبحانه وتعالى هو جزاؤهم الأكبر إذ يصدقون بموجبات التضامن، مع التحذير الشديد من التباعد والفرقة، والنهي عن العداوة والتنابذ.

فأن نتضامن، معناه أن نعبر عن صدق إيماننا، وأصالة انتمائنا إلى دين الحق، وأن نتباعد معناه أن نغفل أحد أسس الإسلام، وأن ندع أنفسنا للرياح، شرقية وغربية، تجذبنا هنا وتطوح بنا إلى هناك ونحن ـ في جميع الأحوال ـ لا حول لنا ولا طول.

نحن لا تهمنا دعوات أمريكا لإنشاء الأحلاف، و«الأحزمة» حول بلاد السوفييت بحجة حماية «العالم الحر».

ولا تهمنا محاولات السوفييت لإقامة نظم موالية لهم، وإشعال نار الاضطرابات تضامناً مع ما يسمونه «الثورة التحررية العالمية»...

فكلا الجهتين لا تهتم بأمرنا إلا بمقدار ما تفيد منا، ولا تنظر إلينا أكثر من نظرتها إلى موارد الطاقة، وإلى وقود لصراع قد يقع بينها وبين الدولة الأخرى، تتقي شرورها بنا، وتحتفظ برأسها ـ وقت الصراع ـ سالماً على حسابنا.

ولا تخدعنا، بأية حال من الأحوال، دعوات هؤلاء ولا دعايات أولئك، حول «السلام» و«العدل» و«حقوق الإنسان» و«ميثاق الأمم المتحدة» و«ميثاق الأطلسي» (هل تذكرونه؟)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و«الحريات الأربع» . . . وكل ذاك اللغو الذي لا يزيد عن أن يكون بضاعة مرحلية تتاجر بها الدولتان الكبريان كلاهما، من أجل تحقيق مصالحهما الذاتية ليس غير، دون أدنى اهتمام بالنظر في مصالحنا.

هذه حقائق لمسناها وعايشناها في مناسبات كثيرة، لعل أهمها وأكثرها تأثيراً موقف الدولتين، كلتيهما من صراعنا التاريخي مع العدو الصهيوني. فما من منطق يبرر أكبر جريمة في التاريخ - وهي جريمة انتزاع فلسطين من أهلها - على يد الدولتين الكبريين بالذات، وتعاونهما - لأول مرة وآخر مرة - معاً في الأمم المتحدة ومجلس الأمن وعلى الطبيعة لسلب الحق العربي وفرض الباطل الصهيوني.

فلا خير لنا - إذن - يرجى من أي من المعسكرين، والخير - كل الخير - في أن نعرف مصالحنا ونتجه إلى إخوتنا، فنتضامن ونتعاضد ونتكاتف، ونشكل الكتلة الإسلامية الدولية الحقيقية التي لا يقتصر نشاطها على الأمم المتحدة وحدها (وهو نشاط مذكور ومشكور) وإنما يمتد إلى جميع نواحي الحياة.

التضامن الإسلامي هو الحل. . ولا حل سواه بالنسبة لنا كمسلمين، وكعرب ضمناً. . .

ولو أنك وقفت أمام خارطة تمثل ما بين المحيط الهادىء والمحيط الأطلسي لكان أول ما يلفت انتباهك هو ذلك الامتداد المهيب للعالم الإسلامي، من أندونيسيا في أقصى الشرق إلى

المغرب والسنغال في أقصى الغرب.

وهو امتداد متواصل لا يقطعه سوى السرطان الصهيوني الذي أقيم عند موقع التقاء القارتين الأسيوية والأفريقية، وهذا - بالتحديد - ما أراده أعداء الإسلام حين زرعوا ذلك الجسم الخبيث في قلب العالم الإسلامي.

فمن حيث الكثافة البشرية نكاد نبلغ ضعف الكثافة الروسية والأمريكية معاً. . ومن حيث الثروات الطبيعية من زراعية ومعدنية نملك منها ما لا يكاد ينفد معينه إلى بضع مئات مقبلة من السنين. . .

ومن حيث الإمكانات الصناعية والإنتاجية تتفتح الآفاق أمامنا لكي نفعل الكثير إنتاجياً واستهلاكياً. .

ولو جمعنا القوى المقاتلة التي نستطيع أن نحشدها، كما كنا نفعل أيام الأمجاد الإسلامية لاجتمع لنا جيش ربما لا يدانيه، من حيث العدد، جيش في الدنيا. .

ولو. . ولو. . . إلى آخر تلك الافتراضات التي نخرج منها دائماً بنتائج تدعو للتفاؤل والارتياح. . خلافاً لما قد يتبادر للذهن أول وهلة. .

لماذا - إذن - لا نحقق أهدافنا في الوقوف قوة عالمية عظمى لها وزنها ولها كلمتها ولها هيبتها واحترامها؟

والجواب نجده - للأسف - من خلال وقفة أخرى نقفها أمام خارطة العالم الإسلامي. . من المحيط إلى المحيط. . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنك لو أمسكت ورقة وقلماً، وحاولت أن تستعرض نقاط الخلاف ونقاط الوفاق القائمة فعلاً بين بعض الدول الإسلامية لروعتك النتيجة.. فتلك الدول تشغل نفسها في خلافات فيما بينها لا قيمة لها ولا وزن، ومع هذا فإنها تستهلك جهدها ومالها، وأحياناً طاقاتها العسكرية، وتصرفها عن الأمور ذات الأهمية الحقيقية..

ولو حاولت أن تعرف أسباب تلك الخلافات لكانت نتيجة ذلك أكثر ترويعاً.

فأنا لم أقتنع قط بأية حجة أدلى بها المختلفون فيما بينهم في تبرير خلافهم مع هذا الشقيق المسلم أو ذاك.

كلها حجج مصطنعة، وأسباب واهية ـ غير بعيدة في الواقع عن الأصابع الأجنبية الغربية ـ ويمكن أن تحل في لحظة واحدة إذا كانت الإرادة صادقة والنية سليمة.

ولا أريد أن أذكر أسماء هنا، فكل قارىء يعرف تلك الأسماء، ولكنني أناشده أن يوجه تفكيره ـ بضع دقائق فقط ـ إلى عوامل الخلاف بين بعض الدول الإسلامية، ثم يفيدني عن مدى قناعته بجديتها واستحقاقها للاستمرار والبقاء.

إنني على أتم اليقين بأن الجواب سوف يكون أنه لا شيء يرقى إلى مرتبة الجدية، وأن كل شيء يمكن حله وتصفيته في دقائق...

إذاً، فالحرب الدائرة في الخليج الآن... ما من أحد يعرف لها سبباً ولا أحد يعرف لها هدفاً، ومع هذا فقد استنفدت أكثر من مائتي مليار دولار حتى الآن، أخذها تجار السلاح وصانعوه في أوروبا وأمريكا وروسيا، وراحت عشرات الآلاف من الضحايا، عسكريين ومدنيين، وتعطلت مسيرة التضامن الإسلامي في هذا الجزء من العالم دونما سبب مفهوم، أو هدف معلوم...

إننا نسجل ـ بكثير من الألم ـ أن الجهد والمال والسلاح والوقت الذي أهلك في تلك الحرب التي لا معنى لها كاف لأن يقضي على إسرائيل عشر مرات على الأقل مع ما تملك من سلاح وإمكانات عسكرية...

ترى هل استمرار اشتعال هذه الحرب إشارة لإسرائيل كي تطمئن، وبالتالي كي تسدر في عربدتها وعدوانها في لبنان وغير لبنان...؟...

لقد كان من أولويات ميثاق التضامن الإسلامي أن الأمور الداخلية لكل بلد إسلامي هي من شأنه وحده، ولا يسمح بالتالي بلد إسلامي ما لنفسه أن يدس أنفه في شؤون سواه، فإذا ما نظرنا إلى حالة العالم الإسلامي اليوم ودققنا في أبعاد الاعتداءات والتدخلات والهجمات المختلفة بين الدول الإسلامية، لوجدنا أسئلة كبرى.. تبقى حائرة بدون إجابة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للجهود التضامنية وإهدار للوقت والجهد والمال والأرواح فيما لا طائل تحته.

لقد خاضت دول أوروبا حرباً طاحنة ضد بعضها (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) راح ضحيتها أكثر من عشرة ملايين نفس، ودمرت دول ومدن، وأهددت مليارات الدولارات، وطالت آثارها كل بقاع الأرض تقريباً.

اليوم نجد هناك من يقول أنه لم يكن لها مبرر ـ تصور ـ وأنه كان في الإمكان تلافيها بشيء من الحكمة والتفاهم، لا سيما بعد مآسي الحرب العظمى التي سبقتها (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ووجه كثير من الباحثين والمحللين جهودهم لتقصي الكيفية التي تطورت فيها الحرب إلى المدى الذي وصلت إليه، وخرجوا بتلك النتيجة التي أشرنا إليها.

بل إن هتلر نفسه ـ وهو المتهم بإشعال نار الحرب ـ قال في وصيته التي عثر عليها في مقره بعد اختفائه «اللعنة على من أشعل نار هذه الحرب» وهو بذلك يشير إلى «الأصابع الخفية» التي لعبت لعبتها عند انتهاء الحرب العالمية الأولى التي أذلت ألمانيا وقيدتها بقيود لا يمكن إلا أن تؤدي إلى حرب جديدة وهو ما جرى فعلاً.

أريد أن أقول إن الحرب هي أبشع جريمة ترتكبها دولة تستطيع أن تحل مشكلاتها مع الآخرين بالتفاهم والنية الطيبة،

لمصلحة من تتم هذه التدخلات في الشؤون الداخلية لبلدان إسلامية من بلد إسلامي آخر وأي سند لها؟ وعلى أي حكم من أحكام الدين تعتمد...؟

ولماذا لم تفلح المؤسسات... والتنظيمات الإسلامية في وقف هذا النزيف ومنع هذا البلاء الذي يعصف بأبناء هذه الأمة.. ويضعفها... ويهدر إمكاناتها؟

إنه سر آخر من أسرار العجز الإسلامي، والعربي ضمناً، حين نرى السلاح يمتشق لتقاتل الأخوة، وأعداؤهم الحقيقيون يسرحون على هواهم في فلسطين وما جاورها، وفي منطقة الخليج، وفي أفغانستان، وفي بقاع إسلامية وعربية أخرى.

إننا لا نفهم ـ ولا نقر ـ منطق أي مسلم يرفع السلاح في وجه أخيه المسلم مهما كانت المبررات ولا نغفر ـ ولا نتسامح ـ أن يتخذ بعض المسلمين الاقتتال وسيلة لحل الخلافات في شؤون يمكن حلها في جلسة واحدة تصفو فيها النية وتصدق الإرادة.

فالتضامن الإسلامي هو الحل الذي تستطيع كل دولة إسلامية أن تجد فيه خلاصاً من بعض مشكلاتها وكل خروج عن مقتضياته إنما هو بمثابة تعطيل للمسيرة الإسلامية، وتخريب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكيف يكون الحال إذا كانت الدولتان شقيقتين وجارتين ومسلمتين..؟

وأخيراً..

أعود وأقول، إنه وسط أزيز رصاص الكاوبوي الأمريكي، ووقع خطوات الدب الروسي، في هذا الزمن لا مصلحة لنا، نحن المسلمون، في حلف مع هذا أو معاهدة مع ذاك، فأحلافنا نعقدها فيما بيننا ومعاهداتنا نبرمها فيما بيننا وخلافاتنا، يجب أن نحلها فيما بيننا.

فنحن أقوياء بقدر ما نتضامن ونحن ضعفاء بقدر ما نتباعد.. نحن أقوياء بالله، وبديننا، ثم بأنفسنا وبأصالتنا.. ووعينا.. وحسن استخدام إمكاناتنا..

ونحن ضعفاء إذ نغفل عن أن التضامن والتواد والتراحم هي بعض ما أمرنا به ديننا القويم.. وإذ نعي ذلك، ونعمل به، فليس يهمنا ـ بعون الله ـ أن يطلق الكاوبوي الأمريكي مسدسه في أي اتجاه.. ولا أن يسير الدب الروسي في أي مكان ما دمنا قادرين، بتضامننا وتعاوننا على العمل المخلص.. الصادق.. البناء وأن نكون كالجسد الواحد.. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.. عندها ندعو.. وننادي بأعلى أصواتنا..

اللهم.. اللهم نصرك الذي وعدت، وعندها تكون الإجابة.. ويكون العون فذلك وعد الله.. ولن يخلف الله وعده...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفي عقر دارنا

نعم في عقر دارنا؟؟ . . أي والله في عقر دارنا . . .

لم يكتف التبشير ـ أو بالأحرى التنصير ـ بأن يصول ويجول في بعض البلدان كأندونيسيا . . وأفريقيا . . وإنما سولت له نفسه الخبيثة أن يغزونا في عقر دارنا . . وأن يتخذ من منطقة الخليج منفذاً لما يبثه من سموم . . وما ينشره من ظلام وضلال .

أتظن الصليبية الحاقدة الماكرة أننا قد هنّا على أنفسنا إلى هذا الحد :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى استامها كلُّ مفلس

رسائل التنصير تصل وفي وضح النهار إلى أبنائنا في مدارسهم لتنقلهم من الإسلام إلى النصرانية . . أو إلى أي شيء غير الإسلام . . **﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . . .﴾** (النساء/٨٩) .

الإنجيل المحرف وكتب أخرى أضل وأخزى . . تصل

عياناً بياناً دون حياء ولا خجل ولا كسوف إلى كبار رجالات الدولة ظناً من مرسليها أن مثل هؤلاء تنطلي عليهم مثل هذه الخدع فيخرجون من نور الإسلام إلى ضلالات التبشير وظلمات التنصير . . والله متم نوره ولو كره الكافرون .

إذاعات تبث برامجها بالعربية من محطات بعيدة عن دول الخليج مثل فرنسا . . واسبانيا . . ولبنان . . وجزر سيشل . . بل والسودان . . فتنشر سمومها بشتى الأساليب لتجذب قلوب المسلمين فتذيع نشرات إخبارية عالمية تحوز إعجاب المستمعين وتستهوي أفئدتهم . . وتسلس قيادهم لاستماع ما بعدها من الترهات والخزعبلات والأباطيل في صورة مضللة . . وحيل مقنعة . . يلبسون الحق بالباطل . . ويحرفون الكلم عن مواضعه مدعين أنهم مصلحون . . **﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾** (البقرة/١٢) .

هناك عدد من المكتبات في دول الخليج تعمل مع المبشرين تجارياً على توزيع مطبوعات التبشير ونشراتها . . وهناك مكتبات تصل مبيعاتها في السنة إلى خمسمائة ألف دولار أمريكي)[1] .

بل إنه : (توجد في إحدى دول الخليج أيضاً مكتبة مسيحية يديرها أشخاص لهم علاقة بالكنيسة الإصلاحية في

---

(١) التبشير المسيحي في منطقة الخليج تأليف أحمد فون دنفر .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدانمارك.. وتقدم كتب التوراة والمطبوعات المسيحية بلغات مختلفة.. ومبيعاتها في السنة تصل إلى حوالى مليون دولار)[1].

وتوجد أيضاً مستشفيات في دول الخليج تابعة للتبشير يصل عدد الذين يترددون على عيادة مستشفى واحد منها إلى اثنين وستين ألف مريض في السنة الواحدة.. وخلاف من تضمهم الأسرة وقد هيئت لهم جميعاً أماكن للمطالعة.. ومكتبات لبيع الكتب والمطبوعات المسيحية.. وأشرطة تسجيل تحتوي على مواعظ ودعاية مكشوفة للمسيحية المشوهة في بلاد المسلمين.. في أرض الخليج.

ولقد وصل الأمر إلى: (أن مجموع المبالغ الموضوعة تحت تصرف سبع فقط من المنظمات التبشيرية الرئيسية الموجودة في الخليج تبلغ ثلاثة عشر مليون دولار أمريكي لتغطية نشاطها)[2].

كل هذا على مرأى منا ومسمع.. وهكذا نغزى في عقر دارنا.. ونهون على أنفسنا وعلى الناس ونحن خير أمة أخرجت للناس. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

قد تقول وما العمل؟؟..

---

(١) المرجع السابق.

(٢)

لقد درجنا.. ـ مع الأسف ـ على ترك المسائل العامة للحكومات.. ولا شك أن على الحكومات واجباً ينبغي ألا تفرط فيه.. لكن هذا لا يخلي أي فرد من المسؤولية.. إن على كل فرد منا أن يقاوم هذا الضلال في حدود مؤهلاته.. وإمكاناته.. الصحفي عليه دور كبير.. المذيع عليه نصيب مفروض.. الأستاذ وأعني به المربي لا مجرد المدرس.. العالم.. بل حتى الغني عليه الإنفاق السخي.. لأن للمال في هذا المجال دوراً أساسياً.. لا تنجح المهمة إلا به.. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مقصوراً على الحكومة.. ولا على أي طائفة..: «من رأى منكراً فليغيره بيده.. الحديث».. وقوله عليه الصلاة والسلام: «من رأى» يفيد صيغة العموم بحيث يلقي المسؤولية على كل فرد في حدود إمكاناته ومؤهلاته بالشروط المعروفة عند الفقهاء.

إنني أدق من هنا ناقوس الخطر...

إن هذا أمر لا ينبغي التهاون فيه فضلاً عن السكوت عنه ولا يزال الذين كفروا يقاتلونكم ـ بكل الأسلحة الظاهرة والخفية ـ حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا فـ: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ و: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**﴾.

صحيح أن الأجانب في دول الخليج كثيرون.. وربما كان معظمهم من المسيحيين أو غير المسلمين.. ولكن هؤلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنصرين يدخلون إلى المسلمين من طرق عدة أخطرها:

١ ـ التطبيب أو التعليم فتوجد مستشفيات (ظاهرها العلاج وباطنها التنصير). وقل مثل ذلك في المدارس التبشيرية.

٢ ـ أما التبشير المستتر والمتمركز فيمن تستجلبه دول المنطقة من المهنيين والتقنيين وأصحاب الحرف مما تدعو إليه الحاجة واطراد النمو والتقدم.. هذا التبشير المستتر لجأت إليه الكنائس عندما علمت أن المسلمين لا يقبلون التبشير الواضح المكشوف.. ولو استتر ضمن التطبيب.. أو اندس بين جنبات التعليم وخطورته تتمثل في العلاقات الشخصية بين المبشر وبين المسلم الذي يعمل معه في نفس الحقل المهني كالهندسة أو المحاماة فإنه عن طريق هذه العلاقة الشخصية يستطيع أن ينفث سمومه بخاصة في نفوس العوام وأنصاف المتعلمين.. بل حتى المثقفين الذين يكون محصولهم من التعليم الديني ضئيلاً نسبياً بحيث لا يستطيعون مجابهة هذا المبشر الزميل.

ويجدر بنا أن نشير إلى نقطة بالغة الأهمية وهي أن أخطر أنواع هؤلاء المبشرين المستترين، هم أولئك الذين يدعون أنهم اعتنقوا الإسلام.. ولا شك أن من بين من يعتنقون الإسلام من المسيحيين أو غيرهم أناساً صادقين كل الصدق..

ولكن التجارب دلت وتدل على أن هناك من يعتنقون الإسلام لحاجة في نفس صهيون أو البابا.

ومن علامات هؤلاء أنهم لا يتكلمون في أحاديثهم الودية عن مثالب المسيحية التي خرجوا منها (ظاهرياً) ولا عن محاسن الإسلام الذي يدعون أنهم دخلوا فيه (كذباً وافتراءً) ويشتغلون بالتصوف لما قد يجدون فيه من الثغرات.

إن في هذا لدلالة على خطر هؤلاء المدعين للإسلام من الافرنجة الذين نفتح لهم صدورنا فينفثون سمومهم في نفوس ألبسطاء منا ويحاولون أن يشككوهم في دينهم وليس عليهم إلا أن يدخلوا في المسيحية.. المهم زعزعة العقيدة الإسلامية التي هي العقبة الكأداء أمام مطامع الصهيونية والصليبية والاستعمار.

فعلينا أن نقف لهؤلاء بالمرصاد. وعلى الهيئات الإسلامية بالتعاون مع المسؤولين في دول الخليج والدول الإسلامية أن تخلق وظائف في كل دائرة فيها إنجليزي أو أمريكي مسلم بحيث يشغل هذه الوظيفة شخص من أهل العلم والإيمان ليراقب حركات هؤلاء ويرصد أقوالهم فمن ثبت له أنه مسلم صحيح الإسلام شريف المقصد فبها ونعمت ومن وجد منهم من يبطن الكفر أو التنصير ويظهر الإسلام لفت إليه نظر المسؤولين مدعماً رأيه بالحجج والبراهين.. يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات﴾. أي بعد الامتحان ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار..﴾ هذا في حق النساء.. فما بالك بالرجال.

لا شك أن الجهات الشرعية التي توافق على إسلام هؤلاء لا تدخر وسعاً في التأكد من صحة إسلام من يعلن إسلامه أمامها.. ولكن التجربة والاحتكاك هما المحك الذي لا يكذب أبداً.. وهذا لا يتوفر في جلسة أو جلستين من هذه الجهات بطبيعة الحال.

وبعد فإن عندنا جيشاً من أبنائنا المسلمين يمضون العطلات الصيفية المدرسية فيما لا يسمن ولا يغني من جوع.. فلماذا لا تهيء المراكز الإسلامية والمنظمات الإسلامية بمساعدة الرابطة وتأييدها ودعمها وتوجيهها.. لماذا لا تهيء لهم (المعسكرات) التي تتغلغل في البلاد التي يخشى على شبابها من خطر التنصير والشيوعية أو الإلحاد.. وتكون هذه المعسكرات تحت رعاية نفر من أهل الفكر والعلم والمعرفة والنور من الأساتذة.. يعقدون الندوات العامة والمجالس الخاصة ليضعوا النقط فوق الحروف.. وليبينوا للشبيبة وولاة أمور الشبيبة ما يحدق بهم من أخطار التضليل والإغراء بشتى الوسائل حتى (الجنس) وتسهيل الفروض وتخفيف الأحكام تحت ستار الإسلام وإشاعة الفوضى باسم الحرية.. الخ.. الخ.

إن كل هذا وغير هذا مما ذكرنا يلقي مسؤولية لا تقدر ضخامتها على كل مسلم وعلى كل مسلمة. وهي إذاً مسؤولية أمام الله عز وجل.. ولا بد من استنفار الجهود لمواجهتها والتنبيه لمخاطرها.. وهي مسؤولية مشتركة كمسؤولية انتشار المخدرات بين ظهرانينا.. ولا يمكن قصر الجهود في هذا أو ذاك على أجهزة الدول ولا على المجهودات الرسمية.. ولا بد من فضحها والتصدي لها ومواجهتها بكل شجاعة وبكل مسؤولية وعدم الغفلة عنها.. خصوصاً وقد ركبوا الموجة الجديدة التي يسعون فيها إلى إقناع الناس بأن التعامل مع مثل هذه المنشورات هو نوع من التواصل الحضاري.. ويعلم الله كذب ادعائهم هذا.. فما هي إلا تبشير واضح.. والتواصل الحضاري لا يكون عن طريق بعث منشورات تشكك في الدين الإسلامي وتدعي بالباطل أن الكتاب المقدس لم يحرف.. وأنه الإنجيل الذي بين أيديهم.. وهو أبعد ما يكون عن قول الله عز وجل.. وحاشا أن يقول الله عز وجل مثل هذا البهتان والإثم الذي ينشرونه بين الناس.. والذي كما قال الأستاذ أحمد ديدات: يخجل الإنسان من قراءة بعض فقراته لعظم ما دسوا فيها من العبارات البذيئة والجمل الساقطة التي تتنافى مع قول الله عز وجل.. ولكنه التحريف والتبديل والتغيير ثم الادعاء أنه من عند الله. وما هو من عند الله. ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف ٢١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المهم أن نكون في يقظة وفي تنبه.. وأن نعتبر أن وقوفنا في وجه هذا التبشير الجديد هو نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله. حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والله الموفق.

أحجار في عصر الصواريخ

غريب أمر هؤلاء الفتيان والفتيات.. بل وحتى هذه الجموع من الأطفال في داخل فلسطين..

كيف لجؤوا إلى الحجارة يرهبون بها عدو الله وعدوهم؟؟

ما الذي حدث..؟؟

ولماذا يفعلون هذا العمل..؟؟

وماذا يرتجون منه..؟؟

وما الذي يمكن أن تصنعه حجارة في عصر الذرة والصواريخ..؟؟

وما هو الدافع الذي أخرجهم عن صمتهم.. وعن حدهم..؟؟

والحق يقال، أنهم أزعجوا السلطات المستعمرة في الداخل.. وأقضوا مضجعهم.. لا خوفاً من الحجارة.. ولكن تحسباً لمعانيها.. وأبعادها فهؤلاء الذين يقذفون بالحجارة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هم في عرف الإسرائيليين أبناء هذه الأرض الإسرائيلية.. وقد نشأوا وعاشوا في معزل عن التيارات العربية المعادية لهذا الكيان الذي نشأ على هذه الأرض.. وحرص على تكريس شرعيته بكل الوسائل.. وعمل على عزلهم عن كل ما هو عربي وإسلامي.

فلماذا ثار هؤلاء..؟؟

ومن علمهم أن يغضبوا..؟؟

ومن بدلهم..؟؟

وغير هويتهم الإسرائيلية خصوصاً عرب ٤٨.. الذين مضى عليهم ما يزيد عن أربعين عاماً من التعسف.. والقهر.. ومارست إسرائيل كل وسيلة ممكنة لمحو هويتهم.. وعزلهم.. وإبعادهم عن منابعهم الأصيلة..

فلماذا ثاروا..

ومن علمهم..؟؟

ومن لقنهم..؟؟

وتكشفت الحقيقة..

إنهم ليسوا إسرائيليين.. ولكنهم عرب وفلسطينيون حتى العظم.. يرفضون فكرة إسرائيل.. ويكرهون الانتماء إليها.. وكلما حانت الفرصة المواتية رفعوا هاماتهم.. وتطاولت أعناقهم.. وصرخوا من الأعماق بأنهم يرفضون الاستعمار..

ويأبون الذل.. وأنهم رضعوا الشهامة والإباء.. وتغذوا على موائد البطولة.. وعاشوا على أمل تحرير الأرض.. واسترجاع كرامة الوطن..

وأدركت إسرائيل أن الحجارة تعني أمراً خطيراً.. وتدق نواقيس كوارث جسيمة..

فهؤلاء الصبية ليسوا إسرائيليين. وإن صمتوا. وإن صبروا..

وهذا الأمر جد خطير..

وهو يهدد بزوال هذا الكيان الإسرائيلي الحاضر ولو بعد حين..

وهو يعني زوال فكرة إسرائيل الكبرى..

وزوال فكرة، دولة التوراة..

وبرز السؤال المهم..

وهو لماذا غضب هؤلاء..؟؟

وما الذي أخرجهم عن صمتهم.. وعن هدوئهم..؟؟

لقد أخرجهم القهر.. والظلم.. والإذلال الذي تمارسه إسرائيل يومياً.. وخصوصاً تلك الفئات التي تتسلط باسم الدين اليهودي.. وباسم تعاليم موسى عليه السلام.. ونبي الله موسى عليه السلام بريء منهم.. ومن أفعالهم...

ورغم أننا لا نميل كثيراً إلى الدخول في دهاليز المقارنات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدينية أو إصباغ كل حدث أو ظاهرة بالصبغة الدينية إلا أن ما جرى في فلسطين المحتلة بعد أربعين عاماً على قيام إسرائيل (١٩٤٨ ـ ١٩٨٨) قد أعاد فتح ملف الصراع العربي الإسرائيلي من أول أوراقه وليس من آخرها.. من فكرة إقامة دولة توراتية دينية صهيونية تغتصب أرض الغير وليس من إقامة مؤتمر دولي يبحث التسوية بين العرب واليهود.

لقد استطاعت الانتفاضة الشعبية العارمة التي يتساقط بسببها الشباب الفلسطيني يومياً تحت وابل رصاص التحضر الإسرائيلي أن تقول للعالم إن الحقيقة لم تكتمل بعد وإن القصة ما زالت تتفاعل باحثة عن حوار جديد قبل أن تكتمل فصولها ويركن كل من المنتصر والمنهزم على حجر صخري يسند ظهره»[1].

ولقد أخرجت هذه الانتفاضة حتى الأعداء عن صمتهم.. فتكلمت صحافة إسرائيل نفسها بأن هذا شيء لا بد أن يحسب حسابه.. وانه محصلة ممارسات لمجموعات متطرفة من رجال الدين وبعض العسكريين: «بل إن بعض الصحفيين الإسرائيليين أنفسهم ساهموا في تعرية هذا التعصب الأعمى والأهوج فحذروا قادتهم من الانزلاق بسرعة جنونية في

(١) التطرف الإسلامي والتطرف الإسرائيلي ـ صلاح الدين حافظ ـ الأهرام ـ تاريخ ٢٤/٥/١٤٠٨ هـ الموافق ١٣/١/١٩٨٨ م.

طريق قمع الفلسطينيين لأن هذا القمع هو الذي يقوي إصرار الشعب الفلسطيني على استرداد حقهم ووطنهم ومستقبلهم المغتصب»[1].

إن القضية ليست رد فعل لما قام ويقوم به المتطرفون في إسرائيل فحسب.. ولكنها انتفاضة تعبر بصدق أن هؤلاء قد سئموا هذا الاستعمار البغيض.. وإن قلوبهم حية.. وضمائرهم يقظة.. وأعينهم تتطلع إلى مستقبل يتمتعون فيه بالحرية التي حرموا منها كل هذه السنوات حتى ظن المستعمر الصهيوني أن الأمر قد استتب.. وأن أحلامهم قد تحققت.. وإذا بهؤلاء الفتيان والفتيات ينسفون كل هذا.. ويجعلون فكرة إسرائيل الكبرى وهماً قد ذهب إلى غير رجعة.. ويجعلون أحلام الصهاينة في مهب الريح.

إن إسرائيل أصلاً قد قامت على فكرة عنصرية توراتية.. ومحركها كله محرك عنصري يسعى لتكوين الدولة العبرية.. ولكنهم أجبروا تحت ظروف معينة أن يتجهوا نحو نوع من التقية فيظهروا أمام الدول الغربية بمظهر الديمقراطية..

(١) التطرف الإسلامي والتطرف الإسرائيلي ـ صلاح الدين حافظ ـ الأهرام ـ تاريخ ٢٤/٥/١٤٠٨ هـ الموافق ١٣/١/١٩٨٨ م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا فضحتهم الانتفاضة.. وكان لا بد من قرار هل نحن دولة عبرية.. يهودية.. صهيونية.. أم نحن دولة ديمقراطية..؟؟

وكيف يمكن أن نوفق بين هذه التناقضات وهناك ما يزيد عن ٤٢٪ من السكان في بعض المناطق من العرب.. وهناك ما يزيد عن ١٨٪ من السكان في المناطق اليهودية من العرب الفلسطينيين.. إن إسرائيل كما قلت قامت على فكرة عنصرية: «ويكفي أن نعيد قراءة بعض أوراق التيارات العنصرية اليمينية في إسرائيل مثل عصابات الهاجاناه وشتيرن التي هي اليوم تحتل أفكار أحزاب سياسية رئيسية تتبادل الحكم مثل حزب العمل بقيادة شيمون بيريز.. والليكود بقيادة إسحق شامير أحد أبرز قادة شتيرن. يكفي أيضاً أن نعيد قراءة أوراق المنظمات والأحزاب الدينية المتطرفة التي ازدهرت مؤخراً في بيئة حاضنة مشجعة مثل (حاتحيا ـ ٥ مقاعد في الكنيسيت ـ بقيادة جيئولا كوهين ويفال نيئمان) ومثل (موراشا ـ مقعدان في الكنيسيت ـ بقيادة حائيم داركمان) و(جوش أمونيوم بقيادة الحاخام موشي ليفنجر وكاخ ـ مقعد واحد ـ بقيادة الحاخام كاهانا).

وكلها أحزاب ومنظمات بالغة التطرف تؤمن بالإرهاب الديني والسياسي والعسكري وتتبنى فكرة إسرائيل الكبرى»[1].

(١) التطرف الإسلامي والتطرف الإسرائيلي ـ صلاح الدين حافظ ـ الأهرام ـ تاريخ ١٤٠٨/٥/٢٤ هـ الموافق ١٩٨٨/١/١٣ م.

وهكذا نحس أن التطرف ديدنهم.. والعنصرية أساس حياتهم. وهم يكرهون العرب.. ويكرهون بقاء أي عربي.. ويتمنون إخراجهم وطردهم.. وقد مارسوا كل أنواع البلايا والرزايا. والحروب لمضايقة السكان العرب الأصليين لإجبارهم على الرحيل في إطار خطتهم لتطهير إسرائيل من العرب.. وقد أعلن ذلك الحاخام (مائير كاهانا) زعيم حركة كاخ.. وهو حليف لزعيم المافيا الأمريكي الإيطالي الأصل جوكوليميو.. وعميل لمكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية كما يروي الأستاذ صلاح الدين حافظ فيقول: «إسرائيل دولة يهودية دينية ليست علمانية كما يدعي البعض يجب أن يحكمها (الهالاكا) أي القانون الديني المستمد من التوراة حيث لا يمكن أن تتعايش مع الأفكار الحديثة كالعلمانية والديمقراطية.. ويجب أن تتطهر من كل غير اليهود حتى تبقى نقية عرقياً ودينياً. وبالتالي علينا أن نطرد العرب فوراً ذلك أنه بعد عشرين عاماً من الآن سيعادل عدد العرب عدد اليهود داخل إسرائيل ساعتها سيصبح الموقف عصيباً..

أما الآن فيجب اللجوء للقوة والعنف لطردهم وزرع الرعب في قلوبهم وترويعهم حتى يخرجوا سريعاً لأن كل واحد فيهم يعارض دولة إسرائيل... ولا نستطيع أن نجلس هكذا بينما هم يقذفوننا بالأحجار وبينما هم يتكاثرون كالأرانب في حين يجب أن يتكاثر اليهود أنفسهم كالأرانب كالعرب الذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشكلون مصدر الخطر ضدنا»[1].

ثم يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يحرم كل اختلاط مع العرب. . . ويرى أن الزواج المختلط هو جريمة: «يقول كاهانا ـ نؤمن بأنه غير مسموح للعرب ولكل من هو غير يهودي بالاختلاط باليهود خاصة في المطاعم والمتنزهات والشواطىء. . وغير مسموح أيضاً بالزواج المختلط خاصة بين العرب واليهود أريد أن أجعل مثل هذا الزواج جريمة في إسرائيل. . المشكلة ليست في حالات الزواج المختلط فحسب لكني أريد أن أتخلص من كل العرب الذين يعيشون في إسرائيل ولا يمكنني اتخاذ إجراء الآن مع الزواج المختلط إلا التشجيع على الانفصال. الغالبية العظمى من المتزوجات من العرب هن من اليهود الشرقيين (السفاريدم) لأنهن فقيرات يقعن في حبائل إغراء الشباب العرب الذين يكسبون مالاً ويقتنون البيوت والسيارات ولكن علينا ـ يتابع كاهانا ـ أن نعلم هؤلاء أن اليهود أمضوا في اليمن ألفي سنة دون أن يقعوا في خطأ مثل هذا الزواج المختلط خاصة مع العرب أعدائنا»[2].

هؤلاء هم الإسرائيليون الذين انزعجوا من انتفاضة الأبطال الصغار رغم أنهم ظلموهم. . وشردوهم. .

(١) (٢) التطرف الإسلامي والتطرف الإسرائيلي ـ صلاح الدين حافظ ـ الأهرام ـ تاريخ ١٤٠٨/٥/٢٤ هـ الموافق ١٩٨٨/١/١٣ م.

ومزقوهم. . وقتلوهم. . ومارسوا أقذر أنواع التفرقة العنصرية ضدهم.

ومع ذلك يستغربون ثورتهم. . وانتفاضتهم. . وهكذا علمنا هؤلاء الصبية درساً عميقاً وعلموا الأعداء أنه:

لا بد لليل أن ينجلي . . ولا بد للقيد أن ينكسر

وكنت أتتبع وكالات الأنباء تذيع أخبار الانتفاضة. . وإذا بشيخ الكويت. . وأمير الكويت يحلل أسباب هذه الانتفاضة ويقول في خبر بثته وكالة الأنباء الكويتية: «قال سمو أمير البلاد بأن انتفاضة الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة جاء نتيجة أمرين الأول القهر والإذلال اللذان لَقِيَهما ويلاقيها إخواننا في الأرض المحتلة. . والثاني المشاعر الحقيقية اليائسة التي تمكنت في نفوس إخواننا هناك تجاه أمتهم العربية وزعاماتها. فقد عاشوا على الوعود التي لم يجدوا لها نتيجة. . ولم يروا لها فاعلية»[1].

وأحسست بصدق العبارة. . وسألت الله أن يمنح هؤلاء مزيداً من تأييده. . ونصره. . ويعطي زعاماتنا مزيداً من البصيرة. . والقدرة على الحركة. . ويصلح شأن الرجال الذين

(١) وكالة الأنباء الكويتية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشرفون على القضية.. ويؤيدهم بتأييده.. ويعينهم على أن يروا الحق حقاً.. ويرزقهم اتباعه.. والباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه..

وتحية للذين يقذفون الحجارة في عصر الذرة...

فلنشكر الله

معظم كوارث الأمم التي سبقت في الزمن الغابر.. جاءت من كفران النعم.. ومعظم كوارث الأمم الحاضرة أيضاً جاءت من الكفر بنعم الله سبحانه وتعالى...

وانه لأمر مؤسف وخطير.. أن نرى بوادر ومؤشرات خطيرة.. تدل على أننا نسير في طريق خاطىء وخطير.. وأن بعضنا بدأ يكفر بنعم الله دون أن يشعر بذلك.. فهذه فتره تستوجب التوقف والتمعن والنظر في أبعاد المرحلة الحاضرة والخطيرة التي نمر بها.. هذه المجاعات التي تضرب في كل مكان.. في أفريقيا أناس يتضورون جوعاً.. ويموتون جوعاً.. في وقت أكرمنا الله فيه بشتى النعم.. وأسبغ علينا فضله ونعمه ظاهرة وباطنة.. ومع ذلك نرى اليوم أناساً يستهترون بنعم الله ولا يرعونها حق رعايتها.. ولا يتقون الله فيما آتاهم من فضله.. وهذه وايم الله أول درجات الكفر بالنعم.. فلا هم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحافظون عليها ولا هم يرعونها حق رعايتها ولا هم يشكرون الله تعالى على ما آتاهم من فضله.

مُرّوا بنا في مدننا وقرانا اليوم وقد أكرمنا الله بكل هذه النعم ودعونا نر شوارع وقد امتلأت جنباتها بألوان من النعم تُقذف هنا وهناك مع القاذورات.. في جوانب الشوارع. أنواع من الأطعمة مختلفة الألوان مختلفة الأشكال.. بل إنك لترى ذبائح بكاملها مقذوفة على جوانب الطريق.. على مقربة من أركان القمائم ومكان جمع القاذورات.. أو هكذا يكون شكر النعم؟؟ أو هكذا تكون العناية بنعم الله.. ألم نجد فقيراً نعطيه هذا الطعام ليسبح في باطنه ولنسد رمقه... ألم نجد وسيلة في التوفير فلا نقيم كل هذه الولائم.. وعلى هذا الشكل من البذخ والإسراف.. بل والسفه في كثير من الأحيان.. أليس هناك رادع يردعنا فنخشى الله في هذه النعم التي أصبحنا نستهتر بها ولا نرعاها حق رعايتها.. وهل نأمن مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون.. إنني والله ممن يتهيبون أبعاد هذه المرحلة.. وأبعاد هذا الإسراف والتبذير وهذا الاستهتار بنعم الله سبحانه وتعالى.. وقد كان رسول الله ﷺ يحدث السيدة عائشة رضي الله عنها.. يوم رأى كسرة ملقاة على الأرض فأخذها ﷺ وقال: «يا عائشة حسني جوار نعم الله عز وجل فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم»..

وكان ﷺ يستعيذ بالله من زوال النعم ومن فجأة النقم وتحول العافية وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وفجأة نقمتك وتحول عافيتك وجميع سخطك» وكان المبارك يروي عن الحسن قال إن الله ليُمتع بالنعم ما شاء فإذا لم يشكر قلبها عليهم عذاباً» وكان عمر بن سعيد بن أبي حسين يروي عن ابن حازم قال إذا رأيت الله عز وجل سابغاً نعمته عليك وأنت تعصيه فاحذره».

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الله عز وجل يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم إياه فذلك استدراج منه لهم».

ليت شعري هل نحس بأبعاد وخطورة ما نقوم به من كفران للنعم في وقت يسبغ فيه الله عز وجل علينا من فيض نعمه ثراء وصحة وأمناً وعافية.. فنعمه عز وجل تترى هابطة علينا ومعاصينا تتوالى مرتفعة إليه.. ثم فوق هذا كفر بالنعمة واستهتار بها وقذف لها وعدم شكر للمولى عز وجل على ما أصاب من نعم وكم منا من يتألم ويشكو من أدنى امتحان من الله عز وجل أو مصيبة ألمت به فيكفر بنعم الله عز وجل وينسى كل النعم التي أفاضها عز وجل.. وقد كان محمود الوراق ينشد هذه الأبيات من الشعر:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يـا أيهـا الـظالم في فـعـله
والـظلم مـردود عـلى مـن ظـلم
إلى مـتى أنـت وحـتى مـتى
تشكـو المصيبـات وتنسى النـعـم

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول كلما أبصر نعمة من نعم الله: «اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً أو أن أكفرها بعد معرفتها أو أن أنساها فلا أثني عليها».

ولعل خير الدعاء في مثل هذه الأيام أن نسأل الله أن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا وقد حذرنا عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾.

وكان إبراهيم بن أدهم عندما يسأل عن سبب عدم استجابة الدعاء يقول: تسألون ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا.. الله أكبر لا يستجاب لنا لأنكم:

عـرفـتـم الله فـلم تـطيـعـوه..
وعـرفتم الـرسـول فلم تتبعـوا سنتـه..
وعـرفـتـم الـقـرآن فـلم تـعـملوا بـه..
وأكـلتم نـعم الله فـلم تؤدوا شكـرهـا..
وعـرفـتـم الجـنـة فـلم تـطلبـوهـا..
وعـرفـتم الـنـار فـلم تهـربـوا مـنهـا..

وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه..
وعـرفـتم المـوت فـلم تستـعـدوا لـه..
ودفـنـتـم الأمـوات فـلم تـعـتـبروا..
فـتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس..

وكـانت هند بنت المهلب تقـول: «إذا رأيتم النعمـة مستبدرة فبادروها بالشكر قبل حلول الزوال».

أي إذا رأيتم النعمة مقبلة إليكم مسرعة فبادروها أي أسرعوا إلى شكرها قبل حلول الزوال..

وكان العقلاء من الناس هم الذين يشكرون الله سبحانه وتعالى حق شكره على نعمه ويتبعون أمر رسول الله ﷺ الذي كان يحرص أن يكون عبداً شكوراً وقد روى عتبة بن الأزهر قال كان محارب بن دثار قاضي أهل الكوفة قريب الجوار مني وكنت أسمعه في بعض الليل يرفع صوته في الدعاء وهو يقول: «أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد.. أنا الضعيف الذي توليته فلك الحمد.. وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد.. وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد.. وأنا الجائع الذي أشبعته فلك الحمد.. وأنا المسافر الذي صحبته فلك الحمد.. وأنا الغائب الذي آويته فلك الحمد.. وأنا الراحل الذي حملته فلك الحمد.. وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد.. وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد.. ربنا ولك الحمد حمداً على كل نعمة».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد فلنعد إلى أنفسنا ونتدارك ما فات ونتقي الله فيما بقي ونحرص على رعاية النعم وشكرها.

وهذا القرآن الكريم يعلمنا كيف نشكر الله سبحانه وتعالى ويؤكد الشكر فيقول عز وجل: **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**.

وقال عز وجل: **﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾**.

ويقول عز وجل: **﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما﴾**.

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى أن كل شيء يشكره ويسبح بحمده فيقول عز وجل: **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾** وهذا لقمان عليه السلام يشكر الله عز وجل ويقول الله سبحانه وتعالى في هذا الصدد: **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد﴾**.

اللهم علمنا أن نشكرك حق شكرك.. لك الحمد ولك الشكر يا رب العالمين.

وهذا رسول الله ﷺ عندما سئل عن إجهاد نفسه في العبادة وقد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر

فيقول ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكورا».

اللهم ربنا لك الحمد ولك الشكر **﴿ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي.. إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾**..

ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله.. بيدك الخير وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره.. أهل الحمد أنت لا إله إلا أنت إنك على كل شيء قدير.

اللهم تظاهرت علي منك النعم وتكاثفت مني عندك الذنوب فأحمدك على النعم التي لا يحصيها أحد غيرك.. وأستغفرك من الذنوب التي لا يحيط بها إلا عفوك..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهرس

للعقلاء فقط ٥
نحن أولى بهذا منهم ١٤
جيل يعشق الحوار ١٨
يا واش يا واش يا أولاد!! ٢٥
بيوتنا والحاجة إلى الحب ٢٩
ولكنهم شركاء ٣٤
بناتنا والميثاق الغليظ ٣٩
بعد الوداع ٤٥
الصفعات النفسية ٤٧
أسباب تراجع الأمة الإسلامية ٥٣
لو نفكر ساعة ٦٢
فساد العلماء ٦٧
خارج أسوار السجن ..... /٣
اللهم احفظنا ٧٩
ظلمات السجن ومتاهاتها ٨٢
عندما تتقاعد المرأة ٨٧
نظرات في عمل المرأة (١) ٩٧

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نظرات في عمل المرأة (٢) ١١٢
أقرأ ولا يقرؤون ١٢٢
من أين تبدأ النهضة عندنا؟؟ ١٢٦
الانشائيون العرب ١٤١
الكتابة والنقد بين الهواية والاحتراف ١٤٧
الخوف من الفجوة ١٥٤
من يصحح المعادلة الإعلامية في العالم ١٦٨
مع التحيات . . . إلى ماليزيا ١٨٢
حميدة . . . في كوريا ٢٠٠
أمريكا . . يوم . . خاص ٢٠٥
تركيا . مرحباً بالعثمانيين الجدد (١) ٢١٠
تركيا . مرحباً بالعثمانيين الجدد (٢) ٢٢٦
بين الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي (١) ٢٣٩
بين الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي (٢) ٢٥٧
بين الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي (٣) ٢٦٩
بين الكاوبوي الأمريكي والدب الروسي (٤) ٢٨٥
أفي عقر دارنا؟ ٢٩٨
أحجارة في عصر الصواريخ ٣٠٧
فلنشكر الله ٣١٧
الفهرس ٣٢٥

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com